الأسلوب النبوي في الدعوة

الدكتور
الشريف حمدان راجح الهجاري

٢١٩
هـ ع م

دار الهدى للطباعة
٣ ش النواوي - السيدة زينب

الإهداء

إليكم يا أهل طيبة الطيبة .

أهلى بيتى وإخوانى ورفاق الدراسة وأساتذتى فى مراحل الدراسة وأصدقائى وجيرانى ومن يعمل فى مجـــال الدعوة ، إلى الله أهدى هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين ، وقيوم السماوات والأرضين ، ومالك يوم الدين ، الذى لا فوز إلا فى طاعته ، ولا عز إلا فى التذلل لعظمته ، ولا غنى إلا فى الافتقار إلى رحمته ، ولا هدى إلا فى الاستهداء بنوره .

الحمد لله الذى شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته ، وأقرت له بالألوهية جميع مصنوعاته .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة قامت بها الأرض والسموات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها أرسل الله سبحانه وتعالى رسله ، وأنزل كتبه وشرع شرائعه ، فهى كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام ، وعنها يسأل الأولون والآخرون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه ، المبعوث بالدين القويم ، والمنهج المستقيم ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين ، وبعد :

بتوفيق من الله سبحانه وتعالى بدأت أبحث فى جانب من جوانب شخصية سيد المرسلين ﷺ ، وهو ما يتعلق بأسلوبه ﷺ فى الدعوة ، سائلا العلى القدير أن يوفقنى لذلك ، بأن يشرح صدرى ويسر لى أمرى ، كى أقف على

أسلوبه ﷺ فى دعوته ، ليكون ذلك الأسلوب سنداً وموجهاً ومرشداً للمسلمين ليصلوا بالدعوة إلى ما يرجوه كل مسلم لها .

ولن يبلغ الداعية ذلك إلا بترسم خطى سيد المرسلين ﷺ ، والسير على نهجه والتزام طريقه القويم ، فهو ﷺ قدوتنا وإمامنا وهادينا إلى صراط مستقيم .

ومهما توالت العصور ، وتبدلت المفاهيم ، وظهرت فلسفات ، وبرزت أفانين فى الدعوة ، فإن فى حياة رسول الله ﷺ الخير الكثير ، والقدوة المباركة لمن أراد أن يسلك هذا السبيل .

إن أمة محمد ﷺ هى أمة الدعوة ، بعد أن أكرمها الله سبحانه وتعالى بهذا الدين العظيم ، الذى ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين .

وعلى مر العصور وجد عظماء كثيرون ، تصفح الناس سيرهم ، ووقفوا على سلوكهم فى هذه الحياة ، ومواقفهم إزاء ما اعترضتهم من مشكلات ومصاعب ، وما وقف أمامهم من جسام الأمور وشديدها ، وكيف استطاعوا بما منحهم خالقهم سبحانه وتعالى من تفوق ذهنى ، وحكمة نادرة فى تصريف الأمور ، وإدارة شئون هذه الحياة فوقف أولئك وهم معجبون بأولئك العظماء ، وقد يتعدى الإعجاب ، ليصل إلى محاولة الاقتداء بهم ، وترسم خطاهم للاستفادة من تجاربهم ، والتزود بحكمتهم وحسن تدبيرهم لما صعب من أمر ، وبذلك تكون هذه القراءة وذلك التصفح لسيرة أولئك العظماء الرابط بين المعجبين وبين أولئك الأفذاذ .

والأمر هنا يختلف تماماً ، فنحن أمام سيد العالمين ﷺ أمام من اختاره الحق تبارك وتعالى ليحمل رسالته للخلق أجمعين ، أمام من أنزل الله سبحانه

وتعالى عليه أحسن كتبه ، وأعظم رسالاته ، وأتم شرائعه لعباده ، أمام من بعثه ربه سبحانه وتعالى ليكون رحمة للعالمين ؛ لذا فالأمر يختلف تمام الاختلاف بين من يتصفح سيرته العطرة ، وبين من يتصفح سيرة أولئك العظماء ، فصلاة الله وسلامه على سيد الأولين والآخرين ، وصدق ربنا العظيم إذ يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »(١) .

وكان السبب فى اختيار هذا الموضوع هو الوقوف على الأساليب النبوية فى الدعوة الاستفادة منها ولبيانها مفصلة فى كتاب مستقل ، يسهل على الداعية المسلم الوقوف إلى تلك الأساليب فى مكان واحد ، وأستغفر الله العظيم إن كنت أدعى أنى قد أحطت بجميع الأساليب النبوية المباركة ، لكنه جهد المقل ومحاولة طالب أراد أن ينهل من هذا النبع الصافى ، وأعنى به شخص رسول الله ﷺ الذى لن توفيه حقه هذه السطور وتلك الاستنباطات التى توصلت إليها فى هذا البحث ؛ لأن كل حركة تحركها عليه الصلاة والسلام كانت لله سبحانه وتعالى ، وفى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والخطة كانت ترتكز على تقسيم البحث إلى خمسة أبواب فى كل باب خمسة فصول ، عدا الباب الثانى الذى اشتمل على أربعة فصول فقط .

حيث خصصت الباب الأول للحديث عن أديان العرب قبل الإسلام ، وركزت الكلام فيه على الوثنية واليهودية والنصرانية ، وعبدة الكواكب ، وأخيراً الحنفاء .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

أما الباب الثانى فكان بعنوان « الإعداد الربانى للداعى والدعوة » واشتمل على أربعة فصول ، كان الفصل الأول منها يبحث فى الحاجة الماسة إلى الدعوة الجديدة .

أما الفصل الثانى فكان عن سيدنا رسول الله ﷺ فى طفولته وصباه ، أما الفصل الثالث فكان عن النبى الكريم ﷺ فى شبابه ، أما الفصل الأخير فقد خصص للحديث عن بدء الوحى والرسالة .

أما الباب الثالث من البحث فكان بعنوان « الأسلوب النبوى للدعوة فى العهد المكى » .

واشتمل على خمسة فصول ، الأول منها كان عن مرحلة النبوة وأهدافها ، أما الفصل الثانى فكان عن الفترة السرية للدعوة ، أما الفصل الثالث فكان يبحث فى الجهر بدعوة أهل مكة .

أما الفصل الرابع فكان عن الانتقال بالدعوة إلى خارج حدود مكة المكرمة ، والفصل الأخير كان عن الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة .

تلا ذلك الباب الرابع من البحث ، واشتمل أيضاً على خمسة فصول ، وكان بعنوان : « الأسلوب النبوى للدعوة فى العهد المدنى » .

وكان الفصل الأول منه عن مجتمع المدينة وتنظيماته .

أما الفصل الثانى فكان عن اليهود فى المدينة .

أما الفصل الثالث فقد تحدث عن دعوة قبائل الجزيرة العربية .

أما الفصل الرابع ، فكان يبحث دعوة حكام العالم والكتابة لهم .

أما الفصل الأخير فكان عن الوفود ونتائجها .

أما الباب الخامس والأخير فقد اشتمل على خمسة فصول أيضاً ، وكان يبحث فى الدروس المستفادة من الأسلوب النبوى فى الدعوة وبالذات النقاط التالية :

الأولى : التدرج فى الدعوة .

الثانية : تربية الأصحاب .

الثالثة : الحكمة والموعظة الحسنة .

الرابعة : الاقتداء بالرسول فى مواجهة الأحداث .

الخامسة : الاعتزاز بالعقيدة .

ولا أدعى أنى قد وفيت الموضوع حقه ، فالكمال لله سبحانه وتعالى ، فهو حسبي ونعم الوكيل . فهذا ما فتح الله على به من هذا الإرث العظيم ، إرث سيدنا محمد ﷺ آملا أن أكون قد أعطيت كل باب من أبواب البحث حقه من البيان والتفصيل وإيضاح الهدف منه .

وقد رتبت هذه الأبواب ترتيباً منطقياً كما هو واضح حيث بدأت بالبحث عن أوضاع المجتمع العربى الدينية وما آلت إليه حالهم من انحراف عن فطرتهم التى فطرهم الحق تبارك وتعالى عليها .

ثم انتقلت إلى الحديث عن صاحب الرسالة ﷺ وأساليبه فى دعوته فى عهد الدعوة المكى والمدنى ، فظهر الموضوع متكاملا والحمد لله .

ولقد حاولت الاختصار فى معظم فصول البحث خشية الإطالة ، وليظهر البحث بشكل جيد فيه تركيز مع وضوح الفكرة المراد بيانها وبروز المعنى بشكل جلى ، ولقد اعتمدت فى ذلك كله على كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، والتفاسير المشهورة

لهذا الكتاب العظيم ، ثم الأحاديث النبوية الشريفة من الكتب الصحيحة ، وكتب السيرة المعروفة ، ثم ما كتب عن سيد المرسلين ﷺ قديماً وحديثاً ، وعن صحابته الأخيار رضوان الله عليهم جميعاً ، وزوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعا ؛ لأقف على جوانب هذه الشخصية العظيمة ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، سائلا العلى القدير أن يتقبل منى وأن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم إنه ولى ذلك والقادر عليه ، شاكراً ومقدراً كل من أعانني من أساتذتى وإخوانى وزملائى فى هذا البحث ، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعى بدعوته واستن بسنته وسار على نهجه وطريقته إلى يوم الدين .

الباب الأول

الأديان في جزيرة العرب
قبل الإسلام

الباب الأول

الأديان فى جزيرة العرب قبل الإسلام

كانت العرب من عدنان وقحطان على بصيرة من أمرهم قبل ظهور عمرو بن لحى الخزاعى فيهم ، يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام والتى تلقوها من ولده إسماعيل عليه السلام وهى الحنيفية التى جاء بها سيد الأنبياء وخاتم المرسلين سيدنا ونبينا محمد ﷺ .

فكانوا يعتقدون أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا وزير ولا معين ولا ظهير ، موصوف بصفات الكمال والجلال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات التى أثبتها لنفسه سبحانه وتعالى فى كتبه وجاءت على لسان رسله .

لقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم عليه السلام من أصول وفروع وأحكام، كانوا يحجون ويصلون الأرحام ، ويعينون على نوائب الدهر ، ويكرمون الضيف غاية الإكرام ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والأعمال المرضية السديدة ، وهذا مصداق لقوله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف[1] : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) .

يقول ابن كثير القرشى فى تفسيره لهذه الآية[2] : (يخبر تعالى أنه

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ٢٨٠ الناشر مكتبة النهضة الحديثة ، مطبعة الفجالة ، القاهرة .

استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه . قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[١] .

فلما طال الأمد وبعدوا عن زمن النبوة كثر فيهم الجهل وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى والدين المبين ، وانساقوا خلف شهواتهم وتفرقت كلمتهم لا سيما بعد أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الخزاعى الذى شرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله .

ونحن إذ نستعرض هذه الأقوال نريد أن نوضح بأن عقيدة التوحيد هى الأصل ، وأن التدين فطرة فى الإنسان .

فالعرب جميعا كانوا فى الأصل موحدين ثم حادوا عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق)[٢] .

ويقول تبارك وتعالى فى سورة يونس : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا)[٣] .

ورسول الهدى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يقول فيما يرويه الإمام

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .
(٢) سورة البقرة آية ٢١٣ .
(٣) سورة يونس آية ١٩ .

مسلم فى صحيحه[١] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج[٢] البهيمة بهيمة جمعاء[٣] ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : واقرءوا إن شئتم : (فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) الآية[٤] .

ويقول الدكتور جواد على فى كتابه المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام : « بأن رينان ذهب إلى أن العرب مثل سائر الساميين الآخرين موحدون بطبعهم وأن ديانتهم هى من ديانات التوحيد »[٥] .

وقد أقام رينان نظريته هذه فى ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التى كانوا يعبدونها ، ومن وجود أصل كلمة (أل) ، (إيل) فى لهجاتهم ، فادعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد هو (أل) ، (إيل) الذى تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعى بأسماء أبعدته عن الأصل ، غير أن أصلها كلها هو إله واحد هو الإله (أل) .

---

(١) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى تحقيق ناصر الدين الألبانى ص ٤٨٩ المكتب الإسلامى .

(٢) تنتج : أى تلد البهيمة بهيمة .

(٣) جمعاء : أى مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص .

(٤) سورة الروم آية ٣٠ .

(٥) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على ص ٣٤ ، ٣٥ دار العلم للملايين .

من هذا يتضح لنا بلا شك أن معرفة الله سبحانه وتعالى أمر مركوز فى الفطر ، يعرف ذلك المؤمن والكافر ، يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز فى شأن المشركين : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »[١] . وفى مكان آخر من القرآن الكريم يقول عز وجل : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » الآية[٢] .

وفى صحيح الإمام مسلم هذا الحديث القدسى الذى رواه عياض بن حماد المجاشعى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا كل مال نحلته عبداً حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا »[٣] .

مما تقدم يتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك أن عقيدة التوحيد هى السابقة ، وأن الإنسان خلق مفطوراً عليها إلا أن الشيطان عز عليه ذلك فأخذ فى غوايتهم وإبعادهم عن ربهم سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة لقمان آية ٢٥ .

(٢) سورة يونس آية ١٨ .

(٣) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى تحقيق محمد ناصر الألبانى ص ٥٢٣ الحديث ١٩٧٣ المكتب الإسلامى .

الفصل الأول

الوثنية

الفصل الأول

الوثنية

ورد ذكر الأوثان فى كتاب الله العزيز ثلاث مرات ، مرة فى سورة الحج فى قوله تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور »[1]

ومرتين فى سورة العنكبوت ، الأولى فى قوله تعالى :

« إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا »[2] .

والثانية فى قوله جل وعلا : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين »[3].

وعبادة الأوثان فى بلاد العرب قديمة ، فما هى الأوثان هذه التى كانوا يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف وصل العرب إلى عبادتها من دون الله جل وعلا ؟

هذا ما سوف نعرضه فى هذا الفصل .

أقول وبالله التوفيق وعليه الاعتماد :

الوثن : الصنم ، قاله ابن منظور فى لسان العرب .

والفرق بين الصنم والوثن أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٠ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٧ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٥ .

والصنم : الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين .

والجمع : أوثان .

وأصل الأوثان عند العرب ، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، وكانت النصارى نصبت الصليب وهو كالتمثال تعظمه وتعبده ، ولذلك سماه الأعشى وثنا ، وقال :

تطوف العفاة بأبوابـــه كطوف النصارى ببيت الوثن

أراد بالوثن : « الصليب »[1] .

أما الصنم : فواحد الأصنام ، قال ابن منظور : تكرر فى الحديث ذكر الصنم والأصنام ، وهو ما اتخذ إلهاً من دون الله ، وقيل : هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن »[2] .

وقد ورد ذكر الأصنام فى كتاب الله العزيز فى خمس سور من سور القرآن الكريم .

قال تعالى فى سورة الأنعام : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين »[3] .

وقال تعالى فى سورة الأعراف : « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون »[4] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ١٣/٤٤٢ ، ٤٤٣ دار صادر بيروت .

(٢) لسان العرب لابن منظور جـ ١٢/٣٤٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

وفى سورة إبراهيم قال سبحانه وتعالى : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام »[١] .

وفى سورة الأنبياء وسورة الشعراء .

وقصة عبادة الأوثان والأصنام فى بلاد العرب يمكن أن نلخصها فى النقاط التالية :

أولا : قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : إن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن[٢] منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ[٣] ، ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخلوف[٤] وفسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات »[٥].

ثانيا : أورد ابن هشام فى سيرته أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق ، ويقال : عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٥ .

(٢) الظعن : من ظعن أى سار . مختار الصحاح للإمام محمد الرازى .

(٣) سلخ : خرج

(٤) الخلوف : جمع خلف وهو القرن بعد القرن .

(٥) سيرة ابن هشام جـ ١/٧٩ ، ٨٠ .

أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل ، فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه »[1].

ثالثا : ذكر الألوسى فى بلوغ الأرب عن الكلبى قوله : كان عمرو بن لحى كاهناً وله رئى [2] من الجن فقال : (عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، ائت جدة ، تجد أصناما معدة فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب) ففعل ، ولما حضر الحج دعا العرب إلى عبادتها فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات ، فدفع إليه ودا ، فحمله فكان لوادى القرى بدومة الجندل ، وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامراً سادنا ، فلم يزل بنوه مسدنين حتى جاء الله بالإسلام »[3].

رابعا : تلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام وذلك عن طريقة تلاعبه بكل قوم على قدر عقولهم .

فطائفة دعاهم إلى عبادة الأصنام عن طريق تعظيم الموتى فصوروا تلك الأصنام على صورهم ، فكان الرجل منهم يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، حتى ذهب ذلك القرن ، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء قرن ثالث ، فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١/٧٩ .

(٢) رئى : على وزن غنى : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة أو طبا .

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب لمحمود شكرى الألوسى ص ٢١٣ ، ٢١٤ دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

فعبدوهم : وعظموا أمرهم واشتد كفرهم .

وأورد صاحب بلوغ الأرب ذكر ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا فقال : كانوا قوما صالحين ، فماتوا فى شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا ؟ قالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم [1] .

خامسا : ورد فى أخبار مكة لأبى الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى فى باب أول من نصب الأصنام قوله :

« حدثنا أبو الوليد قال : حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : حدثنى محمد بن إسحاق أن جرهما لما طغت فى الحرم ، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها ، ويقال : إنما قبلها فيها ، فمسخا حجرين ، اسم الرجل أساف واسم المرأة نائلة ، فأخرجا من الكعبة ، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا ، لما يرون من الحال التى صارا إليها ، فلم يزل الأمر يتقادم ويتفاقم حتى صارا يمسحان ، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صارا وثنين يعبدان ، فلما كان عمرو بن لحى أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما وقال للناس : إن من كان قبلكم كان يعبدهما ، فكانا كذلك حتى كان قصى بن كلاب ، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة ، فحولهما من الصفا والمروة ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر

---

(١) بلوغ الأرب للألوسى جـ ٢/٢١٢ ، ٢١٣ .

فى موضع زمزم [١].

سادسا : قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى : يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه ، فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ؟ قال : لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى [٢].

والشاهد الذى أردناه من هذه الرواية (فنصب الأوثان) وأرجو ملاحظة أن هذا اللفظ لم أجده فى كتب الحديث ، والموجود عبارة « يجر قصبه فى النار » من حديث البخارى عن أبى هريرة قال النبى ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار وكان أول من سيب السوائب . ذكره الإمام البخارى فى باب قصة خزاعة » [٣].

يتضح لنا من ذلك أن عمرو بن لحى هو أول من نصب الأوثان ودفع الناس إلى عبادتها.

---

(١) أخبار مكة لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى . تحقيق رشدى الصالح ج ١/ ١١٩ ، ١٢٠ ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ دار الثقافة بمكة المكرمة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١/ ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) صحيح الإمام البخارى ج ٥/ ٢٢ .

هذه باختصار قصة عبادة العرب للأصنام .

وما دمنا بصدد الحديث عن الأوثان والأصنام نجد أنه من الأحسن ذكر أشهر تلك الأصنام عن العرب مستقيا معلوماتى عنها من كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي بتحقيق أحمد زكى وكتاب المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على وسيرة ابن هشام ، وكتاب بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب لمحمود شكرى الألوسى .

أشهر أصنام العرب :

١ — اللات : من أصنام العرب القديمة والمشهورة ، وهو عبارة عن صخرة مربعة بيضاء ، بنت ثقيف عليها بيتا ، وسدنته من ثقيف ، كانت قريش وسائر العرب تعظمه وتتقرب إليه ، كانت سدانته لآل أبى العاص بن أبى يسار بن مالك من ثقيف ، حتى أن ثقيفا كانوا إذا ما قدموا من سفر توجهوا إلى بيت اللات أولا للتقرب إليه .

ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة النجم ، فى معرض تقريع الحق تبارك وتعالى للمشركين فى عبادتهم الأصنام ، قال سبحانه وتعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى »[1] . وكان هذا الصنم فى مدينة الطائف .

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى » بأن اللات كان رجلا يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه ، وقال أيضا : « وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا : اللات يعنون مؤنثة

---

(١) سورة النجم الآية ١٩ ، ٢٠ .

منه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا »[1] .

بعث عليه الصلاة والسلام المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار بعد ما أسلمت ثقيف ، وأنقذهم الله سبحانه وتعالى من تلك العمايات والضلالات التي كانوا فيها، وتنكبهم الطريق ، وانسلاخهم من فطرهم السليمة التي فطرهم عليها الحق تبارك وتعالى .

٣ — العزى :

صنم أنثى ، اتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن طريق الذاهب إلى العراق من مكة ، فوق ذات عرق بتسعة أميال ، فبنى عليها بيتاً ، وكانوا يسمعون فيه الصوت وكان أعظم الأصنام عند قريش .

ذكر ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى » أن أبا سفيان كان يقول يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم »[2] .

« كانت العرب تقسم بها ، فتقول : واللات والعزى » .

كما ذكر فى قصة بحيرا الراهب مع المصطفى ﷺ عندما سأله باللات والعزى والتى سوف نأتى على توضيحها فى فصول لاحقة من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤/٢٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤/٢٧١ .

وقد تسمت العرب وقريش خاصة بها فقالوا : (عبد العزى) .

قال ابن كثير : اشتقوها من اسم الله تبارك وتعالى العزيز ، فقالوا : العزى ، تعالى الله ربنا عما يقولون علوا كبيرا [1] .

وكانت قريش تخصها بالزيارة والهدية .

بعث عليه الصلاة والسلام عام الفتح خالد بن الوليد لهدم هذا الصنم .

٣ — منـــاة :

من أقدم الأصنام ، كان منصوبا على ساحل البحر ، فى قديد بين مكة والمدينة ، كانت العرب جميعا تعظمه وتذبح له ، وكان أشد الناس تعظيما له الأوس والخزرج ، ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة النجم .

ذكر ابن هشام فى سيرته أن النبى ﷺ بعث إليه على بن أبى طالب ليهدمه ، وذلك فى عام الفتح [2] .

٤ — هبـــل :

من أعظم أصنام قريش ، كان على صورة إنسان من عقيق أحمر ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب ، علا صوت أبى سفيان فى أحد بقوله : « أعل هبل أعل هبل » . فرد عليه المسلمون بقولهم : « الله أعلى وأجل » .

فقال : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبى ﷺ لعمر قل : الله مولانا

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٨٩/١ ، مطبعة الباب الحلبى بمصر ، ١٣٥٥ هـ .

ولا مولى لكم »[1].

٥ — منـــاف :

صنم من أصنام الجاهلية ، وكانت قريش تسمى (عبد مناف) وهناك أصنام أخرى مشهورة أيضا عند العرب كود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا ، وأساف ونائلة وذو الخلصة وسعد ، حيث كانت تعبدها وتقوم على خدمتها بعض القبائل العربية ، حتى أتى الإسلام وقضى على تلك الأصنام ، وظهر الحق وزهق الباطل والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي تحقيق أحمد زكى ، القاهرة الدار القومية للتأليف والترجمة ص ٢٨ .

الفصل الثاني

اليهودية

الفصل الثاني

اليهودية

قبل الحديث عن اعتناق بعض العرب لليهودية يحسن بنا أن نتحدث بعض الشيء عن اليهود ونشأتهم فى بلاد العرب .

يقال لليهود : عبرانيون وعبريون ، أى من عبور إبراهيم عليه السلام جدهم الأعلى نهر الفرات ، ويقال لهم : إسرائيليون .

وبنو إسرائيل نسبة إلى إسرائيل نبى الله وهو يعقوب ، فأطلق الاسم على جميع الأسباط من عقبه ثم على فئة منهم إلى أن انقرضت فعمهم الاسم جميعاً .

ويقال لهم : هود وهادوا وقد تغلبت كلمة يهود عليهم وأصلها (يهوذا) وهم سبط من أسباط بنى إسرائيل سموا بهذا الاسم تمييزاً لهم عن الأسباط العشرة الذين سموا (إسرائيل) إلى أن تشتت الأسباط وأسر يهوذا ودعى جميع نسل يعقوب (يهودا) .

ومعنى هاد ، يهود ، هودا ، وتهود : أى تاب ورجع إلى الحق .

ويقول المغنيون بلغات الشرق الأدنى : إن هناك أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والأشورية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والآرامية والعربية ، واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها ، فقالوا بوجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الأقوام وأطلقوا على تلك الوحدة اسم (الجنس

السامى) نسبة إلى سام بن نوح [١] .

أسباب سكن اليهود فى جزيرة العرب :

يرجح بعض الباحثين تسرب اليهود إلى جزيرة العرب إلى الأسباب التالية :

١ ـ أن فلسطين كانت بمثابة القنطرة التى تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر والعراق من جهة أخرى ، وكانت القوافل العربية تأتى من بلادها إلى أسواق مدن بنى إسرائيل وكنعان وكان تجار اليهود يرحلون إلى سبأ فى عهد سليمان وبعده .

٢ ـ زيادة عدد اليهود فى فلسطين جعلت البلاد تضيق بهم الأمر الذى جعلهم يهاجرون إلى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والجزيرة العربية .

٣ ـ ومن هذه الأسباب : أنه بعد حرب الرومان واليهود فى عام ٧٠ ميلادية والتى انتهت بخراب فلسطين ودمار هيكل بيت القدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين إلى الحجاز وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً فى المفازة بين الشام والحجاز .

٤ ـ ورد فى مواضع من التلمود [٢] أن نفراً من العرب دخلوا فى اليهودية وأنهم جاءوا إلى الأحبار فتهودوا أمامهم ، وذكر اليعقوبى : أن ممن تهود من

---

(١) اليهود فى القرآن / عفيف طبارة ط ٥ دار العلم للملايين ٧٧ م بيروت .
(٢) المفصل فى تاريخ العرب / جواد على جـ ٦/٥١٤ .

العرب اليمن بأسرها وذلك بأن تبعاً حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن فأبطل الأوثان وتهود من باليمن وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر ، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب وقوم من غسان .

٥ — ترقب ظهور النبوة فى هذه البلاد ، كما فى كتبهم وبذلك دخل اليهود بلاد العرب واختلطوا بأهل البلاد من العرب وعقدوا معهم أحلافا ، وعاشوا معهم على أرضهم ، وشيدوا الحصون واشتغلوا بالتجارة والزراعة .

هذا ما يتعلق بمجىء اليهود إلى الجزيرة العربية .

أما عن اعتناق العرب لليهودية ، فمنها أن النساء اللاتى لا يلدن كن ينذرن إن عاش لهن ولد أن تهوده ، فتهود قوم من العرب .

وهذا ما ذهب إليه ابن كثير فى تفسيره لقوله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) . قال ابن جرير : حدثنا ابن يسار ، حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مقلاة ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل الآية[1] .

ومن خلال تحليلنا لأسباب وصول اليهود إلى الجزيرة العربية واختلاطهم بأهلها وتعاملهم معهم وتزاوجهم وقيام علاقات إجتماعية فيما بينهم استطاع اليهود إقناع بعض أولئك العرب أن يدينوا باليهودية ، وبذلك دخلت اليهودية بلاد العرب ، وكان ذلك لبعد أولئك العرب عن دين نبيهم إسماعيل

---

(١) ابن كثير جـ ١ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ مكتبة النهضة الحديثة ، ط ١ ، ٨٤ هـ .

عليه السلام ودخول عبادة الأوثان إلى مجتمعهم كما بينا فى الفصل السابق من هذا الباب .

وبهذا يتضح لنا أن اليهودية قد دخلت جزيرة العرب إما عن طريق الهجرة أو عن طريق التجارة .

إن المتدبر فى الآيات القرآنية من سورة البقرة ، والتى كانت موجهة إلى يهود الحجاز ، والتى ذكرتهم فى مواقف مختلفة سواء فى بيان أخلاقهم وأحوالهم ، أو موقفهم من الدعوة المحمدية ، يجد أنها نسبتهم إلى إسرائيل ، وربطت بينهم وبين بنى إسرائيل ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون »(١) .

وفى موضع آخر من نفس السورة قال سبحانه وتعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون »(٢) .

وفى موضع ثالث قال عز وجل : « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب »(٣) .

إن اليهود الذين كانوا فى المدينة (يثرب) هم من بنى إسرائيل كما أشارت الآيات الكريمة السابقة ، وهم أهل دين سماوى ، ودليلنا على ذلك استفتاحهم

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٨٣ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٢١١ .

على القبائل العربية فى هذه المدينة ، وتوعدهم إياهم بالقتل إن جاء نبي آخر الزمان ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، إذ ورد ذلك فى كتاب الله الكريم . قال تعالى: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »[1] .

ومعلوم أن عرب يثرب كانوا عبدة أوثان ، وبفعل التعايش وما ينتج عنه من اختلاط بعضهم ببعض وتعاملهم مع بعض ، وكون اليهود أصحاب دين ، دخل بعض سكان يثرب فى اليهودية نتيجة اندماج اليهود معهم ، ولا نستطيع أن نقف على عدد الذين تهودوا من عرب يثرب ، إلا أننا نميل إلى دخول بعضهم اليهودية واعتناقهم لها كما ذكرنا سابقاً ، وهذا لا يعنى أن جميع عرب يثرب اعتنقوا اليهودية ، إذ كان القسم الأكبر منهم يعبدون الأوثان .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٨٩ .

الفصل الثالث

النصرانية

ثالثاً أن تصفا

صفا

الفصل الثالث

النصرانية

إن لفظ النصرانية ونصارى تطلق في اللغة على أتباع عيسى بن مريم عليه السلام.

وهو من الألفاظ المعربة.

ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة (بالناصرية) التي كان منها يسوع، وهو عيسى بن مريم عليه السلام.

وفي القرآن الكريم ورد ذكر هذه اللفظة خمسة عشر مرة إحداها نصرانيا والباقية النصارى.

في سورة آل عمران قال تبارك وتعالى: «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»[1].

ولفظ نصارى ورد في سورة البقرة والمائدة والتوبة والحج قال تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»[2].

وفي سورة المائدة قال الحق تبارك وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء»[3].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٠.

(٣) سورة المائدة الآية ٥١.

والنصرانية ديانة سماوية وجدت لها طريقاً إلى بلاد العرب ؛ وذلك لأنها جعلت نفسها ديانة عالمية ، جاءت للجميع .

والنصرانية دخلت بلاد العرب بالطرق الآتية :

أولا : عن طريق التجارة ، وذلك لأن العرب كانوا يزاولون التجارة مع بلاد الشام ، وهي ما كانت تعرف برحلة الشتاء والصيف والتي ورد ذكرها في كتاب الله العزيز في سورة قريش ، قال الله تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم * رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[1] .

وذكر ابن كثير في تفسيره ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام »[2] حيث كانت بلاد الشام نصرانية ، وحيث كان النصارى هناك يعملون على تنصير الناس ودعوتهم إلى الدخول في دينهم وحثهم على ذلك ، وذلك عند تعاملهم معهم عن طريق التجارة .

ثانياً : دخلت النصرانية بلاد العرب عن طريق بعض النساك ، والرهبان الذين دخلوا جزيرة العرب لنشر النصرانية بين سكان هذه الجزيرة من الوثنيين وبيان هذا الدين لهم وترغيبهم في الدخول فيه .

ثالثاً : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن دخول النصرانية إلى بلاد العرب كان عن طريق التجارة بالرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة[3] حيث كان الرقيق يقرأ ويفسر ماجاء في الإنجيل ويقص عليهم

---

(١) سورة قريش .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ / ٥٨٧ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي جـ ٦ / ٥٨٧ ، دار العلم للملايين .

قصصاً نصرانية ، ومنهم من تمكن من إقناع بعض الناس بالنصرانية .

رابعاً : دخلت النصرانية بلاد العرب عن طريق معرفة بعض الرهبان من النصارى بالطب والمنطق وطرق الإقناع المختلفة ، والبراعة فى طرق التأثير النفسى حيث تمكنوا من الوصول إلى بعض سادات القبائل ورؤسائها ، خاصة وأن العرب كانوا بعيدى العهد بدين إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، حيث تفشت فيهم الوثنية ، والبعض منهم اعتنق اليهودية ، فكان أن تمكن بعض أولئك الرهبان من النجاح فى معالجة بعض سادات القبائل العربية من أمراض ألمت بهم ، وتمكنوا بذلك من نفوسهم بعد أن شفوا فأقنعوهم باعتناق النصرانية فتم ذلك .

وبهذا تمكنت النصرانية من الدخول إلى هذه البلاد بواسطة الطرق التى أتينا على بيانها سابقا .

ولا نريد أن نتوسع فى ذلك لأن الهدف هو استعراض الديانات التى كانت فى بلاد العرب ، وما كانت العرب تعبد قبل الإسلام أو قبل الحياة الدينية فى بلاد العرب قبل الإسلام ، وذلك للوقوف على هذا الجانب من جوانب الحياة لدى العرب قبل الإسلام ، لنرى ما كانت عليه هذه قبل أن ينعم عليها الحق تبارك وتعالى بنعمة الإسلام ومبعث خير الأنام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ليأخذ هذا البحث تسلسله الطبيعى حتى ظهور الإسلام فى هذه البقاع المباركة .

. فيما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ، فيما يعذر الجاهل بجهله ، فيما لا يعذر الجاهل بجهله ، فيما يجب على العالم أن يعلمه ، فيما يجب على العالم أن يعلمه ، فيما يجب على العالم أن يعلمه

ٱلفَصْلُ ٱلرَّابِع

عَبَرَةُ الكَواكِب

الفصل الرابع

عبدة الكواكب

لقد تعددت آلهة العرب ومعبوداتهم ، فقد اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى .

وقد تحدثنا عن ذلك فى الفصل السابق ، وفى هذا الفصل نستعرض نوعاً آخر من عباداتهم .

وهذا النوع يختلف تماماً عن أوثانهم إذ يتعلق ببعض مخلوقات الله سبحانه وتعالى كالشمس والقمر والكواكب والنجوم .

أولا : عباد الشمس :

قالوا عن الشمس : بأنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل ، ونور القمر والكواكب الأخرى منها وهى بذلك تستحق التعظيم والسجود والدعاء .

وذكر الآلوسى فى كتابه بلوغ الأرب : أن من شريعتهم[1] فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف

---

(١) محمود شكرى الآلوسى / بلوغ الأرب جـ ٢ / ٢١٥ دار الكتب العلمية ، بيروت .

الكثيرة ، وله سدنة يصلون لها ثلاث مرات فى اليوم ، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويدعونه

وإذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها ، كذلك عند الغروب ، وعند توسطها ، ولعل هذا هو سبب النهى عن الصلاة فى هذه الأوقات بالنسبة للمسلمين وذلك لعدم مشابهة الكفار وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام وإلكوا كبة ، ومن عبد الشمس من العرب عرب حمير فى اليمن ، والذين ورد ذكرهم فى كتاب الله العزيز وهم قوم بلقيس صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام ، يقول تبارك وتعالى : « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »[1] .

ثانياً : عباد القمر :

وقد زعموا أن القمر يستحق التعظيم ، إليه تدبير العالم السفلى فهو بذلك جدير بالعبادة ، وكان من شريعتهم فى عبادته أنهم اتخذوا له صنما على شكل عجل وبيده جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب ، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه[2] .

ثالثاً : عباد الكواكب :

وأقوام من العرب عبدوا الكواكب ، وهم طائفة من تميم عبدوا الثريا

(١) سورة النمل الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) بلوغ الأرب / شكرى الآلوسى جـ ٢ / ٢١٦ .

من النجوم ، وبعض قبائل لخم وخزاعة عبدوا الشعرى ، وأول من سن لهم ذلك أبو كبشة. وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم[1] .

هذا ما يتعلق بعبدة الكواكب باختصار شديد وذلك خشية الإطالة ، إذ الهدف من هذا الباب هو استعراض سريع لما كانت عليه العرب قبل الإسلام من دين ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل الخامس

الحنفاء

الفصل الخامس

الحنفـاء

ونحن نتصفح القرآن الكريم نجده قد أشار إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ولم تعتنق اليهودية ولا النصرانية وإنما اعتقدت بوجود إله واحد صرفت عبادتها له سبحانه وتعالى ، يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين »[1] .

وذكر ابن كثير فى تفسيره لقوله سبحانه وتعالى (حنيفاً)[2] ، « قولا لأبى العالية : بأن الحنيف الذى يستقبل البيت فى صلاته .

وقال مجاهد والربيع بن أنس : حنيفاً أى متبعـاً ، وقال أبو قلابة : الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم ، وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله يدخـــل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل » .

ولقد وردت كلمة حنيفاً فى القرآن العظيم عشر مرات ، ووردت كلمة حنفاء مرتين فى سورة الحج وسورة البينة .

يقول ابن منظور فى لسان العرب : (الحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان أى يميل إلى الحق ، وقيل : كل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ / ١٩٢ .

فهو حنيف ، ويقول : من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب ، والحنفاء جمع حنيف ، وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه)[1] .

ويقول جواد على[2] بأن أهل الأخبار يذكرون بأن الجاهليين جميعاً كانوا قبل أن يأتى عمرو بن لحى الخزاعى بالأصنام إلى مكة على دين إبراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله عز وجل ، لا يشركون به شيئاً ، حتى جاء عمرو ابن لحى الخزاعى فأفسدهم ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام بما تعلمه من وثنى بلاد الشام حين زارهم وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب ، والمبشر بها ، ومضلهم الأول ، وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل ومقسمها عليهم .

وقد أورد الإمام محمد الرازى فى تفسيره لسورة البينة أقوالا فى كلمة حنفاء يحسن أن نوردها باختصار .

قال رحمه الله تعالى : « أما قوله تعالى : « حنفاء ويقيموا الصلاة »[3] .. ففيه أقوال :

أولا : قال مجاهد : متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين)[4] .

ثانياً : المراد من قوله (حنفاء) أى مستقيمين ، والحنف هو الاستقامة وإنما سمى مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا للأعمى : بصير والمهلكة مفازة .

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٩ / ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على جـ ٦ / ٤٥٠ .

(٣) سورة البينة الآية ٥ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٣ .

ثالثا : قال أبو قلابة : الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفا ؟

رابعا : « حنفاء أى جامعين لكل الدين إذ الحنفية كل الدين »[1] .

كما أورد الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[2] عدة تفسيرات لكلمة (حنيفا) منها :

١ — المستقيم من كل شىء ، وقد قيل : إن الرجل الذى تقبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له : أحنف نظراً له إلى السلامة .

٢ — الحنيف الحاج ، وقيل : إنما سمى دين إبراهيم الحنيفية لأنه أول إمام لزم العباد الذين كانوا فى عصره والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة اتباعه فى مناسك الحج والائتمام به ، قالوا فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ، فهو حنيف مسلم على دين إبراهيم .

٣ — حنفاء قال : متبعين .

٤ — الحنيف المخلص دينه لله وحده .

٥ — الحنيف من استقام على دين إبراهيم واتبع ملته .

٦ — الحنيفية : الإسلام ، فكل من ائتم بإبراهيم فى ملته فاستقام عليها فهو حنيف ، وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه فى الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء . وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقـــوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٣٢ / ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٥ .

المشركين»[1] .

فكذلك القول فى الختان ؛ لأن الحنيفية لو كانت هى الختان لوجب أن يكون اليهود حنفاء وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» .

فقد صح إذاً أن الحنيفية ليست الختان وحده ولا حج البيت وحده ، ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها ، فإن قال قائل أو ما كان من كان من قبل إبراهيم ﷺ من الأنبياء وأتباعهم مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟ قيل : بلى .

فإن قال : فكيف أضيف الحنيفية إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم ؟

قيل : إن كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفاً متبعاً طاعةالله ، ولكن الله تعالى ذكره ـ لم يجعل أحداً منهم إماما لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة كالذى فعل من ذلك بإبراهيم ، فجعله إماماً فيما بينه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام تعبداً به أبداً إلى قيام الساعة ، وجعل ما سن من ذلك علماً مميزاً بين مؤمنى عباده وكفارهم والمطيع منهم له والعاصى .

فسمى الحنيف من الناس حنيفاً باتباعه ملته واستقامته على هديه ومنهاجه ، وسمى الضال عن ملته بسائر أسماء الملل ، فقيل : يهودى ونصرانى ومجوسى وغير ذلك من صنوف الملل»[2] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى جـ ١ / ٤٤١ ، ٤٤٢ دار المعرفة بيروت لبنان ط ٣ ، ١٣٩٨ هـ .

وقد وردت كلمة حنيفا فى كتاب الله عز وجل فى سبع سور وهى : سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنعام ويونس والنحل والروم .

ففى سورة البقرة قال تعالى : « قل بل ملة إبراهيم حنيفا »[1] .

وفى سورة الروم قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها »[2] .

ووردت لفظة حنفاء فى سورتين هما : الحج والبينة .

قال تعالى فى سورة الحج : « حنفاء لله غير مشركين به »[3] .

وقال تعالى فى سورة البينة : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء »[4] .

يقول ابن إسحاق : وكانت قريش حين رفعوا بنيان الكعبة وسقوفها يتوافدون على كسوتها كل عام ، تعظيما لحقها ، وكانوا يطوفون فيها ويستغفرون الله عندها ، ويذكرونه مع تعظيم الأوثان والشرك فى ذبائحهم ودينهم كله ، وقد كان نفر من قريش :

(١) زيد بن عمرو بن نفيل .

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى .

(٣) عثمان بن الحارث بن أسد بن عبد العزى .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٥ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(٣) سورة الحج : ٣١ .

(٤) سورة البينة : ٥ .

(٤) عبد الله بن جحش بن رئاب .

حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض ، وقالوا : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، فقال قائلهم : تعلمون والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم عليه السلام وخالفوه ، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها ، الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

فأما ورقة بن نوفل فتنصر ، فاستحكم فى النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب .

فلم يكن فيهم أعدل أمراً ، ولا أعدل شأنا من زيد بن عمرو بن نفيل ، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين إبراهيم يوحد الله عز وجل ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه ، بادأهم بالفراق لما هم فيه .

ثم أورد ابن إسحاق بعضاً من شعر زيد بن عمرو كقوله :

أربا واحداً أم ألف رب * أدين إذ تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً * كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها * ولا صنمى بنى عمرو أدير[1]

يتضح لنا بهذا أن الحنيفية كانت موجود فى مكة حتى تلك الفترة التى

---

(١) السير والمغازى لمحمد بن إسحاق المطلبى تحقيق سهيل زكار ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ دار الفكر ط ١ ، ١٣٩٨ هـ .

سبقت مبعث النور من بطاح مكة المكرمة وتشريف ابن عبد المطلب ﷺ بحمل الرسالة الخاتمة ، وإنقاذ قومه مما هم فيه من عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، والعودة بهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ، التى قال عنها الصادق الأمين ﷺ : « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة »[1] .

كما أورد الإمام أحمد فى مسنده حديثاً آخر عن النبي ﷺ حيث يقول : ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة »[2] .

لقد أعز الله عرب مكة بهذا الدين العظيم ، ومبعث سيد المرسلين منهم ، يعرفون حسبه ونسبه وسلوكه ، وصدق ربنا العظيم حيث قال : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[3] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[4] .

نعم لقد كانوا فى ضلال مبين ، حيث تنكبوا الطريق ، وتفرقت بهم السبل ، فمن عاكف على صنم إلى متعلق بنجم أو كوكب وجاعل لله ندا .

وكان من آثار الحنيفية التى بقيت بين المكيين والعرب عامة إيمانهم بوجود الله سبحانه وتعالى ، حيث كانوا يسندون إليه عظائم الأمور ، وكانوا

---

(١) صحيح البخارى فتح البارى جـ ١/١٠١ .
(٢) مسند الإمام أحمد جـ ٥ / ٢٦٦ .
(٣) سورة الجمعة : ٢ .
(٤) سورة ل عمران : ١٦٤ .

يقولون عن تلك الآلهة : أنها تقربهم إلى الله زلفى ، وقد ورد هذا المعنى فى كتاب الله العزيز فقال تعالى :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »[١].

وقوله تعالى فى نفس السورة أى سورة الزمر :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[٢].

وكان بعضهم يقول فى تلبيته للحج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك »[٣].

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة الزمر : ٣ .

(٣) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ ٢/١٧٥ تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه

الباب الثانى

إعداد الله لرسوله

صلى الله عليه وسلم

الباب الثانى

إعداد الله لرسوله ﷺ

ونحن نتحدث عن الداعى صلوات الله وسلامه عليه ، يجدر بنا أن نسرد النسب الزكى لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

فالسيد الجليل الذى شرفت الدنيا ومن فيها بوجوده هو : (محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)[1] .

هذا هو النسب المتفق عليه بين علماء التاريخ والمحدثين ، وغاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ﷺ ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

لم يزل عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء ، آباء طاهرون وأمهات طاهرات حتى اختاره الله هاديا ومبشراً ونذيراً ، لم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى ، مؤسسة علوم القرآن ص ١٣ ، سيرة ابن هشام جـ ١/١ ، ٢ .

وقد أورد أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى فى كتابه : دلائل النبوة ، ما نصه :

(أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو عبد الله إسحاق بن محمد بن يوسف السوسى قالا : حدثنا أبو العباس : محمد بن يعقوب ، حدثنا الربيع بن سليمان وسعيد بن عثمان ، قالا : حدثنا بشر بن بكر ، عن الأوزاعى قال : حدثنى أبو عمار : شداد ، عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل اصطفى بنى كنانة من بنى إسماعيل ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم »[1] .

ومعلوم أن العرب كانت ومازالت تعتز بأنسابها وتفخر ، وتجعل لهذا الجانب أهمية كبرى ، فقد اختار الحق سبحانه وتعالى عبده محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته من أشرف قبيلة فى العرب ومن أعلاها شأناً ومركزاً ، وحفظ نسبه وهو بكل شىء عليم ، فجاء نسباً طاهراً مطهراً من أخطاء الجاهلية ودنسها . وكيف لا يكون ذلك الحفظ والصون لمن اختاره البارى جل وعلا ليحمل الرسالة الخاتمة إلى الناس جميعاً ، عربيهم وعجميهم أبيضهم وأسودهم ، لا ، بل للإنس والجن جميعاً .

وكان من إعداد الرب سبحانه وتعالى لرسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم حادثة شق الصدر ، فقد ذكر البيهقى فى دلائل النبوة فى باب ما جاء فى شق صدر النبى ﷺ واستخراج حظ الشيطان من قلبه ما نصه :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١/١٦٥ ، ١٦٦ دار الكتب العلمية بيروت . الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل .

(أخبرنا أبو سهل : محمد بن نصرويه بن أحمد المروزى ، قال : حدثنا أبو بكر : محمد بن أحمد بن خنب ببخارى ، قال : حدثنا أبو الفضل : العباس ابن الفضل المعروف بدبيس ، قال : حدثنا عفان ، قال : حدثنا حماد ابن سلمة ، قال : أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام ، ذات يوم وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، ثم شق القلب فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه وأعاده فى مكانه وجعل الغلمان يسعون إلى أمه يعنى ظئره[1] فقالوا : إن محمداً قد قتل .

فجاءوا وهو ممتقع اللون ، فقال أنس : فلقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره) . أخرجه مسلم فى الصحيح عن شيبان ، عن حماد[2] .

لقد شب عليه الصلاة والسلام وعناية الله تحوطه لما أراد الله به من كرامة ورسالة ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم خلقاً وأصدقهم حديثاً حيث كانوا يطلقون عليه الصادق ، وأعظمهم أمانة حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، لقد جمع الله سبحانه وتعالى فيه جميع الأمور الصالحة .

وها هو عليه الصلاة والسلام يحدث عما كان يحفظه الله تعالى به فى صغره فيقول : « إنى لمع غلمان هم أسنانى قد جعلنا أزرنا على أعناقنا لحجارة ننقلها ، نلعب بها ، إذ لكمنى لاكم لكمة شديدة ، ثم قال : اشدد عليك إزارك ، قال :

---

(١) مرضعته .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢/٥ ، ورواه مسلم بمعناه فى باب الإيمان .

فأخذته وشددته علي ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي ، وإزاري على من بين أصحابي » .

كما ذكر صاحب دلائل النبوة رواية أخرى ونصها :

« لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ، ففعل فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : إزاري فشد عليه إزاره » .

رواه مسلم في الصحيح عن محمد بن رافع وإسحاق بن منصور .

لقد بغض الله سبحانه وتعالى عليه الأوثان والأصنام وكل الصفات الذميمة التي كانت في مجتمعه .

يقول عليه الصلاة والسلام : « لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك »[1] .

وكان ﷺ لا يشرب الخمر ، فقد حرمها على نفسه بالرغم من أنها كانت

---

(١) أخرجه الحاكم ٤/٢٤٥ / د صححه ، ووافقه الذهبي .

شائعة فى مجتمعه لدرجة كبيرة ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لم يأكل أبداً مما ذبح على النصب ، ولم يحلف بالأصنام قط ، كل ذلك زاد قومه حباً له وإعجاباً به وتقديراً لشخصه الكريم ﷺ .

وقد أورد ابن إسحاق حديث بحيراً الراهب والذى نورده للدلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يحلف باللات والعزى كما كان القوم يفعلون ، قال ابن إسحاق : « فخرج أبو طالب ومعه ابن أخيه ، فلما نزل الركب بصرى من من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرا فى صومعة له ، وكان أعلم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيهم فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا ، وكانوا كثيراً مما يمرون به قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى إذا كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك عن شىء رآه وهو فى صومعته فى الركب ، حين أقبلوا وغماماً تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة ، وتهصرت[1] أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته إلى أن يقول : رحمه الله ، فقال له بحيرا : يا غلام ، أسألك باللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تسألنى باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت

---

(١) الهصر : الجذب والإمالة والكسر والدفع الإدناء .

شيئاً قط بغضهما ، فقال له بحيرا : فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه »[1] .

إن هذا الموقف أعظم دليل على بعد السيد الجليل ﷺ عن هذه الأصنام وبغضه لها ، وعدم حلفه بها كما كانت تفعل قريش .

إنه حفظ من الحق تبارك وتعالى لما أراده الله سبحانه له من خير عظيم ، ومهمة جليلة .

---

(١) السير والمغازي لمحمد بن إسحاق ص ٧٣ ، ٧٤ تحقيق د . سهيل زكار ، ط ١ ، ١٣٩٨ هـ

الفصل الأول

الحاجة الآنية إلى الدعوة الجديدة

الفصل الأول

الحاجة الماسة إلى الدعوة الجديدة

نشأ سيدنا محمد ﷺ فى مجتمع تكثر فيه المفاسد وتعم الرذائل ، فالبغاء والزنى والاستبضاع والاعتداء على الأعراض كله شائع لا ينكره أحد ولا تحاربه جماعة ، إضافة إلى وأد البنات وقتل الأولاد خشية الفقر أو العار ، يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز مصوراً هذه الحالة : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون »[1] .

كما أن لعب الميسر وشرب الخمر أمور تعد من المفاخر نشأ فى مجتمع يعج بالظلم فالقوى يستعبد الضعيف والغنى يستبد بالفقير فالرق قائم والعبودية معروفة ومصادرها كثيرة ، فالغزو والاعتداء والسلب والنهب وقطع الطرق ، وأيام العرب معروفة ومشهورة ، وهذا كله يمد المجتمع بأفواج كثيرة وجديدة من الأرقاء وطريقة الإغارة مشهورة وهى من أكبر وسائل العيش وطرق الرزق والحصول على الغنيمة والربح .

وعليه فإن الخوف على الحرية موجود فى كل خطوة يخطوها الإنسان ، كذلك الخوف على الملك قائم فى كل لحظة يغفل فيها صاحبه أو يضعف عن الدفاع عنه أو يستكين ، كل ذلك قائم فى ذلك المجتمع ولا يستطيع أحد أن

---

(١) سورة النحل الآية ٥٨ ، ٥٩ .

يضع حداً لما يحدث ، أو يغير شيئاً مما يجرى ، بل لم تقم دعوة للثورة على هذ الأوضاع وذلك السلوك .

لقد كانت مكة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والآثام والرذائل . كفر بالله سبحانه وتعالى واليوم الآخر إقبال على نعيم الدنيا وملذاتها ، رغبة أكيدة فى العلو والسيادة ، ليس هناك قانون أو نظام يحكم تصرفات القوم ، إلا القوة والجبروت والطغيان ، فشريعة انصر أخاك ظالماً أو مظلوما (١) هى السائدة بين الناس ، فلا مكان للضعيف وغير ذى الشوكة ، لعبت الخمرة فى رؤوس القوم حتى وكأنك تعيش بين أناس كلهم سكارى حتى إنهم فقدوا الرحمة وأهدروا كرامة الإنسان ، إذ أنك تجد الرجل منهم يدس فلذة كبده فى التراب مخافة الفقر أو العار ، أى إنسان هذا الذى بلغت به الخسة والتجرد من إنسانيته هذا المبلغ ؟ .

لقد أصبح وحشاً كاسراً ، وهذا العرض الذى يخشى عليه ، نجده يدنسه من جانب آخر ولا يحافظ عليه وذلك بانتشار البغاء فى ذلك المجتمع ، فلا استقرار أمنى ولا استقرار اقتصادى أو نفسى .

إن كل جانب من جوانب الحياة فى المجتمع الجاهلى كان فى حاجة ماسة إلى عملية تغيير ، تغيير من الأوضاع السيئة المتردية إلى وضع يكفل للإنسان كرامته وإنسانيته ، إن الإنسان فى ذلك المجتمع غير آمن على نفسه أو أهله أو ماله ، إن شريعة الأخذ بالثأر قد أقضت مضجع كل فرد من أفراد ذلك المجتمع ، فالرجل يخرج من بيته غير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه . فلربما خرج لقضاء بعض شئونه ولم يعد مرة أخرى حيث لقيه أحد المتربصين به لأخذ

---

(١) هذا مفهوم جاهلى أقره الإسلام بمفهوم غير مفهوم الجاهلية له .

ثأر منه لقبيلته وقد يكون هذا المقتول ليس له علاقة أبداً بالقاتل ، سوى أنه ذو صلة أسرية أو قبلية بآخر كان معتديا على آخر من أسرة أو قبيلة أخرى .

لقد كانت جميع الأوضاع فى المجتمع الجاهلى بحاجة إلى نظام يقودها إلى الاستقرار والطمأنينة ويحميها من سيطرة القوى على الضعيف ، ومن ظلم الطغاة المتجبرين ، كانوا فى حاجة لمن يحل لهم الحلال ويحرم عليهم الخبائث ويفك الأغلال التى فى أعناقهم ، أغلال الجشع وأغلال الظلم فى التعامل الربوى الذى كان سائداً بينهم ، وأغلال الجهل الضارب على أفراد المجتمع ، فلا ترى إلا من هو قائم على صنم يعبده من دون الله سبحانه وتعالى أو يتقرب إليه ليشفع له عند ربه .

كما ذكر الحق سبحانه وتعالى حيث يقول : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[1] . أو محتكر لأرزاق الناس متعامـــل بالربا أو آخذ بثأر ، أو مفاخر بحسبه ونسبه معتد بقبيلته ، أو غارٌ على متاع غيره سالباً ناهباً قاطعاً للطريق ، أو متربص بآخر لثأر بينهما .

هذه أوضاع ذلك المجتمع ، فهو متعطش لمجىء من يقضى على تلك الأوضاع السيئة ، متعطش لمن ينقذه ويأخذ بيده ، إلى مدارج الإنسانية الحقة التى أرادها الحق تبارك وتعالى للإنسانية جميعا .

قال تعالى وهو أصدق القائلين فى سورة الإسراء : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا

---

(١) سورة الزمر الآية ٣ .

تفضيلا »[1] .

وكانت إرادة الله بأن يكون صاحب هذه المهمة العظيمة من أبناء جلدتهم ولد بينهم وتربى فى مجتمعهم وترعرع بينهم من أعلاهم نسباً وأسمقهم محتداً ، وأحسنهم خلقاً لا يستطيع أن يطعن فى نسبه طاعن ، أو ينال من شرفه أحد إنها لمهمة عسيرة ، فالعرب فى الجاهلية غلاظ شداد قلوبهم قاسية ، تمكنت منهم الغواية لدرجة أنهم لا يسمحون لأى إنسان أن يسفه آلهتهم ويصرفهم عما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم ، قال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين »[2] .

لقد كانوا أعداء يترصد بعضهم لبعض لينال منه ، تفرقت كلمتهم وشاعت بينهم روح القتال وسفك الدماء فلا مكان للفقير أو الضعيف بينهم ، سادت مجتمعهم العداوة والبغضاء ، وارتفعت رايات الفخر والخيلاء ، الفخر بالأنساب والخيلاء بالمتاع والقوة حتى أصبح الواحد منهم يعربد ويقتل ويسلب لأنه من القبيلة الفلانية أو الأسرة ذات المركز القوى فى مكة .

لقد كانوا أعداء بحق ، كما وصفهم تبارك وتعالى فى كتابه العزيز ، قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم »[3] .

والحالة كما ذكرنا فى هذا المجتمع ، لا بد من تغيير ، ولا بد من وجود من يحملهم على الحق والصدق والعدل ، ويدفعهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، وأحسن الطباع ، وأقوم السلوك .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٢) سورة سبأ الآية ٤٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

لقد وصل هذا المجتمع إلى حد ينذر بالدمار والفناء ، ومن يا ترى يستطيع أن يقوم بعملية الإنقاذ هذه ؟ مكة يوجد فيها أشخاص مشهود لهم بالرجولة والحكمة والقوة والشجاعة والكرم ، فهل يستطيع زيد أو عمرو من أولئك الأشخاص أن يقوم بعملية التغيير هذه التي أصبح المجتمع في حاجة ماسة لها ؟ وكيف يقوم ذلك الشخص بهذه المهمة العظيمة وهو عاكف على صنم أو محنس لحجر ؟ كيف يقوم بعملية الإصلاح الكبيرة هذه وهو مثلهم يمارس ما يمارسون من ألوان الآثام التي أتينا عليها سابقا ؟ .

من يا ترى إذاً يستطيع أن ينقذ هذا المجتمع المتداعي ، المشرف على الهلاك ؟ .

إنه رب البيت ، رب العالمين ، رب الناس أجمعين الذي خلقهم ، ورزقهم ربهم الذي رد كيد المعتدين عنهم عندما أتى أصحاب الفيل لتدميرهم وتحطيم بنيتهم فرد كيدهم في نحورهم ، وحفظ بيته من تدبيرهم وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

نعم إنه القادر على كل شيء ، الذي بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ، إنه رب السماوات والأرض رب العرش العظيم .

وكان من لطفه سبحانه وتعالى بهم أن اختار من بينهم من يقوم بهذه المهمة العظيمة والرسالة الجسيمة بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يطعن فيه بأدلة وبراهين معقولة ، من حيث الخلق أو النسب أو السلوك ، وكيف يستطيع ذلك الطاعن أن يطعن أو ذلك المشكك أن يشكك فيمن اختاره رب العالمين لهداية الناس أجمعين ؟ حتى أولئك المعاندون والذين ظهروا بعد ذلك كانوا

فى قرارة نفوسهم واثقين من صدق هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

لقد تنزلت عليهم الرحمات من الرحمن الرحيم بمبعث سيد المرسلين إليهم ليقوم بعملية الإنقاذ هذه التى كانوا فى أمس الحاجة إليها فكان الخير والسلام والإخاء ، وكانت المحبة والوئام ، وكان العدل والحق والصفاء .

وهو ما سوف نأتى عليه بالتفصيل فى الفصول القادمة من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

الرسول .. في طفولته وصباه

الفصل الثانى

الرسول فى طفولته وصباه

إن رسالة الدين الإسلامى تعتبر بحق جامعة لجميع الرسالات وهى أيضا خاتمة لتلك الرسالات وفى نفس الوقت ناسخة لها ومتممة ، وهى للبشر كافة بل للثقلين : الإنس والجن ، لهذا لابد أن يكون صاحب هذه الرسالة فى مكانة تؤهله لحمل هذه المهمة العظيمة ، كى يؤدى هذه الأمانة الكبرى الملقاة على عاتقه من رب العزة والجلال .

إن هذا الاختيار من رب الناس جميعاً العالم بأحوالهم المقدر لأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم أو شقاوتهم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

يقول تبارك وتعالى فى سورة الأنعام : « الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون »[1] .

وكانت إرادة الله سبحانه وتعالى ، فاختار رسوله ونبيه محمداً ﷺ من الأمة الوسط ، وجعله فى قريش أفضل قبائل العرب على الإطلاق ، ومركزها مهوى أفئدة العرب جميعاً وذلك منذ سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل أفئدة الناس تهوى إلى هذا البيت .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة إبراهيم : « ربنا إنى أسكنت من

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[١] . كما أنه سبحانه وتعالى جعل نسبه فى أشرفها وأطهرها حيث لا يوجد من بين أجداده من ولد من سفاح أو يطعن فى نسبه وحسبه .

لقد كان المجتمع المكى أقرب للبداوة ، فاختار الحق تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من شعب أقرب للبداوة منه المدنية ، فهو شعب بسيط ، كما أنه لم يكن من أمة متحضرة ضربت شأواً فى الفلسفة والمناقشات وعرفت العلوم والمعارف ، تناقش فى كل مجال وتجادل فى كل موضوع ، وكانت المعجزة الربانية أنه اختار لرسالته رجلا أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة حتى لا يقول عنه أحد ، إنه قد قرأ على فلان أو فلان من الأعجمين أو أصحاب الكتب القديمة أو درس الكتب المقدسة التى كانت لدى بعض الشعوب خارج حدود الجزيرة العربية .

يقول الله تبارك وتعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون »[٢] .

اختاره الحق تبارك وتعالى وتكفل بالعناية به ورعايته منذ أن كان نطفة حتى ولادته ومبعثه ﷺ .

لقد كانت عناية الله ورعايته تحوطه فى كل لحظة من لحظات حياته المشرقة بنور الإيمان والإسلام والرسالة ، فكانت سيرته ﷺ كاملة مشرقة لا انقطاع فيها ، فهى معروفة للناس جميعا وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧ .
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

وتعالى ، حتى لا تكون هناك فرصة لحاقد أو حاسد أو عدو للرسالة أن يطعن فى صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ولنقف قليلا عند هذه العناية الربانية والحفظ الإلهى لهذا النبى الكريم فنورد بعضاً منها على سبيل المثال فقط .

قال ابن إسحاق [١] : (كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية . أم رسول الله ﷺ التى أرضعته ، تحدث : أنها خرجت من بلد ما مع زوجها ، وابن لها صغير (عبد الله بن الحارث) ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن سعد ابن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئا ، قالت : فخرجت على أتان لى قمراء [٢] ، معنا شارف [٣] لنا ، والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ما فى ثدىى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أدمت [٤] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً [٥] ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم . وما عسى أن تصنع أمه وجده . فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً غيرى ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١/١٧١ مطبعة الحلبى .

(٢) القمرة بالضم : لون إلى الخضرة أو بياض فى كدرة ، يقال : حمار أقمر وأتان قمراء .

(٣) الشارف : المسنة .

(٤) أى أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها .

(٥) العجف : الحبس .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثديايَ بما شاء من لبن فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى مشارفنا تلك فإذا إنها لحافل [1] ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله ياحليمة . لقد أخذت نسمة مباركة . قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك . قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتاني وحملته معي . فوالله لقطعت بالركب ، ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا بنت أبي ذؤيب ، ويحك أربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ، فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي هي ، فقلن : والله إن لها لشأناً ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفراً [2] .

---

(١) حافل : مليئة اللبن .

(٢) الغليظ الشديد .

قالت : فقد منا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بني عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا .

قالت : فرجعنا به ، فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم [1] لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه [2] .

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه . قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بني . قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا به إلى خبائنا .

قالت : وقال لي أبوه : يا حليمة . لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : وما أقدمك به يا ظئر [3] وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي ، وتخوفت الأحداث .

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها . قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟

---

(١) بهم : الصغار من الغنم ، واحدتها بهمة .

(٢) يسوطانه : يقال : سطت اللبن أو الدم أو غيرهما أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض .

(٣) الظئر : بالكسر العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

قالت : قلت : نعم . قالت : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا أفلا أخبرك خبره . قالت : قلت بلى : قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى [1] من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقى راشدة » [2].

ولما سأله نفر من أصحابه ﷺ عن نفسه قال : ﷺ أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا ، ثم أخذانى فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بمئة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » [3] .

هذا غيض من فيض من رحمة رب العزة والجلال بعبده ورسوله ومصطفاه ﷺ فى طفولته .

لقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن يولد هذا النبى الكريم يتيما ، إذ توفى

---

(١) بصرى : من أعمال دمشق بالشام وهى قصبة كورة حوران .

(٢) سيرة ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام جـ ١/١٧١ مطبعة الحلبى .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١/١٧٥ ، ١٧٦ .

والده عبد الله بن عبد المطلب وهو جنين فى بطن أمه وما أن بلغ السادسة من عمره ﷺ حتى توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى ابن النجار ، تزيره إياهم فماتت وهى راجعة به إلى مكة (١) .

كفله بعدها جده عبد المطلب بن هاشم ، يقول ابن إسحاق : (وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ، ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر ، حتى يجلس عليه فأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع » (٢) .

وما أن بلغ عليه الصلاة والسلام ثمانى سنين من عمره فيفجع بوفاة جده عبد المطلب بن هاشم فانتقل للعيش مع عمه أبى طالب ، حيث كان جده يوصى به عمه أبا طالب ، ذلك لأن أبا طالب وعبد الله أخوان شقيقان ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وكان أبو طالب فقير الحال كثير العيال ، وكان يحب محمداً حبا عظيما

---

(١) المرجع السابق جـ ١/١٧٧ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١/١٧٨ .

لا يحبه والده ، وكان لا ينام إلا بجانبه ، وإذا خرج أخذه معه ، وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعا أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم السيد الجليل ﷺ شبعوا ، فيقول له عمه : إنك لمبارك .

نعم لقد حلت البركة فى بيت عمه منذ أن احتضنه بعد وفاة جده عبد المطلب ، فتحسنت أحوال عمه المعيشية ، فأصبح ينعم بهذا الصبى المبارك ، رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين ﷺ .

اَلفَصْلُ اَلثَّالِث

الفصل الثالث

(الرسول فى شبابه)

ما أن بلغ عليه الصلاة والسلام سن الشباب حتى ارتفع ذكره وعلت مكانته بين قومه ، حيث عرف بالأمين وبالصادق ، وذلك لما ظهر عليه من جميل هاتين الخصلتين من خلال تعامله مع قومه فرادى أوجماعات ، فقد كان يتعامل مع مجتمعه الذى كان يعيش فيه على أساس من الصدق والأمانة ، يشترك معهم فى الأمور العامة والتى كان من أبرزها ما يلى :

أولا : حرب الفجار :

يقول ابن هشام فى سيرته الفجار بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وذلك أنه كان قتالا فى الشهر الحرام ففجروا فيه جميعا ، فسمى الفجار [1] .

فلما بلغ رسول الله ﷺ الرابعة عشرة أو الخامسةعشرة من عمره حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس ، وسببها أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ لتباع له وكان قد اعتاد أن يرسلها فى أمان رجل ذى منعة وشرف فى قومه ، فجلس يوما وعنده البراض بن قيس الكنانى ، وكان فاتكا خليعاً خلعه قومه لكثرة شره ، وعروة بن عتبة الرحال . فقال النعمان :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ / ١٩٥ .

من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أنا أجيزها على بنى كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على الناس كلها فقال عروة : أبيت اللعن أكلب خليع يجيزها لك ؟ أنا أجيزها على أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أو تجيزها على كنانة يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم .

فأسرها البراض فى نفسه ، وتربص له حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسل يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيساً قوم عروة وبلغ قيساً الخبر فخرجت للثأر ، فأدركوا قريشاً وكنانة فى موضع بين مكة والطائف (نخلة) فاقتتلوا ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم إمام المتقين رسول المرسلين ﷺ ، ثم إن قيساً قالوا لخصومهم : إنا لا نترك دم عروة أبداً ، فالموعد عكاظ العام المقبل ، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً .

فلما كان الموعد وحل الحول أو وحال الحول جمعت قيس جموعها من ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش وكانوا حلفاء قريش ، وكان على بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته وابن أخيه صلوات الله وسلامه عليه ، وكان على بنى أمية حرب بن أمية وله القيادة وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ، وبدأت المعركة ، فكان يوما أشد أيام العرب ، ولما استحل فيه من حرمات مكة والتى كانت مقدسة عند جميع العرب سميت هذه الحرب بحرب الفجار .

ثانياً : حلف الفضول :

حضره ﷺ وذلك عندما رجعت قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول ، فتم ذلك فى دار عبد الله بن جدعان أحد رؤساء قريش ، وكان المتحالفون : بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد وبنى زهرة ، وبنى تيم ،

اجتمعوا وتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته . وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه ، وقال عليه الصلاة والسلام بعد أن شرفه الله سبحانه وتعالى بالرسالة : « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » . ذلك أنه ﷺ قد بعثه الله سبحانه وتعالى بمكارم الأخلاق .

ثالثاً : بناء البيت :

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وذلك لأن سيلا جارفا صدع جدرانها بعد توهينها من حريق أصابها من قبل ، فأرادت قريش هدمها ورفعها وسقفها لأنها كانت مبنية من الصخر فوق القامة بقليل ، فاجتمعت القبائل لهدمها وإعادة بنائها من جديد ، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها فى نفوسهم جميعاً .

فقال لهم الوليد بن المغيرة : أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا : بل الإصلاح ، قال لهم : إن الله لا يهلك المصلحين ، وبدأ يهدم فلما رأوا أنه لم يحدث له مكروه ، تبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ، وهناك وجدوا صخرا نقش فيها من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء عظيم وشهير ليكون تذكرة للمتأخرين ، ثم ابتدأوا فى البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة ، على أعناقهم وكان العباس ورسول الله ﷺ فيمن يحمل وقد خصص لكل ركن من أركان البيت جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة ، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة .

ولما تم البناء ثمانى عشرة ذراعا[1] بحيث زيد فيه عن أصله ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج .

أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه . يقول ابن هشام فى سيرته . قال ابن إسحاق : « اختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب ابن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا .

فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلموا إلى ثوبا ، فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الكريمة ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه[2] . وهكذا انتهت هذه المشكلة الكبيرة والتى كادت أن تتسبب فى حرب ضروس وقتال كبير بين القبائل ، فمن الله سبحانه وتعالى عليهم بالأمين فقضى بينهم بما أرضى الجميع .

---

(١) الذراع : ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى ، أنثى وقد تذكر ، لسان العرب جـ ٨ / ٩٣ لابن منظور دار صادر بيروت لبنان .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وهناك جانب آخر فى مرحلة شبابه ﷺ لا بد من الوقوف عنده بعض الشىء، وأعنى به حياته الخاصة ﷺ حيث كانت هذه الحياة أسوة صالحة، فما من عمل يقوم به عليه الصلاة والسلام إلا وكان مثلا أعلى للشباب ، إذ كان الحق تبارك وتعالى يرعاه ويتعهده ويحوطه بعنايته ، وسوف نتطرق للحديث عن الجوانب التالية فى حياته الخاصة عليه الصلاة والسلام .

أولا : كسب الرزق :

لقد رعى رسول الله ﷺ الغنم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ما بعث الله نبياً إلى رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1] .

قال ابن عقيل : لما كان الراعى يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر للمداراة ، وكان الأنبياء معدين لإصلاح الأمم حسن هذا فى حقهم[2] .

وكان ﷺ يشتغل بالتجارة ، وكان شريكه السائب بن أبى السائب ، وقد ذكر ابن الجوزى فى كتابه الوفاء (أنه لما كان يوم الفتح جاءه ﷺ السائب بن أبى السائب فقال له عليه الصلاة والسلام : مرحباً بأخى وشريكى كان لا يدارى ، ولا يمارى »[3] .

وذهب ﷺ بتجارة السيدة خديجة بنت خويلد إلى الشام ، وذلك أنها

---

(١) أخرجه البخارى ، والقيراط من الوزن وهو نصف دانق وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً . لسان العرب لابن منظور جـ ١ / ٣٧٥ .

(٢) الوفاء بأحوال المصطفى جـ ١ / ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق .

أرسلت إليه تطالب منه ﷺ أن يذهب بتجارة لها إلى الشام لما عرفت من أمانته وصدقه ، عاد من رحلته التجارية هذه بربح وفير ، وكان من ذلك أن عرضت عليه بنت خويلد الزواج فتزوجها ، وأخذ يتاجر بمالها ويأكل من عمل يده ﷺ .

ثانيا : السمر :

كان من عادة شباب قريش السمر فى الأندية واللهو والشرب وقول الشعر والذهاب إلى الأصنام لعبادتها ، لكن النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لم يفعل شيئاً من هذا ، إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحول بينه وبين هذه الأعمال كلها منذ صغره ، حتى لم يكن يحضر احتفالات قومه وأعيادهم التى كانوا يقيمونها لأصنامهم ، لقد بغض الله إليه ذلك كله وحفظه سبحانه وتعالى بحفظه ، يقول ﷺ : قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فقال : افعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا عرس ، فجلست أسمع . فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبى ، فسألنى ، فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء حتى أكرمنى الله سبحانه وتعالى برسالته .

ثالثاً : الزواج :

لقد أصبح عليه الصلاة والسلام شابا كامل الرجولة ، فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره .

يقول الأستاذ محمود شاكر فى كتابه التاريخ الإسلامى :

(غدا هدفا لكثير من القبائل والبطون تريد أن تناسبه لتحصل على الشرف ، شرف القرابة ، وما هذا بالذى يخفى على الفتيات ، وكل واحدة تريده لها بعلا ، وإن كان قليل المال ، فالمال ظل زائل أما الشرف فأثر دائم ، ولكن أنى للفتاة أن تتحدث بما يجول فى نفسها فى المجتمع القبلى إلا من كانت من الوجاهة ما تحول بينها وبين نقمة القوم ، ومن الشرف ما يمنع أن تتحدث عنها القبيلة ، أو من الغنى ما تذود به عن نفسها ، أو تكون أرملة ثرية عركت الحياة وقرفت الزواج ، وحضرت منازل الرجال بمالها فى مجتمعها من أثر الثراء والوجاهة)[1] .

كانت السيدة الجليلة خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعل لهم منه ، وكانت قريش قوما تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت أن يخرج فى مالها تاجراً إلى بلاد الشام ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، حتى قدم الشام ، فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة ، قريب من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى .

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها ، فاشترى ما أراد أن

---

(١) التاريخ الإسلامى — السيرة — محمود شاكر ص ٤٧ ، ٤٨ .

يشترى ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحريرى ملكين يظلانه عليه الصلاة والسلام من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة حدث ميسرة سيدته خديجة بما كان فى هذه الرحلة ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله سبحانه وتعالى بها من كرامته فبعثت إلى السيد الجليل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فجاءها وقالت له : يا ابن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى وشرفك فى قومك ، ووسيلتك فيهم ، وأمانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وكل قومها قد كان حريصاً أن يكون زوجا لها ، وكان عمرها أربعين عاما ، قبل عليه الصلاة والسلام وتم الزواج الميمون .

رابعاً : الخلوة :

حبب الله سبحانه وتعالى لعبده ﷺ الخلوة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرتقى إلى جبل قرب مكة فيه غار يقال له : غار حراء ، يتأمل فى ملكوت السموات والأرض ويتفكر فى بديع صنع الله سبحانه وتعالى بعيداً عن مشكلات ذلك المجتمع المملوء بالمفاسد الغاص بالمظالم ، العاكف على عبادة الأصنام والأوثان المبتعد عن دين أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

كان ﷺ يتعبد فى غار حراء فيدوم بقاؤه عشرة أيام ، وأحياناً شهراً ، وكان عليه الصلاة والسلام يتزود لذلك الانقطاع فإذا فرغ زاده رجع إلى زوجه خديجه بنت خويلد رضى الله تعالى عنها فيمكث أياماً قليلة ثم يعود

لخلوته ، سابح فى ملكوت الله سبحانه وتعالى ، متدبر لما فى السموات والأرض من مخلوقات وآيات تدل على عظمة الحق تبارك وتعالى وبديع صنعه ودقته .

إنها تهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الطاهرة الزكية ، لقد كان ولعه شديداً بهذه الخلوة ، التى كان يتطلع فيها إلى مشارق النور الإلهى الذى تهيأت له نفسه المباركة وفؤاده المنير ﷺ .

« فى هذا الغار المهيب المحجب ، كانت نفس كبيرة تطل من عليائها على ما تموج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء وانكسار ، ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك مخرجا ، ولا تعرف له علاجا »[1] .

فى غار حراء اتصل الأمين ﷺ بالملأ الأعلى كان يأخذ زاد الليالى المقبلة ، منقطع عن جميع أهل مكة ، متجه بفؤاده المشوق إلى رب الفؤاد سبحانه وتعالى ، يتطلع إلى هذه البطاح ، بطاح مكة بما فيها من كفر وإلحاد وضلال ، مبتعداً عن الباطل وأهله ، متجهاً بكل مشاعره وأحاسيسه إلى ربه سبحانه وتعالى فصفت نفسه ، حتى أصبح لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه .

---

(١) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٨ ، ٨٩ ط ٧ ، ١٩٨٦ م ، دار الكتب الحديثة .

الفصل الرابع

بدء الوحي والرسالة

الفصل الرابع

بدء الوحي والرسالة

لما بلغ عليه الصلاة والسلام أربعين سنة بعثه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين، وبشيراً ونذيراً للناس كافة، وقد أخذ الحق تبارك وتعالى الميثاق على كل نبي بعثه قبله بأن يؤمن به ويصدقه وينصره على من خالفه، كما أخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا ذلك، يقول تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين: «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين»[1].

وأول ما بدىء به رسول الله ﷺ من أمر النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى عليه الصلاة والسلام رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، وحبب الله إليه الخلوة. فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

«يقول ابن إسحاق: وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان ابن العلاء ابن جارية الثقفي أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر

---

(١) سورة آل عمران: ٨١.

إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان[1] .

قال رسول الله ﷺ : جاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قلت ما أقرأ . قال : فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت :ما أقرأ ؟ قال : فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : فغطنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، قال : اقرأ ، قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » .

قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد : أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، قال : فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١/٢٥٠ ، ٢٥١ .

وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً[1] إليها ، فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن العم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ، وهو ابن عمها ، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ ، أنه رأى وسمع . فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت ، فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله .

ويقول ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق : أنه حدثه إسماعيل ابن أبى حكيم مولى آل الزبير أنه حدث عن خديجة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى

---

(١) مضيفا : مائلا إليها . لسان العرب جـ ٩ / ٢١٠ .

يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا جاء فأخبرنى به ، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع ، فقال رسول الله ﷺ لخديجة : يا خديجة ، هذا جبريل قد جاءنى ، قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى ، قال : فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحول فاجلس فى حجرى ، قالت : فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قال : فتحسرت وألقت بخمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها ، ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : لا ، قالت : يا ابن عم ، أثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان[1] .

وقد ذكر ابن كثير فى سيرته أيضاً أن ورقة بن نوفل عندما سمع من خديجة بنت خويلد ما قالت له ، قال لها : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه ، إضافة إلى ما عرفته رضى الله عنها من زوجها عليه أفضل الصلاة والسلام من صدق وأمانة وحسن خلق .

يقول ابن كثير : فجعل ورقة ينشد هذه الأبيات :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود يوما ... ويخصم من يكون له حجيجا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١/٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن "وجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فيا ليتنى إذا ما كان ذا كم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا
ولو جافى الذى كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجى بالذى كرهوا جميعاً ... إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة حروجا

وقد أورد شهاب الدين أبى الفضل ابن حجر فى فتح البارى فى المجلد الأول عند الكلام عن بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ حديث أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول».

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقا[1] .

وفى نزول الوحى على عبد الله ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ رواية أوردها البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا يحيى بن بكير ، قال : حدثنا الليث ، عن عقيل عن ابن شهاب ،

---

(١) فتح البارى جـ ١/٢٣ ، ٢٤ .

عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم » .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1].

هذه الروايات التى وردت فى نزول الوحى على سيدنا رسول الله ﷺ وفيها إيضاح ما أوردنا إيضاحه من كيفية نزول الوحى عليه ﷺ إن شاء الله تعالى ، والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) فتح البارى لابن حجر جـ ١/٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، مطبعة الحلبى بمصر .

البَابُ الثَّالث

الأسلوب النبوي للدعوة في العهد المكي

تمهيد

يقول ابن منظور صاحب لسان العرب : الأسلوب بالضم : الفن ، يقال أخذ فلان فى أساليب من القول أى أفانين منه [1].

ويقول مجد الدين الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط :

الأسلوب : الطريق وعنق الأسد والشموخ فى الأنف [2] .

أما محمد بن أبى بكر الرازى صاحب مختار الصحاح فيقول :

الأسلوب : الفن [3] .

على هذا فإن المقصود من هذا الباب بل من هذا البحث ، بيان طريقة سيد الأنبياء والمرسلين فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وأفانينه فى ذلك بدءاً بالدعوة فى فترتها السرية ، حتى انتقل عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام إلى الرفيق الأعلى ، لتكون لنا معلماً ونبراساً وطريقاً نسلكه فى دعوتنا الناس إلى توحيد العبادة للخالق جل وعلا ، فالحق تبارك وتعالى يخاطبنا فيقول جل من قائل فى سورة الأحزاب : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » [4].

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٤٧٣/١ دار صادر بيروت لبنان .

(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادى جـ ٨٦/١ دار الجيل بيروت لبنان .

(٣) مختار الصحاح محمد الرازى ص ٢٣١ المركز العربى للثقافة والعلوم ، بيروت ـ لبنان .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

وسوف نأخذ فى تتبع أسلوبه ﷺ فى الدعوة إلى الإسلام والدين الجديد بالنسبة لقومه والناس جميعاً فى ذلك الزمان ، ونقف على كل مرحلة من مراحل الدعوة النبوية إلى التوحيد الخالص ونبذ عبادة غير الله سبحانه وتعالى من أصنام وأوثان ومخلوقات كالشمس والقمر وغيرهما من عبادات كانت الناس عليها عاكفة وبها مستجيرة ولها عابدة متذللة ، أو هى واسطة بين بعضهم وبين خالقهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى فى كتابه العزيز : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار »[1].

لقد كانت الدعوة إلى الإسلام أحب إلى النبى ﷺ من كل شىء إلا الله، فكان ﷺ حريصاً على هداية الناس جميعاً ، ليدخلوا فى دين الله وينعموا بما أعده الخالق سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة من خير جزيل وأجر عظيم ، وسوف نورد بعضاً من الأمثلة للدلالة على ذلك .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب [2] ، دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشى أبو جهل ـ لعنه الله ـ إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس فى ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً

---

(١) سورة الزمر الآية ٣ .

(٢) سنورد تراجم عن جميع ما ذكر فى البحث من رجال ونساء فى نهايته بإذن الله تعالى .

قرب عمه ، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أى ابن أخى . ما لقومك يشكونك ؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ، قال : وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم . إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففزعوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : كلمة واحدة ، نعم وأبيك عشرا ، وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة واحدة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ « لا إله إلا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب »[1] ، قال : ونزلت من هذا الموضع إلى قوله : (بل لما يذوقوا عذاب).

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى وابن أبى حاتم وابن جرير ، ورواه الترمذى وقال : حسن[2].

وهذا مثل آخر على واهتمامه ﷺ بالدعوة ، فقد أورد البخارى فى صحيحة فى باب قصة أبى طالب ما نصه :

« حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن ابن السيب عن أبيه : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال : أى عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ، فقال النبى ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنه ، فنزلت : ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى

---

(١) سورة ص الآية ٥ .

(٢) حياة الصحابة جـ ١/٣٢ ، ٣٣ محمد يوسف الكاندهلوى .

وتارة نجده يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى أن يفجأ القوم باستعلاء الحق واندحار الباطل وزهوقه بأسلوب كله قوة واستعلاء، يقول تبارك وتعالى « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »[١].

وفى موضع آخر من الكتاب العزيز نجده يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى أن يتمسك بما أوحى الله إليه، وأن يستقيم على الطريق الذى رسمه له الوحى الإلهى، وأن يدع ويترك المنكرين الجاحدين المعاندين إلى يوم الحساب، يوم توفى كل نفس ما كسبت، فيقول تعالى: « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير »[٢].

وتارة نجده يطلب منه ﷺ أن يجهر بالدعوة ويمضى فى طريقه غير مكترث باعتراضات أهل مكة وجهالتهم وضلالتهم وسخافاتهم. يقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل: « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »[٣].

وفى وقت من الأوقات يدعوه إلى الجهاد فى سبيل هذه الدعوة لتعلو كلمة الله ويكون الدين كله خالصاً لله سبحانه وتعالى لا شريك له، يقول سبحانه وتعالى: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨١.
(٢) سورة الشورى الآية ١٥.
(٣) سورة الحجر الآية ٩٤.

فلا عدوان إلا على الظالمين »[١] .

ويقول تبارك وتعالى فى موضع آخر من كتابه العزيز :

« فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »[٢] .

وفى سورة التحريم يقول سبحانه وتعالى لعبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »[٣] .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن النبى عليه الصلاة والسلام سوف يلاقى الكثير والكثير من قومه ، لذلك نجد الآيات البينات تحثه عليه الصلاة والسلام على الصبر ؛ لأن صاحب دعوة كهذه يجب عليه أن يتحمل تكاليف هذه الدعوة ، وأن يصبر على كل ألوان الاعتراض والاستنكار من قومه ، بل يصبر على تعذيبهم وإيذائهم وتكذيبهم ، وكيف يكذبونه وهو الذى لم يعرف عنه أنه كذب قط ، لا بل كانوا ينادونه بالصادق ، إن من أشد الأمور مرارة على نفس الإنسان أن يكذب وهو واثق من صدق مايقول ، وممن هذا التكذيب ؟ من قومه لا . بل من أحد أعمامه وبعض أهله وقبيلته ، لذلك فهو بحاجة ماسة وأكيدة إلى أن يصبر ويكون من المثابرين الثابتين كى يبلغ رسالته ويؤدى أمانته ، لتكون كلمة الله هى العليا .

أنزل عليه الحق تبارك وتعالى الآيات التاليات ليثبته ويشيع فى قلبه عليه الصلاة والسلام الثقة والطمأنينة واليقين ، يقول تعالى . « واصبر

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٢ .

(٣) سورة التحريم الآية ٩ .

على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا »[١] .

ويقول تعالى : « فاصبر صبراً جميلا »[٢] .

ويقول سبحانه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون »[٣] .

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة النحل : « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون »[٤] .

ويقول سبحانه وتعالى أيضا فى سورة الكهف : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »[٥] .

والمتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد إلى جانب آيات الصبر هذه والتى أوردنا بعضاً منها آيات أخرى كريمة تشد من أزره ﷺ وتبث فى نفسه الكريمة الثقة والثبات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة والضلالة إلى الهدى والخير والطمأنينة .

كما أن الآيات التاليات هذه تحذر الصادق المصدوق عليه أفضل

---

(١) سورة المزمل الآية ١٠ .
(٢) سورة المعارج الآية ٥ .
(٣) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢٧ .
(٥) سورة الكهف الآية ٢٨ .

الصلاة وأزكى السلام أن يميل عن الطريق المستقيم أو الشك فيما آتاه الله سبحانه وتعالى من نور وخير وهداية ، والتمسك بما يوحى إليه من رب العالمين .

يقول تبارك وتعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » (١).

ويقول سبحانه . « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٢).

وفى موضع آخر من الكتاب العزيز يقول جل من قائل : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » (٣).

ويقول سبحانه : « فاستمسك بالذى أوحى إليك أنك على صراط مستقيم » (٤).

كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا * وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ، وإذاً لا يلبثون خلفك إلا قليلا * سنة من قد أرسلنا قبلك

---

(١) سورة الفرقان الاية ٣٢ .
(٢) سورة هود الآية ١٢٠ .
(٣) سورة يونس الاية ٩٤ ، ٩٥ .
(٤) سورة الزخرف الآية ٤٣ .

من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا »[١].

ويقول جل ثناؤه وتقدست أسماءه : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين »[٢].

وتتنزل الآيات الكريمة محذرة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم من أن تفتنه الحياة الدنيا بما فيها من زخارف ومتاع وزينة وعرض زائل لا محالة ، يقول سبحانه وتعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى »[٣].

بهذا الذى ذكرناه من توجيه ربانى وبغيره فى محكم التنزيل كان ﷺ يتصدى لجميع ما اعترضه من مشكلات ومصاعب فى سبيل إبلاغ دعوة ربه سبحانه وتعالى .

وبعد هذا الاستعراض السريع نبدأ فى بيان وتوضيح مرحلة النبوة وأهدافها ، وهو الفصل الأول من هذا الباب الذى نحن بصدده بعدما تبين لنا كيف لقنه ربه وسبحانه وتعالى أسلوب الدعوة إليه جل وعلا ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بذلك الأسلوب وسار على ذلك المنهج الربانى لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ويتحرر المجتمع الإنسانى مما لحق به من ذل وهوان وعبادة الشيطان والهوى والأوثان والكواكب والنجوم والنار.

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٧٣ إلى الآية ٧٧ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٥ .

(٣) سورة طه الآية ١٣١ .

الفصل الأول

مرحلة النبوة وأهدافها

الفصل الأول

مرحلة النبوة وأهدافها

بدأت مرحلة النبوة بنزول جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، عند ما بلغ ﷺ الأربعين من عمره ، وما حدث فى لقاء الغار من سؤال جبريل للنبى ﷺ أن يقرأ والرسول ﷺ يقول : ما أنا بقارىء ، كما ذكر الإمام البخارى فى باب كيفية الوحى حين قال : عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1] ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى[2] حتى بلغ منى الجهد[3] ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت

---

(١) فلق الصبح : ضياؤه .

(٢) ضمنى وعصرنى .

(٣) بلغ الغط منى غايته .

خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، الحديث[1] .

هذه هى بداية مرحلة النبوة التى أخبر فيها ﷺ بالرسالة بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، ثم أنزل الله سبحانه وتعالى عليه سورة المزمل : « يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » السورة .

ويبدو واضحاً أن آيات سورة العلق وآيات سورة المزمل لم تأمره ﷺ بالتبليغ والإنذار أبداً ، حيث نجد أن آيات سورة العلق تأمره بالقراءة ، أما آيات سورة المزمل ترسم له الطريق للإعداد النفسى والتهيؤ الروحى للنهوض بما سيلقى عليه من المهام العظيمة الثقيلة ، حيث وضحت هذه السورة وسائل ذلك الإعداد والتى تتلخص فى قيام الليل ، وترتيل القرآن وذكر الله والتبتل إليه والاعتماد عليه والثقة به سبحانه وتعالى .

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ / ٣ ، ٤ عالم الكتب .

أهداف مرحلة النبوة

يبدو واضحاً أن أهداف هذه المرحلة تتلخص فى النقاط التالية :

أولا : إعلام النبى ﷺ بالنبوة ، وهذا واضح حيث كان جبريل عليه السلام يلقاه من حين لآخر ويقول له : يامحمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله .

ثانياً : إعداد النبى ﷺ وتهيئته للقيام بالمهمة الشاقة التى سوف تلقى عليه فيما بعد ، فيكون على استعداد جيد للقيام بتلك المهمة بشكل جيد .

ثالثاً : لم يكن ﷺ مطالباً فى هذه المرحلة بالتبليغ أبداً ؛ وذلك لأنها مرحلة إعداد واستعداد لما سوف يأتى من تكاليف فيما بعد .

رابعاً : إتاحة الفرصة للنبى ﷺ للتفكير فى هذه المهمة العظيمة والتدبير فيها لمواجهة الأحداث التى ترافقها .

خامساً : شعوره ﷺ بشدة وعظم ما ألقى عليه ، وذلك عندما عاد إلى منزله حيث زوجته خديجة وهو يرتجف ويقول : زملونى زملونى .

سادساً : إيمانه ﷺ بما أنزل إليه من ربه سبحانه وتعالى وتصديقه بما جاء به جبريل عليه السلام ، قال تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »[1] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

الفصل الثاني

الفترة السرية للدعوة

الفصل الثاني

الفترة السرية للدعوة

يتضح للمتتبع والمتقصى لهذه المرحلة من الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أن النبي ﷺ اتبع أسلوباً حكيما بتسديد من الحق تبارك وتعالى وتوفيق منه جل وعلا ، ويتمثل هذا الأسلوب فى هذه المرحلة بالذات فى عدم السرعة فى إعلان الدعوة وهو ماظهرت آثاره الإيجابية فيما بعد .

إن عدم الإسراع فى معالنة قومه ومجتمعه المعتز بوثنيته المتعظم بشروره ومفاسده أكسب الدعوة رجالا صدقوا ما عاهدو الله عليه ، التفوا حول الصادق المصدوق ﷺ طوال هذه الفترة وبعدها ، فكانوا بمثابة البذرة الصالحة فى الأرض الطيبة ، رجاء أن تنبت وتثمر ثمرات يانعات حتى تصل هذه الدعوة قوية تجذب إليها قلوباً فيها الخير وقابلة لتقبل دعوة الخير والحق .

نعم لقد كان أولئك الأخيار المؤمنون بهذه الرسالة الحقة عدة هذه الدعوة وقوتها فى المرحلة التالية عندما جهر عليه الصلاة والسلام بدعوته أمام طغيان وعناد وجحود المستكبرين من أهل مكة .

لقد آثر ﷺ الإسرار بالدعوة ليعد لها أرضاً صلبة تقف عليها فى مسيرتها المظفرة لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى فى الأرض ، ولم يكن الاستخفاء بالدعوة موقفاً سلبيا لا حركة فيه بل العكس من ذلك ، لقد كان موقفاً إيجابيا ، عظيما فى آثاره ونتائجه ، لقد تخير عليه أفضل الصلاة والسلام من توسم فيهم الخير

ليكونوا اللبنات القوية المتينة التى يشيد عليها هذا الصرح العظيم ، والذى عرف فيما بعد بالمجتمع الإسلامى لقد كان أولئك الأصحاب البررة شديدى التمسك بالدين الجديد ، بل كانوا أيضاً دعاة لهذا الدين على ما نأتى عليه من التفصيل فيما بعد .

كما أن الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم اتبع فى هذه الفترة أسلوباً آخر غير الأسلوب الذى ذكرناه فيما سبق ، إنه أسلوب المسالمة الأمر الذى مكن الدعوة فى سنينها الثلاث والتى تمثل عمر الدعوة فى هذه المرحلة ، مكنها من السير إلى الأمام وازدياد عدد المؤمنين بها المضحين فى سبيل إعلائها يوماً بعد يوم .

بهذه المسالمة المؤقتة ريثما يقوى عود هذه الدعوة ويصبح قادراً على الوقوف أمام كل من عاند وامتنع . وصلت هذه الدعوة إلى قلوب وعقول عدد من فتيان قريش ، لا بل إلى بعض الوافدين على مكة من غير أهلها ممن كانت فى قلوبهم قبسات من نور الفطرة السليمة فازداد عدد المؤمنين يوماً بعد يوم حيث اتخذ الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم من دار الأرقم ابن أبى الأرقم عند الصفا مقرا لهذه الدعوة أو قل معهداً ومدرسة لتعليم أولئك الأخيار رضى الله تعالى عنهم جميعاً أمور دينهم ، وتلاوة ما يتنزل من آى الذكر الحكيم ، ويستقبل فيها من أراد الله له السعادة والفلاح ممن يقبل على الإسلام من ذلك المجتمع الوثنى الكافر .

كان ﷺ فى هذه الفترة دائب الحركة لا يفتر يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، فكان يدخل المسجد الحرام كثيراً يطوف بالبيت العتيق يعبد ربه سبحانه وتعالى ، والملأ من قريش قعود حول الكعبة يشيرون إليه إذا مر بهم

فى مجالسهم ويقولون : إن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء ولم يكن منهم إليه كبير أذى ولا مناكرة .

ومن المعلوم أن مكة فى ذلك الزمان مركز دين العرب بها سدنة الكعبة والقائمون على شئون البيت الحرام من سقاية ووفادة وخدمة للأصنام والأوثان التى كانت العرب تقدسها وتعبدها من دون الله سبحانه وتعالى ، إذاً الحكمة تقتضى ـ والحالة كما ذكرنا ـ أن تكون الدعوة فى بدايتها كما فعل عليه الصلاة والسلام خاصة وأن علية القوم فى المجتمع المكى فى مقدمة المستفيدين من الوضع القائم ؛ لأن كل ما يجبى إلى البيت العتيق من هبات ونذور وهدايا يعود إليهم ، علاوة على المكانة الاجتماعية التى حصلوا عليها من وجود البيت الحرام فى بلدهم ، فقد حصلوا على الشرف العظيم والتقدير والاحترام من جميع قبائل الجزيرة العربية لقيامهم على خدمة بيت الله العتيق ، وهم بذلك لا يسمحون لأحد أن يسلبهم هذا المجد وذلك الفخر ، كما كانوا يظنون ويتصورون .

يقول ابن سعد فى طبقاته : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى معمر ابن راشد عن الزهرى قال : دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً ، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان إذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب آلهتهم التى يعبدونها دونه وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا[1]

---

(١) فشنفوا : الشنف البغض والتنكر ـ اللسان لابن منظور جـ٩ / ١٨٣ .

لرسول الله ﷺ عند ذلك وعادوه »[1] .

لقد أدبر واستكبر عن هذه الدعوة كل من أعمت أبصارهم الرياسة كيلا تسلب من عظمته كما كانوا يتوهمون ، وذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق والإيمان وخلع الأوثان وتوحيد العبادة للواحد الديان سبحانه وتعالى .

وكان أول من سطع عليه نور الإسلام أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها وأرضاها زوج الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وعلى بن أبى طالب ابن عمه ﷺ ، وكان يقيم عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره ، فكان فى كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة ، فكان تابعاً للنبى ﷺ فى كل أعماله ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى ، كما أجاب هذه الدعوة زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى مولاه عليه الصلاة والسلام ، وكان يقال له زيد بن محمد ، كما أجابت أم أيمن ، هذا بالنسبة لمن أجابوا من أهل بيته ﷺ .

أما من غير أهل بيته فأول من أجاب أبو بكر بن أبى قحافة بن عامر التيمى وكان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة يعرف تماماً صفات صاحبه الكريمة وأخلاقه الرفيعة العالية ، لم يعرف عنه كذبا قط مذ صحبه ، لهذا لما أعلمه برسالة ربه أسرع بالتصديق وقال رضى الله تعالى عنه : بأبى أنت وأمى أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

قال عليه الصلاة والسلام فى حق الصديق رضى الله عنه : « مادعوت

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ / ١٩٩ دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٠ هـ .

أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر »[1] .

لم يقف الصديق رضى الله عنه عند الدخول فى الإسلام ، لا . بل أخذ يدعو إلى دين الله جنباً إلى جنب مع إمام المتقين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فقام بدعوة من يثق فيهم من رجالات قريش فأجابه جمع مبارك منهم :

١ — عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولما علم عمه الحكم بإسلامه أوثقه كتافا وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث ؟ والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان رضى الله تعالى عنه : والله لا أدعه ولا أفارقه . فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه[2] .

٢ — الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة سيدنا رسول الله ﷺ وابن أخى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنهم جميعاً .

يقول ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا أنس بن عياض الليثى عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : لكل أمة حوارى وحوارى الزبير بن عمتى »[3] .

٣ — عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب ، كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الرحمن ، ويكنى أبا محمد ، ولد بعد الفيل بعشر سنين .

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير جـ ٨ / ٥٨٥ .

(٢) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضرى ص ٤١ علوم القرآن ، دمشق .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٣ / ١٠٥ دار بيروت للنشر والطباعة .

ويقول ابن سعد فى طبقاته : « أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر الزهرى عن يعقوب بن عتبة قال : كان عبد الرحمن بن عوف رجلا طويلا حسن الوجه رقيق البشرة ، فيه جنأ[1] ، أبيض مشربا حمرة ، لا يغير لحيته ولا رأسه »[2] . مات أبو محمد عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه سنة اثنين وثلاثين وهو يومئذ ابن خمس وسبعين .

٤ — سعد بن أبى وقاص :

هذا الصحابى الجليل أحد الذين أسلموا على يدى الصديق رضى الله عنهما يكنى أبا إسحاق ، أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى ، واسمه أبى وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة .

يقول ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه قال : ما أسلم رجل قبلى إلا رجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد أتى على يوم وإنى لثلث الإسلام »[3] . لما علمت أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بإسلامه قالت له : يا سعد بلغنى أنك قد صبأت . فوالله لا يظلنى سقف من الحر والبرد وأن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فجاء سعد

---

(١) جنأ : ميل فى الظهر وقيل فى العنق ـ لسان العرب جـ١/٥٠ ، دار صادر .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ / ١٣٣ دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٧ هـ .

(٣) المرجع السابق جـ ٣ / ١٣٩ .

إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمه ، فنزل فى ذلك تعليما من لدن حكيم خبير ، يقول الحق تبارك وتعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » الآية [١] .

يقول السيوطى : أخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : قالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر ، والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، فنزلت الآية [٢] .

فالحق سبحانه وتعالى وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما إذا دعواه للإشراك بالله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

يقول ابن الأثير فى أسد الغابة : روى سعد عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة روى عنه ابن عمر وابن عباس وجابر بن سمرة والسائب بن يزيد » [٣] .

وذكر ابن سعد عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص قالت : « مات أبى رحمه الله فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة [٤] فحمل إلى المدينة على رقاب الرجال وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والى المدينة ، وذلك

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٨ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى ص ١٦٦ دار إحياء العلوم .

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٢ / ٢٩٢ دار إحياء التراث العلمى ، بيروت لبنان .

(٤) قصر سعد بالعقيق يبعد عن المسجد النبوى قرابة خمسة أكيال .

فى سنة خمسة وخمسين ، وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة »[١] ، وكان من المبشرين بالجنة رضى الله عنه .

٥ — طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، يكنى أبا محمد ، وأمه الصعبة بنت عبد الله بن عماد الحضرمى وأمها عاتكة بنت وهب بن قصى بن كلاب ، أسلم على يدى الصديق رضى الله عنهما .

يعرف بطلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الجود .

يقول رضى الله عنه : سمانى رسول الله ﷺ يوم أحد ، طلحة الخير ويوم العسرة ، طلحة الفياض ويوم حنين ، طلحة الجود[٢] .

يقول ابن الأثير : لما أسلم هو وأبو بكر أخذهما نوفل بن خويلد فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم ، وكان نوفل أشد قريش ، فلذلك كان أبو بكر وطلحة يسميان القرينان ، وقيل : إن الذى قرنهما عثمان بن عبيد الله أخو طلحة فشدهما فيمنعهما عن الصلاة وعن دينهما .

وطلحة رضى الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، شهد جميع المشاهد إلا بدراً وبايع بيعة الرضوان فى السنة السادسة من الهجرة .

أبلى يوم أحد بلاءاً حسناً ووقى رسول الله ﷺ بنفسه واتقى عنه النبل بيده حتى شلت إصبعه وضرب ضربة على رأسه .

قتل فى موقعة الجمل يوم الخميس العاشر من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ / ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٣ / ٥٩ .

وكان يوم قتل ابن أربع وستين سنة رضى الله عنه وارضاه[١] .

أما بقية السابقين إلى الإسلام والذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بهذا النور ، فآمنوا برسوله ﷺ ، فمنهم :

صهيب بن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل بن عامر بن جندلة بن خزيمة بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس مناة بن النمر بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسعد بن ربيعة بن نزار ، كانت منازلهم بأرض المحصل أغارت عليهم الروم فسبت صهيباً وهو غلام صغير فنشأ صهيب بالروم ، ابتاعه أحد الرجال وقدم به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه فلما بعث ﷺ من الله عليه بالإسلام فأسلم .

وذكر ابن سعد أن أهل صهيب وولده يقولون : بل هرب من الروم حين بلغ وعقل فقدم مكة فحالف عبد الله بن جدعان وأقام معه إلى أن هلك، قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، فقلت : ما تريد ؟ قال لى : ماتريد أنت ؟ فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه ، قال : وأنا أريد ذلك ، قال : فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا ثم خرجنا ونحن مستخفون فكان إسلام عمار وصهيب بعد بضعة وثلاثين رجلا[٢] .

وحين أراد الهجرة إلى المدينة قال له اهل مكة : أتيتنا ها هنا صعلوكا

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ / ٢٢٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج٣/٢٢٧ .

حقيراً ، فكثر مالك عندنا وبلغت ما بلغت ثم تنطلق بنفسك ومالك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن تركت مالى تخلون أنتم سبيلى ؟ قالوا : نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ النبى ﷺ فقال : ربح صهيب ربح صهيب (١) .

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، توفى رضى الله عنه فى شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة ودفن بالبقيع .

وممن أسلم فى مرحلة الدعوة السرية أيضاً : بلال بن رباح مولى أبى بكر الصديق رضى تعالى عنهما ، ويكنى بأبى عبد الله ، وكان من مولدى السراة واسم أمه حمامة، وكانت لبعض بنى جمح ، عذب كثيراً من قبل أمية بن خلف، وذكر ابن سعد أن جرير بن عبد الحميد ذكر عن منصور عن مجاهد أنه قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق ، وبلال ابن رباح ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار ، قال : فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهروهم فى الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ .

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ / ٢٢٨

الفصل الثالث

الجهر بدعوة أهل مكة

الفصل الثالث

الجهر بالدعوة فى مكة

بعد ثلاث سنوات من الدعوة سراً أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بأن يجهر بالدعوة، امتثل البشير النذير أمر ربه وبدأ يدعو الناس جهراً .

ذكر الطبرى فى تاريخه : « أن الله عز وجل أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادى الناس بأمره ، ويدعو إليه ، فقال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الآية[1] . وكان قبل ذلك فى السنين الثلاث من مبعثه إلى أن أمر بإظهار الدعاء إلى الله مستتراً مخفياً أمره ﷺ »[2] . ونستطيع أن نقول : بأن الجزء الأول من المرحلة الجهرية فى الدعوة أخذ أدواراً منظمة ؛ وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم وكعادته ، رأى بنظره الثاقب وفكره المستنير أنه لا بد من تنظيم محكم لمسار الدعوة فى هذه المرحلة ، خاصة وأن ساعد الدعوة قد اشتد

فى مرحلتها السرية بأولئك الأبطال المخلصين الصادقين الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبقائدهم ﷺ رسولا ـ أولئك الكرام الذين أتينا على ذكرهم فى المرحلة السرية .

---

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢/٣١٨ دار سويدان بيروت .

فكانت خطواته ﷺ منظمة ثابتة وفقاً لتوجيه رب العالمين سبحانه وتعالى له .

فما أن نزل الذكر الحكيم بقوله سبحانه : « وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم »[1] . إلا ورسول الهدى ﷺ قائم على وضع خطة محكمة لهذه المهمة الصعبة مستلهماً من آى الذكر الحكيم ومسترشداً بما فيه من توجيه ؛ ذلكم لأن تلك الآيات المحكمات كلام رب العالمين العالم وحده بما يصلح عباده ويأخذ بهم إلى مدارج العز والسؤدد ، فرسول الهدى عليه أفضل الصلاة والسلام يسير وفقاً لما ترسمه الآيات المحكمات من لدن عزيز حكيم ، فهى محفوظة بحفظ الحق تبارك وتعالى لها ، لا يأتيها الباطل ، منزهة عن النقص ، مذهلة لكل متبصر لما تتضمنه من حكمة بالغة وأسلوب واضح جلى يحدد فيه الحق تبارك وتعالى لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ مسار الدعوة ، فهو وحده العارف لما ينفع عباده فى أولاهم وأخراهم — وتلك السياسة الحكيمة التى انتهجها التوجيه الربانى فى رسم الطريق الواضح للدعوة لهذا الدين الجديد ، فيها تعليم لنبى الهدى عليه الصلاة والسلام ، وفيها أيضا إعداد له عليه الصلاة والسلام ليسير بطمأنينة فى طريق الدعوة الطويل الشاق المملوء بالعقبات التى لا يستطيع المضى من بين جنباتها إلا من هو فى مثل ما كان عليه سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، من صفات خلقية وخلقية يتجلى فيها الإعداد الربانى لمصطفاه ﷺ ، ذلك لأن إنذار عشيرته الأقربين أولا وتوجيههم وتخويفهم بطش الحق

---

(١) سورة الشعراء : ٢١٤ — ٢١٧ .

سبحانه وتعالى وبأسه الشديد ونقمته ممن لا يستجيب لداعى الهدى والحق والإيمان ، بترك عبادة الأصنام والتخلص من أدران الوثنية وخلع الأنداد والشركاء والتوجه بجميع أنواع العبادة لمستحقها الأوحد سبحانه وتعالى ، الذى خلق فقدر ، والذى بيده مقاليد كل شىء وإليه الأمر كله ، فى ذلك الإنذار تحذير للطامعين من الأبعدين ـ أى من غير عشيرته الأقربين ـ فإنهم عندما يلحظون رسول الله ﷺ بدأ أولا بإنذار أقرب الناس إليه يكون ذلك أدعى لغيرهم أن لا يطمعوا فى مهادنة منه ﷺ تجاههم فضلا عن المداهنة ، مما يقوى انطلاقة الدعوة الجديدة ، ويوضح للجميع إصرار صاحبها على المضى فى الطريق إلى الأمام بكل عزيمة وثبات .

كما أن دخول الأقربين فى الإسلام وإيمانهم بالدين الحق فيه دعم للدعوة والداعى وقوة ترهب العدو خاصة وأن النظام القبلى فى ذلك المجتمع كان يعتمد كثيراً على الحمية والوقوف مع القبيلة فى السراء والضراء ، فعندما ترى القبائل الأخرى بأن صاحب الدعوة بدأ بإنذار عشيرته وتخويفها وتبرأ من أعمالها وعدم استجابتها لداعى الحق والإيمان والهداية والنور ـ عندما ترى القبائل ذلك تحسب لهذا الأمر حساباً وتوقن بأن الأمر جد مهم ، وأن صاحب الدعوة لن يتوانى فى سبيل نشر دعوته .

وذكر ابن سعد فى معرض حديثه عن علامات النبوة بعد نزول الوحى على رسول الله ﷺ فقال : أخبرنا على بن محمد عن يزيد بن عياض بن جعدبة الليثى عن نافع عن سالم عن على قال :

أمر رسول الله ﷺ خديجة وهو بمكة فاتخذت له طعاما ، ثم قال لعلى رضى الله عنه : ادع لى بنى عبد المطلب ، فدعا أربعين ، فقال لعلى : هلم

طعامك ، قال على : فأتيتهم بثريدة إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا ، ثم قال : اسقهم فسقيتهم بإناء هو رى أحدهم ، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا ، فقال أبو لهب : لقد سحركم محمد ، فتفرقوا ولم يدعهم فلبثوا أياما ، ثم صنع لهم مثله ، ثم أمرنى فجمعتهم فطعموا ، ثم قال لهم ﷺ : من يؤازرنى على ما أنا عليه ويجيبنى على أن يكون أخى وله الجنة ؟ ، فقلت : أنا يا رسول الله ، وإنى لأحدثهم سنا وأحمشهم ساقا ، وسكت القوم ، ثم قالوا : يا أبا طالب ، ألا ترى ابنك ؟ قال : دعوه فلن يألو ابن عمه خيرا[1] .

إن ما ذكر من رواية ابن سعد يؤكد أسلوب الخطوة خطوة الذى انتهجه صلى الله عليه وسلم فى مرحلة الدعوة الجهرية كما أراد الحق سبحانه وتعالى ورسم لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ أفاد الدعوة كثيراً ، ومكن الداعية عليه الصلاة والسلام من المضى قدما فى سبيل انتشال قومه من أوحال الوثنية وأدران الجاهلية العمياء .

كما أنه ﷺ اتخذ هذا الأسلوب فى بداية الجهر بالدعوة برا بذوى قرابته والذى نتج عنه ما أسلفنا أن تحرك فيهم دافع الحمية ـ حمية القربى ، سواء قربى النسب أو غير ذلك ، كقربى المصاهرة .

وأجد من اللازم أن نطوف حول معانى هذه الجمل الرائعة من آى الذكر الحكيم ، يقول الحق تبارك وتعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، يأمره الحق تبارك وتعالى أن يتلطف بأولئك الذين استجابوا

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ /١٨٧ دار صادر للطباعة والنشر ، لبنان .

للدعوة واتبعوه ﷺ ، وذلك تقوية للأخوة الإيمانية والقربى الروحية والتى اعتبرها الحق تبارك وتعالى الوثاق القوى بين المؤمنين ، ذلك لأن الذى جمعهم هو حبل الله المتين ، فتألفت القلوب وزالت الفوارق فأصبحوا بنعمة الله إخوانا كما قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة »[1] . فارتبطت قلوبهم بالدعوة وامتلأت صدورهم بحب صاحب الدعوة ﷺ حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فتدون دينهم ونبيهم بأرواحهم لتعلو كلمة الحق خفاقة عالية .

وفى قوله سبحانه وتعالى : « فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » ، أعجبنى إيضاح للشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون فى كتابه « محمد رسول الله » صلى الله عليه وسلم قوله : فى هذه الآية لطيفة بيانية من لطائف الأسلوب القرآنى ، فقد علقت البراءة فى الآية بعمل من عصى ، ولم تعلق بشخصه وذاته ، ولم تقل الآية فقل : إنى برىء منكم ؛ لأن ارتباط البراءة بالعمل دون ذوات العصاة وأشخاصهم لا يقطع أواصر القربى والبر بها فى الدنيا والعود إليها بالإحسان إليها فى الدنيا والدين إذا عادت إلى الإيمان والطاعة للرسول ، والإيمان هو الموجب للموالاة ، وفى ذلك تعزيز لمبدأ اجتماعى عظيم تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية فى الإسلام ؛ لأن ربط الموالاة والنصرة بالعمل دون الأشخاص والذوات يفتح باب الأمل أمام الشاردين من دعوة الإيمان والطاعة لله ورسوله »[2] .

وفى قوله سبحانه وتعالى : « وتوكل على العزيز الرحيم » ختاما لآيات

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

(٢) محمد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون جـ ٢/١٦٣ دار القلم دمشق .

عمر بن حفص بن غياث : حدثنا أبي : حدثنا الأعمش قال : حدثني عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت — وأنذر عشيرتك الأقربين — صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يابني فهر يا بني عدى ، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا — قال : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت « تبت يدا أبي لهب وتب » ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

وتأتى الخطوة الثانية فى هذه المرحلة من الدعوة الجهرية ، إنها مرحلة الجهر العام لكل من يصله صوت هذه الدعوة المباركة الميمونة حيث أنزل عليه سبحانه وتعالى قوله :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » إنا كفيناك المستهزئين[1] » فواجه رسول الله ﷺ جميع قومه ومن سكن مكة أو ورد إليها فى المواسم والأسواق — واجه الجميع بدعوته إلى توحيد الله سبحانه بالعبادة ونبذ عبادة الأصنام وكل ما يعبد من دون الله سبحانه وتعالى ، لأن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده جل علاه — لأنه هو الخالق المدبر المعبود .

إن أسلوب الجهر بالدعوة هذا والذى يمكن أن نطلق عليه عموم الجهر بالدعوة أسلوب فيه قوة ، إذ يقول له الحق تبارك وتعالى : « فاصدع » أى امضه كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

والصدع بهذا الدين لا يعنى تنفير الناس والشدة عليهم والخشونة والجلافة بل يعنى القوة والنفاذ بها إلى جميع طبقات المجتمع بحيث لا يثنيه عن الجهر بهذه الدعوة والمضى بها إلى الأمام شرك مشرك أو عناد معاند أو أذى مؤذ، كما أن الدعوة بالحسنى لا تعنى الاستخفاء وكتمان بعض جوانب هذه العقيدة السمحاء ، وإظهار جانب آخر لا ، إنما تعنى البيان الواضح الكامل للعقيدة جميعها .

يقول ابن هشام فى سيرته . قال ابن إسحاق : فلما بادأ رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه — فيما بلغنى — حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شىء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يرضيهم من شىء ، أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب وأبو سفيان بن حرب بن أمية والأسود بن المطلب وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة ، والعاص بن وائل ، فقالوا . يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من

خلافة فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قـــولا رفيقاً ، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه .

وعاد القوم إلى أبي طالب يذكرونه بأمرهم معه ويضيفون إلى ذلك لونا من الوعيد والتهديد حيث قالوا له . يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم تركوه وانصرفوا .

أخذ أبو طالب يقلب الأمر بعد هذا الموقف العظيم وكبر عليه فراق قومه ، وتبين له أنه لا طاقة له بمنازلتهم وهم جميعاً عليه مجتمعون متكالبون قدر ذلك كله ، لكن نفسه لم تطب بأن يسلم ابن أخيه الذى أحبه حباً عظيماً ورباه فى كنفه ، وحنا عليه حيث كان لا يطيق فراقه ، إلى هؤلاء الغاضبين الحاقدين ليبطشوا به .

يقول ابن هشام فى سيرته . « لما قالت قريش هذه المقالة ، قال أبو طالب لابن أخيه . يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى : كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، قال : فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء (يريد ظهر له رأى) أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . فقال رسول الله ﷺ . ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، قال ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال .

أقبل يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا[1] .

إن الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لم يبك خوفا لأنه موقن بأن الله ناصره ومؤيده . لكنه بكى رحمة وإشفاقا بالإنسانية المعذبة في الأرض ، وتتعدد محاولة القوم في إقصاء عمه ﷺ عن حمايته والدفاع عنه وخذلانه .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : « ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه . وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش (أي أشد وأقوى) وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني . أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبدا .

قال : فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي ، فاصنع ما بدا لك أو كما قال .

فحقب الأمر ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : ثم إن قريشا تذامروا [١] بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسول الله ﷺ منهم بعمه أبى طالب .

وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فدعاهم إلى ماهو عليه ،من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون »[٢] .

ولما رأت قريش عزم أبى طالب على ما ذكره لهم من وقوفه بجانب ابن أخيه ، عدلت إلى المداهنة والاستعتاب .

يقول ابن سعد فى طبقاته : بأن قريشاً طلبت من أبى طالب ليرسل إلى ابن أخيه ليعطوه النصف، فأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ فجاء عليه الصلاة والسلام ، فقال له عمه على مسمع من رهط قريش : هؤلاء عمومتك ، وأشراف قومك ، وقد أرادوا ينصفونك ، فقال رسول الله ﷺ : قولوا أسمع . قالوا : تدعنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك ، قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فاقبل منهم ، فقال رسول الله ﷺ : أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : إن هذه لكلمة مريحة . نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها ، قال : قولوا لا إله إلا الله . فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون :

---

(١) تذامروا : الذمر اللوم والحض معاً .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١/٢٨٦ ، ٢٨٧ .

اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ويقال : إن المتكلم بهذا عقبة ابن أبي معيط ، وقالوا : لا نعود إليه أبداً ، وما خير من أن يغتال محمد ، فلما كان مساء تلك الليلة فقد رسول الله ﷺ ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه ، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد ، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية ، يعني أبا جهل ، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل ، فقال الفتيان : نفعل ، فجاء زيد ابن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال : يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال : نعم كنت معه آنفاً ، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتي حتى أراه ، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون ، فأخبره الخبر ، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي أين كنت ؟ أكنت في خير ؟ قال : نعم ، قال : ادخل بيتك ، فدخل رسول الله ﷺ ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذه بيده فوقف به على أندية قريش ، ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون ، فقال : يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : فأخبرهم الخبر ، وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا ، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة ، فقال : والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفاني نحن وأنتم ، فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل »[1] .

ويتضح لنا من ذلك أن الدعوة التي كانت صيحتها من على الصفا والتي لم تذهب سدى قد شاع الحديث عنها في مكة وأخذ الناس يتحدثون عنها في مجالسهم وأنديتهم ، فأخذو يتساءلون عن هذا الدين الجديد الذي يدعو

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١/٢٠٢ ، ٢٠٣ .

إليه محمد ﷺ ، الأمر الذى جعل نفوسهم تتهيأ لهذا الأمر . يتضح لنا من ذلك أن الدعوة قد أخذت فى الشيوع والانتشار بين جنبات ذلك المجتمع الوثنى شيئاً فشيئاً بخطى ثابتة وقوية لتبدد سحب الظلام المطبقة على مكة المكرمة فى ذلك الزمان ، وليعم النور جميع الأرجاء بعد ما بدد ظلمات القلوب التى جعلت لله سبحانه وتعالى ندا وشريكا فى عبادته .

إن كفاح البشير النذير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فى سبيل نشر هذه الدعوة فيه الكثير والكثير من العبر والدروس لمن أراد أن يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، فرسول الهدى مع إيمانه العميق بأن الله ناصره ومؤيده ومعلى كلمته - لم يركن إلى الدعة أو يتسرب إليه الكسل والخمول ، بل أخذ يدعو ليل نهار لهذا الدين ، وزيادة على ذلك كان يتوق إلى أن تقوى شوكة هذه الدعوة ، وأن يجعل الله سبحانه وتعالى أحد صناديد قريش أحد رجالاتها الذائدين عن حياضها ، فها هو عليه الصلاة والسلام يتضرع لخالقه سبحانه وتعالى ويبتهل إليه أن يؤيد الإسلام بأحد رجالات مكة الأشداد .

ذكر ابن هشام فى قصة إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن خباب رضى الله عنه قال لعمر رضى الله عنه : والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣٧٠ .

استجاب الله لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ ونصر الإسلام بإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقصة إسلام الفاروق معروفة لا حاجة لنا فى سردها خوفا من الإطالة — ويمضى فى دعوته بخطى ثابتة وثقة غير مكترث بما يدسه القوم له ويضمرون من شر مستطير أو سفارة مخادعة كتلك التى قام بها عتبة بن ربيعة — يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال . حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء . ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخى ، إنك منا حيث علمت من السطة[1] فى العشيرة والمكان والنسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً[2]

---

(١) السطة : الشرف .

(٢) الرئى : ما يتراءى للإنسان من الجن .

تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع[1] على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد . قال : نعم . قال : فاسمع منى ، قال : أفعل ، فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون »[2] . ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : أنحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى منه فاصنعوا ما بدا لكم[3] .

---

(١) التابع : من يتبع من الجن .

(٢) سورة فصلت الآية ١ — ٥

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ .

انظروا إلى الأدب النبوى المحمدى ـ بالرغم من إيمانه ﷺ الأكيد بصدق ما جاءه من رب العالمين وإيمانه الأكيد فى نفس الوقت بباطل ما القوم عليه عاكفون ، لم يقاطعه فى حديثه ، بل تركه يقول ما عنده ، وهذا موقف عظيم فيه درس لهذه الأمة للدعاة منها فى الصبر والتحمل والأناة وسبر غور الأعداء لمعرفة مالديهم من مخططات للكيد للإسلام والمسلمين ، كما أن الآيات المحكمات فى سورة فصلت والتى تلاها البشير النذير على عتبة بن ربيعة تحتاج إلى أن نقف عندها بعض الشىء لنستلهم منها الدروس والعبر فى طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فما أحوجنا إلى ذلك خاصة وحالة المسلمين الحاضرة تبكى وتدمى قلب كل مؤمن غيور على دينه وأمته الإسلامية المجيدة ـ غير أننا نجد أن فى سرد الوقائع التى حدثت بين قريش وسيد العالمين ﷺ تكملة للجانب الذى ما زلنا نتحدث فيه .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : « اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه :

إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه

بداه ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم[1] ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال ﷺ

قالوا : يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماءً ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ،

---

(١) العنت : ما شق على الإنسان فعله .

فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول . أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول ، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم ، قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، قال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً — أو كما قال — فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ، قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ، قال : فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذ لم تقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، هى بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب - فقال له : يا محمد - عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوز فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك ماظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد فما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام رسول الله ﷺ يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو

جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه [١] مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله مارأيت مثل هامته ولا مثل قصرته [٢] ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى [٣] .

لقد كان ﷺ أمام هذه التحديات راسخ الإيمان موقناً بنصر الله سبحانه وتعالى وتأييده له ، إن سؤالات القوم له كانت عظيمة لكن إيمانه ﷺ برسالته كان أعظم وأعظم ، فهو مطمئن على تأييد من أرسله سبحانه وتعالى له ، لقد كانت تلك السؤالات تعجيزية حقا ، تحمل بين طياتها الغطرسة والعلو والكبر والغرور ، والمصطفى ﷺ ماض فى النهوض بدعوته وتبليغ رسالته بالرغم من أسفه على ما تمخض عنه اجتماعه بقومه وموقفهم المعاند الكفور من رسالته صلى الله عليه وسلم وتعنتهم الجهول فى لقائهم معهم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، مضى فى طريقه المبارك لا يبالى ما يلاقى وما لاقى من قومه ، لم يفتر عليه الصلاة والسلام لحظة ولم يتوان ولو فترة - بل سار ثابت الخطى - معتصما بملاذه جل وعلا صادعا بأمر ربه سبحانه وتعالى - لكن سؤالات القوم جعلته صلى الله عليه وسلم يتحرق شوقا إلى إجابات دامغة يلطم بها وجوه أولئك الحمقى المعاندين - وهو موقن بأن الله ناصره عليهم ومؤيده بروح من عنده .

---

(١) منتقع : متغير .

(٢) القصرة : أصل العنق .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ - ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ .

يقول ابن هشام : لما قال أبو جهل للقوم ما رأى ، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف فقال : يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم[1] ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم[2] ، وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً منى ؟ قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله .

---

(١) العقد : بفتح وسكون أو بضم ففتح على ان يكون جمع عقدة ، وهى التى يعقدها الساحر فى الخيط ينفخ فيها بشىء يقوله بلا ريق أو معه .

(٢) السجع : الكلام المقفى — لسان العرب جـ ٨ / ١٥٠ دار صادر بيروت.

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه ، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لهما : سلوهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي حتى قدما مكة على قريش ، فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن[1] فانصرفوا عنه .

---

(١) لم يستثن : يريد لم يقل : إن شاء الله .

فمكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف[1] أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الله : الفتية ، والرجل الطواف ، والروح »[2] .

وسوف نقف قليلا لنستطلع ما في هذا الحديث بين أحد كبار الوثنيين (النضر بن الحارث) وبين قريش : أحد كبار من نصبوا العداء لهذا الدين ومن جاء به من عند ربه سبحانه وتعالى يؤكد من جديد مكارم خلقه ﷺ وشهادة القوم على ذلك وبراءته مما ألصقوه به من جنون وسحر ، وهو بذلك كأنه يرد مزاعم الوليد بن المغيرة الذي قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر » ويسخر من قوله الذي أشار به إلى قومه ويؤكد مجدداً براءة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم مما رماه القوم به ، وفكر اللعين فيما كان يعتقده القاضية بالنسبة لهذا الدين — فكر في الاستعانة بأحبار اليهود ، وعرض الأمر على القوم ، فوافقوا ، وكان ومن معه الموفدان إلى المدينة لاستطلاع الأمر ، لكن الله خيب ظنهم وردهم على أعقابهم خاسرين — نصر دينه ، فأتت آيات سورة الكهف معلنة الحقيقة من رب الناس كلهم سبحانه وتعالى ، ليسقط سهم آخر من تلك التي وجهها القوم لمحمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

ويكون فى هذه الحادثة درس آخر من دروس التربية والتوجيه الربانى لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ .

وذلك أنه ﷺ لم يقدم المشيئة فى رده على القوم ، وكان أن تأخر الوحى بعض الشىء ، بالرغم من أن النبى الكريم لم يكن قاصداً ومتعمداً ذلك بل كان نسيانا منه ﷺ سببه ذلك الموقف الذى لم يكن عليه الصلاة والسلام يتوقعه ، خاصة وأن القوم قابعون على جهالتهم — لكنها المكيدة من أصحاب الكيد والدس والتخريب ، من الذين كان الأولى بهم أن يكونوا أول المصدقين المؤمنين بهذه الرسالة — نعم ، لقد كانت تلك الأسئلة التاريخية مفاجئة لرسول الله ﷺ ، فهو يعلم جيداً أن قومه ليس لهم علم بذلك مطلقاً ، لهذا كان وقعها عظيما عليه ﷺ ، الأمر الذى جعله ينسى ولم يقدم المشيئة ، فكان درساً للنبى ﷺ ليكون دائماً أبداً معتصما بمشيئة الحق تبارك وتعالى فى جميع شئونه وأحواله — وهذا الدرس العظيم من أعظم خصائص الدعوة إلى الله ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة . لكن الحق تبارك وتعالى لن يدع عبده ورسوله سيدنا محمدا ﷺ هكذا ، بل أنزل عليه الإجابات الوافيات الدامغات المفصلات لكل جزء من تلك الأسئلة الماكرة وكانت تلك الإجابات تأكيداً آخر لصدق هذه الرسالة وصدق صاحبها عليه الصلاة والسلام ، لكن القوم ضربوا مدى بعيداً فى العناد والتكبر ، فضوا فى جحودهم وكفرهم ، لكن من جانب آخر كانت تثبيتاً للمؤمنين وتحريكا لبعض القلوب للنظر فيما هم عليه من عبادة الأصنام والكفر بالواحد الديان سبحانه وتعالى .

وفى ثنايا هذه القصة يتبين لنا أسلوب رائع انتهجه النبى الكريم مع القوم

وهو أسلوب الاتصال الفردى المباشر ، مع أنه بإمكانه ﷺ أخذ جماعة من المسلمين كأبي بكر الصديق وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم رضى الله تعالى عنهم جميعاً ، لكن آثر أن يكون الاتصال بالقوم مباشرة ، خاصة وأنه كان تواقا لأن يدخلوا فى هذا الدين ويقبلوا بما جاء به ﷺ من خير وعزة لهم جميعاً ، كما نلحظ فى هذا الأسلوب اعتماد سيد العالمين على رب العالمين ـ إنه لأمر مذهل ـ القوم مجتمعون والعداوة قد بدت منهم ، وقد بعثوا فى أثره وهو يذهب إليهم ـ بلا حراسة ولا جنود ولا رصد للطريق أو استطلاع للوضع ـ هكذا ـ يذهب إليهم ﷺ بلا خوف أو وجل ـ ما ذلك إلا أوضح صور الاعتماد على الله سبحانه وتعالى والشجاعة الأكيدة .

إن هذا الموقف فيه الدروس والعبرة للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ، بأن يعتمدوا عليه سبحانه وتعالى ولا يخشوا أحداً أبداً ، لم يكن ﷺ يخشى أحداً ـ ما قريش وما العرب ؟ وما الدنيا بأسرها إزاء من يحمل رسالة الحق سبحانه الذى له ملك السموات والأرض . من هذا المفهوم كان ﷺ ينطلق ـ فهو مؤمن وموقن بنصر الله سبحانه وحفظه له ﷺ ، ألم يقل له ربه سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل عندما أمره بالجهر بالدعوة : « إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون »[1] الآية .

فكان ﷺ يخوض غمار تلك الشدائد والمحن معتمداً على ربه سبحانه وتعالى لا يكل ولا يمل ، ولا يهاب تلك الجموع الكافرة المحتشدة أمامه من قوى الشر وعبدة الأوثان ، فكان خائض هذا الغمار صوب هدفه العظيم وهو إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى بكل قوة وحزم .

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله ، لقد كنت رحمة مهداة

---

(١) سورة الحجر : ٩٥ ، ٩٦ .

من الرحمن الرحيم بجميع مخلوقاته ، وهكذا أخفق الإرهاب والإغراء فى إعاقة هذه الدعوة المباركة .

فبعد أن أتى موفدها إلى أحبار يهود بتلك السؤالات المحيرات ، وتنزلت الآيات المحكمات بالإجابة الدامغة ـ أدركت قريش أن ما تصير إليه من إيقاف عبد الله ورسوله عن دعوته بعيد المنال ، أخذت تصب جام غضبها على المؤمنين ، وتبذل كل شىء فى سبيل تعذيبهم وردهم عن دينهم ، وتنشر الإشاعات الكاذبة والأراجيف الخبيثة عن هذه الدعوة فى وفود القبائل العربية الوافدة إلى مكة فى المواسم وكانت قريش تظن أن تلك الإشاعات التى كانت تطلقها حول النبى ﷺ تعيق سير الرسالة . ومن هذه الإشاعات أن أبا لهب ومن كان معه كانوا يجلسون على طرقات القبائل ويقولون : بأنهم أعلم بمحمد ﷺ ، وأن ما يقوله من كلام إنما هو ناشىء عن مس جنون .

يقول سيد قطب فى ظلال القرآن : « وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى قومه من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم فى رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة ، إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذى يدفع مشركى قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم ، ولكن الحقد يعمى ويصم ، والفرد يقذف بالفرية دون تحرج ، رقائلها يعرف قبل كل أحد أنه كذاب أثيم ، ثم إن الذكر لا يقوله مجنون ولا يحمله مجنون »[1] .

وقد أوضح القرآن الكريم تلك الشائعات التى أطلقتها قريش على النبى

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٨ / ٢٢٠ ، ٢٤٣ .

صلى الله عليه وسلم فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فى سورة « ن » يقول الحق تبارك وتعالى ردا على افتراءات الوثنيين : « ن ، والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون »[١] .

ويقول سبحانه فى نهاية السورة أيضاً : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون »[٢] ، وهى الآية التى علق عليها سيد قطب كما ذكرنا سابقا .

ويقول سبحانه فى سورة المؤمنون : « أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون »[٣] .

وذكرنا فى معرض حديثنا عن مفاوضات قريش للرسول ﷺ ومساومتها له فى دعوته ما عرضت عليه من أنها تقوم بعلاجه إن كان به مس ويلتمسون له الدواء .

أما الشائعة الثانية التى أشاعتها الجاهلية الباغية المعاندة الغبية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى : الكذب ، مع علمهم الأكيد أنه أصدق الناس وأبرهم ، وقد سجل القرآن الكريم هذا فى آيات محكمات ، فى سورة يونس يقول أصدق القائلين سبحانه وتعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله »[٤] .

وفى سورة هود يقول سبحانه وتعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات »[٥] .

---

(١) سورة القلم : ١ - ٢ .
(٢) سورة القلم : ٥١ .
(٣) سورة المؤمنون : ٧٠ .
(٤) سورة يونس : ٣٨ .
(٥) سورة هود : ١٣ .

وقوله سبحانه وتعالى فى نفس السورة : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى »[١] .

وفى سورة الأنبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون »[٢] .

يقول الدكتور أحمد نوفل فى كتابه الإشاعة : ولا حظ تكرار « بل » ثلاث مرات ، وهى تشى بالبلبلة الفكرية والتردد والاضطراب الذى كان عليه المعسكر المعادى للرسول ﷺ ، فهم لا يدرون ما يقولون »[٣] .

ويقول سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن الكريم :

« حاروا كيف يصفون هذا القرآن ، وكيف يتقونه — فقالوا : إنه سحر ، وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها ، وقالوا : إنه شعر ، وقالو : إنه افتراه وزعم أنه وحى من عند الله ، ولم يثبتوا على صفة له ، ولا على رأى يرونه فيه ، لأنهم إنما يتحملون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل فى نفوسهم بشتى التعلات فلا يستطيعون فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء ، ومن تعليل إلى تعليل حائرين غير مستقرين »[٤] .

لم يقف القوم عند هذا الحد بل أشاعوا عليه ﷺ أن الذى يعلمه القرآن هو ذلك الأعجمى الحداد ، فهو بذلك ليس وحياً من عند الله سبحانه .

---

(١) سورة هود : ٣٥ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٥ .
(٣) الإشاعة ، أحمد نوفل ص ٢٤ .
(٤) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٥/ ٥١٨ .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النحل : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »[1] .

يقول ابن كثير فى حديثه عن هذه الآية الكريمة فى تفسيره :

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان ، لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم فى افترائهم ذلك : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى القرآن ، اى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل ، قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة ، غلام نصرانى يقال له : جبر عبد لبعض بنى الحضرمى فأنزل الله الآية »[2] .

وكان من إشاعات قريش ضد النبى ﷺ ما زعموا من أنه ساحر ، يفرق بين المرء وأهله وعشيرته ، فذكر القرآن الكريم هذه الفرية حيث يقول الحق تبارك وتعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ٦٣٦ مكتبة النهضة — القاهرة .

هذا ساحر كذاب »[١] .

وفى سورة يونس يقول سبحانه وتعالى : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الذين كفروا إن هذا لساحر مبين » الآية[٢] .

وفى سورة المدثر يقول الحق تبارك وتعالى : « ثم أدبر واستكبر » فقال إن هذا إلا سحر يؤثر »[٣] .

ولما فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فى مكة أياما معدودة ، أشاعوا بأن رب محمد ﷺ قلى محمداً حتى شق عليه ﷺ ، فجاءه الفرج من الله سبحانه وتعالى فى سورة الضحى فى قوله : « ما ودعك ربك وما قلى »[٤] .

سبحانك ربنا ما قدرناك حق قدرك — لقد جعل سبحانه وتعالى فى تلك الشائعات خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين فقد كان فيها إعلام ونشر لصوت هذا الدين ، حيث جعل من تدبيرهم للمسلمين وإفسادهم خيرا وإصلاحا فعادت وفود القبائل العربية إلى قبائلها وعشائرها ومعهم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه من الخير ومكارم الأخلاق وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

لقد كانت تلك الشائعات المغرضة منحاً فى ثنايا محن ، ذلك لأن قريشاً

---

(١) سورة ص الآية ٤ .
(٢) سورة يونس : ٢ .
(٣) سورة المدثر الآية ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة الضحى الآية ٣ .

أرادت الإساءة والعدوان على المسلمين ، وفى الحقيقة أنها قامت بدعاية للإسلام فكان نصراً من رب محمد ﷺ ورب الناس جميعاً جل جلاله ، انتشرت من خلاله الدعوة فوصلت إلى تلك المواطن العشائرية البعيدة من مكة وانتشر معه طغيان قريش وأذاهم للمسلمين ومقابله ذلك الأذى بالعفو والصفح الجميل من نبى الدعوة وأصحابه ، وبذلك أساءت قريش لنفسها من حيث أرادت الإحسان .

وبهذا تبدأ مرحلة جديدة فى الدعوة حيث تمكن عليه الصلاة والسلام من عرض نفسه ودعوته المباركة على الناس جميعاً فى منازلهم ويبلغهم رسالة ربهم سبحانه وتعالى فى مجتمعات مواسمهم وأسواقهم ، وكأنى ألحظ فى قوله سبحانه وتعالى فى سورة النجم لرسوله الكريم ﷺ عندما بلغ عناد وإعراض قريش حده توجيهاً للنبى الكريم لينطلق بالدعوة المباركة إلى مجالها الفسيح ، يقول تبارك وتعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا »(١) .

وبذلك بدأت مرحلة جديدة فى الدعوة فى مكة وهى مرحلة الاتصال بالوفود .

لقد كانت هذه المرحلة بالنسبة للدعوة منطلقاً إلى عالم جديد . إنه تلك المواطن حول مكة وبعيداً عنها ، فكان أسلوبه ﷺ فى هذه المرحلة يتمثل فى البداية فى إيضاح الحقائق للوفود العربية التى تأثرت بشائعات القرشيين المعاندين ، فخاطب صلى الله عليه وسلم عقولهم لتميز الخبيث من الطيب ، وفى الناس عقول لها وزن لما تسمع وترى — مما دعا جماعة من تلك الوفود أن

(١) سورة النجم الآية ٢٩ .

تحكم عقولها فى هذا الأمر غير عابئة بصيحات الوثنيين التى تعيب هذا الدين ، ومن أتى به وتلصق بهم ما ليس فيهم تشويهاً للدعوة وما جاءت به من الهدى والصلاح .

إذاً لابد من أن تسمع تلك الوفود من محمد صلى الله عليه وسلم كما سمعت من قريش ليكون الحكم ، وفعلا تم ذلك بتخطيط وسعى حثيث من الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

فعرض عليهم النور الذى أنزل عليه من رب العالمين ، فكانت النتيجة أن ظهر الحق وانتكست رايات الضلالة وإشاعات السوء . كيف لا يكون ذلك وهو هدى رب الناس كلهم .

ولعل فيما أورده محمد بن سعد فى طبقاته مثالا لتلك العقول النيرة الفاحصة التى تزن الأمور بميزان الحق والعدل والتى لا تأبه بصيحات الحاقدين وتشويه المشوهين وعناد المعاندين .

يقول ابن سعد : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أبى عون الدوسى وكان له حلف فى قريش قال : كان الطفيل بن عمرو الدوسى رجلا شريفاً شاعراً لبيباً كثير الضيافة ، فقدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وفرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، إنما نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه ، فلا تكلمه ولا تسمع منه ، قال الطفيل : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، فغدوت إلى المسجد

وقد حشوت أذنى كرسفاً ـ يعنى قطناً ـ فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله ، حتى كان يقال لى : ذو القطنتين .

قال : فغدوت يوما إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسناً فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ثم اتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت معه فقلت : يا محمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا للذى قالوا لى ، فوالله ما تركونى يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لأن لا أسمع قولك ، ثم إن الله أبى إلا أن يسمعنيه فسمعت قولا حسناً فاعرض على أمرك ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، وتلا عليه القرآن فقال : لا والله ما سمعت قولا قط أحسن من هذا ولا أمراً أعدل منه .

فأسلمت وشهدت شهادة الحق فقلت : يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه . فقال : اللهم اجعل له آية ، قال : فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور عينى مثل المصباح فقلت . اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوا أنها مثله وقعت فى وجهى لفراق دينهم ، فتحول النور فوقع فى رأس سوطى فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، فدخل بيته قال : فأتانى أبى فقلت له : إليك عنى يا أبتاه فلست منى ولست منك ، قال : ولم يابنى ؟ قلت : إنى أسلمت

واتبعت دين محمد ، قال : يا بنى دينى دينك ، قال : فقلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها : إليك عنى فلست منك ولست منى ، قالت : ولم بأبى أنت ؟ قلت فرق بينى وبينك الإسلام ، إنى أسلمت وتابعت دين محمد . قالت : فدينى دينك ، قلت . فاذهبى إلى حسنى ذى الشرى فتطهرى منه وكان ذو الشرى صنم دوس ، والحسنى حمى له يحمونه وبه وشل[1] من ماء يهبط من الجبل ، فقالت : بأبى أنت أتخاف على الصبية من ذى الشرى شيئاً ؟ قلت : لا ، أنا ضامن لما أصابك ، قال : فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت ، ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطأوا على ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقلت : يارسول الله قد غلبتنى دوس فادع الله عليهم فقال : اللهم اهد دوساً . قال : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرجت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوها حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم من قومى ، ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا رسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين وقلنا : يارسول الله اجعلنا ميمنتك واجعل شعارنا مبروراً ففعل ، فشعار الأزد كلها إلى اليوم مبرور .

قال الطفيل : ثم لم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله

(١) الوشل : ماء يخرج من بين الصخر قليلا قليلا — لسان العرب ج ١١ - ٧٢٥ .

عليه مكة فقلت : يارسول الله ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه ، فبعثه إليه فأحرقه ، وجعل الطفيل يقول وهو يوقد النار عليه وكان من خشب :

ياذا الكفين لست من عبادك ميلادنا أقدم من ميلادك
أنا حششت النار فى فؤادك

قال : فلما أحرقت ذا الكفين بان لمن بقى ممن تمسك به أنه ليس على شىء فأسلموا جميعاً ، ورجع الطفيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان معه بالمدينة حتى قبض ، فلما ارتدت العرب ، خرج مع المسلمين فجاهد حتى فرغوا من طليحة وأرض نجد كلها ، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنـــه عمرو بن الطفيل ، فقتل الطفيل بن عمرو باليمامة شهيداً »(١) .

هذه القصة تبين مدى عتو وعدوان قريش على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتبين أيضا ـ كما أسلفنا ـ كيف جعلهم الله سبحانه وتعالى ألسنة دعاية ونشر لهذه الدعوة ـ فرد الله سبحانه وتعالى بذلك كيدهم فى نحورهم ـ وأنا لهم جميعاً أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وهذا الرجل العاقل لم يقبل الخضوع والخنوع والذلة وهو صاحب الكلمة المسموعة فى قومه والمكانة العالية ، وعاقل من عقلاء العرب قاطبة ـ يعمل عقله فيما سمع من قريش وتحذيرهم إياه من أن يسمع من محمد ﷺ

(١) طبقات ابن سعد جـ ٤/٢٣٧ ـ ٢٤٠ .

أو يتحدث إليه خوفا من أن تبلغه وقومه دعوة الحق ـ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لعلمهم الأكيد بروعة البيان فى كلام رب العالمين وأثره العظيم فى القلوب والعقول ـ ونوره المبين .

لقد كان الطفيل بن عمرو حكيما ـ إلا أن هول ما سمع من قريش جعله يصم آذانه فترة من الوقت لكنه ثاب ورجع ـ فكان ما كتب الله سبحانه وتعالى له من السعادة والشهادة ، وما فتح على يديه من مواطن ـ فكان بركة على أهله وعشيرته ـ رحمك الله ياطفيل ـ وفى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء ، لقد كنت وقومك من حملة راية التوحيد وناشريها ، فكتب الله لك أعلى المراتب ولمن أنعم الله عليه بالإسلام من قومك الأخيار .

وكما سمع الطفيل بن عمرو قول الحق تبارك وتعالى فآمن به وصدق رسوله ﷺ ، سمعت قريش أيضاً قول الحق تبارك وتعالى ـ لكنها الغطرسة والغرور ، لقد ملأ الحسد قلوبهم فأعمى أبصارهم فهم لا يعقلون .

ولعل هذه القصة التى أوردها ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية دليل على ذلك .

قال : وعن الزهرى أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ،

قال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، فقال الأخنس : وأنا والذى حلفت به .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه[1] .

والقصة واضحة ، لا تحتاج إلى تعليق أو توضيح .

كل هذا العناد وذلك الحسد البغيض ، والأشم واقف شامخ صامد ، على ربه معتمد — لا تزعزعه تلك الإشاعات والأراجيف ، ولا يهزه ذلك العناد والحقد والجهل ، ولا يثنيه عن المضى فى دعوته المباركة ذلك الأذى وتلك المؤامرات التى تدبرها الوثنية له ولمن آمن بالدين الحق .

إنها الحكمة المحمدية ـ لقد انتهج ﷺ فى هذه المرحلة أسلوب الحكمة .

فلا تسرع ولا استعجال ولا غضب ، ولا حقد يكنه لأولئك المعاندين .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٦٢ الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ دار الكتب العلمية . بيروت .

فكان ذا عزيمة ماضية وصبر يحتمل الكثير والكثير . لقد لقى أنواعا من الأذى فصبر ، حتى غوغاء قريش وأراذل القوم تمادوا عليه ﷺ فآذوه وهم ما هم فيه من دنو المرتبة وضعف الحال .

ساموه سوء البلاء ، أغروا به سفهاءهم وأراذلهم فصبر ، وكان من هذا الصبر طاقة وقوة تدفع مسيرة الخير إلى الأمام وتمضى بها إلى آفاق أرحب هناك بعيداً عن مكة وقريش — لقد كان هذا الصبر طاقه هائلة ومدداً وزاداً للنبى الكريم فى هذه المرحلة الصعبة ـ كان فى أشد الشوق لرؤية مكة المكرمة مرتع صباه وقد رفرف فى سمائها علم لا إله إلا الله محمد رسول الله .

انظروا إلى هذا التصوير البـــديع فى الآيات الكريمة التاليات من سورة الفرقان .

يقول سبحانه وتعالى : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا ، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا »[1] .

وكان ذلك الصبر المحمدى الجميل يقض مضاجع الوثنيين ويضاعف من حقدهم وإيذائهم لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، ومع ازدياد الأذى نلحظ تمسكا أعظم وإيماناً راسخاً قويا من حزب الله سبحانه وتعالى .

هاكم عقبة بن أبى معيط واعتداءه على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وهو ساجد لربه سبحانه تعالى ، فلقد روى البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤١ — ٤٢ .

بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله[1] .

إنه صبر نادر وعزيمة فذة وقوة لا تلين ـ إنه الإيمان بالله سبحانه وتعالى ـ وأنه لا محالة معلن دينه ورافع كلمته ـ ورادكيد الكافرين في نحورهم .

هذه صورة من صور العدوان والطغيان الجاهلي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويروى لنا الإمام مسلم في صحيحه صورة أخرى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا[2] جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد نبي صلى الله عليه وسلم ووضعه بين كتفيه قال . فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها ، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال : «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال :

---

(١) فتح الباري جـ ٨ ص ١٦٨ مكتبة البابي الحلبي بمصر .

(٢) السلا : هي اللفافة التي يكون فيها الولد ، وفي الآدميات المشيمة .

« اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية ابن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، فوالذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر»(١) .

ويمضى السيد الجليل ثابت الخطى صابراً محتسباً ـ تواقا إلى أن يرى القوم وقد ثابوا إلى رشدهم وآمنوا بربهم الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، لكن أنى لتلك القلوب القاسية أن تلين ، وأنى لتلك العقول المتمرغة فى أوحال الوثنية أن تعود لرشدها وتؤمن برسالة ربها التى بعث بها أحد أبناء جلدتهم من عرفوا صدقه وأمانته ـ ليخرجهم من دياجير الظلام الحالك الذى ران على تلك القلوب ، فانحدرت إلى الهوة السحيقة بعيداً عن ما أراد الله لهذا الإنسان من عزة وكرامة وحياة طيبة كريمة يحيطها حفظ الله وعنايته ، فهى مرتبطة بخالقها سبحانه وتعالى ، لا تخضع إلا له سبحانه فهو المستحق وحده للخضوع والخشوع والعبادة .

حتى صحابته الأبرار كانوا أقوياء فى إيمانهم ، سعداء بما أنعم عليهم ربهم من نعمة التوحيد ، صادقين فى عهدهم لرسول ربهم بأن يفدوه بأرواحهم ـ هاهو ابن أم عبد يعلنها مدوية فى بطاح مكة آيات بينات من لدن حكيم حميد ، جاهراً بها أمام جحافل الكفر والطغيان غير مكترث بما سوف يناله من عذاب لقاء جهره بكلام رب العالمين أمام عباد رب العالمين .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : « كان أول من جهر بالقرآن بعد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، دار الفكر بيروت .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهموه ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعونى فإن الله سيمنعنى ، قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » رافعاً بها صوته « الرحمن » علم القرآن » قال : ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غـــداً ، قالوا : لا ، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون »[1] .

رضوان الله عليك يا ابن أم عبد ـ لقد نلت الجائزة الكبرى جزاء ماقمت به لرفعة الدين وإعلاء كلمة التوحيد ، لقد بشرك الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالجنة ـ انظروا معشر الدعاة إلى الله هذا الإيمان العظيم ـ « إن الله سيمنعنى » .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ البابى الحلبى .

إن هذا الموقف العظيم فيه من الدروس والعبر لكم يا معشر الدعاة إلى الله الكثير والكثير ـ وحسبنا هذه الكلمات الخالدة ، لأن المقام لا يتسع للاستطراد فى هذه الجوانب المضيئة من حياة أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يمضى هذا الموكب الإيمانى صادعا بأمر ربه ، لا يعوقه استهزاء المستهزئين أو أذى الكافرين الحاقدين من أهل مكة ، لقد كان لما يلحظه الصحابة على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم من قوة احتمال وصبر على ما يلقاه من المعاندين من طغاة قريش يثير فى نفوسهم مشاعر التصبر والرضا بما يلاقونه من الشدائد تأسياً برسولهم صلى الله عليه وسلم .

انظروا إلى الأسلوب النبوى التربوى الرائع الذى اتبعه سيد العالمين صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه عندما يرى بعض الضجر وعدم الاحتمال قد بدا على بعضهم ، كان صلى الله عليه وسلم يثير فى نفوسهم قوة اليقين والصبر بما يضربه لهم من أمثال ، وما يقص عليهم من قصص الذين كانوا قبلهم من الموحدين ، ويبشرهم بقرب الفرج والنصر والكرامة .

وكان يمر بآل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

وقد روى الإمام البخارى رحمه الله عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة ، وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة . فقلت : ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب

ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار[1] على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله »[2] .

يتضح لنا من هذا الموقف ، أنه لا بد للدعوة من رجال ، ولا بد لأولئك الرجال من تربية وتوجيه كما كان يفعل إمام المتقين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم مع أصحابه - الذين قدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، ومحاربة الكفر والكافرين .

لقد أفرد كتاب السيرة عنواناً بما لقى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى ، وجعل القرآن الكريم ينزل فى قريش بأحداثهم ، مبيناً من عاداه منهم ، حيث ذكر لنا بعضاً منهم بالاسم ، ومنهم من نزلت فيه الآيات الكريمة بشكل عام فيمن ذكرهم الحق تبارك وتعالى من الكفار المعاندين .

ومن الذين سمى لنا فى القرآن أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل ، فى قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد »[3] .

---

(١) المنشار بكسر الميم وسكون النحتانية ، بهمز وبغير همز ، تقول : وشرت الخشبة وأشرتها ، ويقال فيه بالنون ، وهو أشهر فى الاستعمال .

(٢) فتح البارى جـ ٨/١٦٥ ، ١٦٦ ، الحافظ بن حجر العسقلانى مطبعة الحلبى بالقاهرة .

(٣) سورة المسد من أولها إلى آخرها .

ومن الذين ذكرهم القرآن الكريم لنا فى آيات منزلات : أبو جهل وأبى بن خلف ، وعقبـــة بن أبى معيط ، والوليد بن المغيرة وغيرهم .

والذى يهمنا فى هذا المقام من بيان أنواع الأذى الذى لحق بالنبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من الفئة الكافرة للتأسى بهم ، وتحمل كل ما يلقاه الداعية فى طريقه من عقبات حتى النصر أو الشهادة كما كان أولئك الأخيار ، الذين قام الدين على أكتافهم ، وانتشر التوحيد بإخلاصهم لربهم ولنبيهم ، حتى عم أطراف المعمورة ، وأصبح الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

قرابة عقدين يأتى الأخيار الذين أخرجوا من ديارهم وأوطانهم ، وقد رفعوا راية التوحيد خفاقة عالية فى فتح مكة - وترتفع الآيات الكريمات بصوت خير الأصوات صلى الله عليه وسلم ، يقول الحق تبارك وتعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »(١) .

إن أسلوب الصبر الجميل الذى لزمه صلى الله عليه وسلم إزاء تلك الألوان المختلفة من السخرية والتعذيب ، وهو امتثال لأمر الحق تبارك وتعالى الذى ورد فى سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا »(٢) .

إن هذا الأسلوب سواء فى هذه الفترة المكية أو غيرها حتى انتقل إلى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨١ .

(٢) سورة المزمل الآية ١٠ .

الرفيق الأعلى، وتأسى الصحابة الكرام بسيدهم فى ذلك، أمثال : بلال بن رباح وآل عمار وخباب بن الأرت وغيرهم وغيرهم .

يدل على أقصى درجات الاحتمال ، وأعلى درجات الرجولة ، وأنقى ألوان الحب ، وأندر أنواع الوفاء الذى يمكن أن يوجد لدى أحد من بنى البشر

لقد كانوا رضوان الله عليهم شموعاً مضيئة ، فما أحرانا أن نقف على سيرتهم ونترسم خطاهم .

الهجرة إلى الحبشة

ونحن نتتبع دعوة الرحمة المهداة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، نقتبس من نور النبوة وإشعاعات الهداية والتسديد الإلهى لخير الخلق عليه الصلاة السلام فى معالجة ما يجد فى ساحة الفئة المؤمنة من تطورات وأحداث وتحرك الهادى البشير حيال تلك الأحداث والأساليب التى ينتهجها لفك الاختناق عن الدعوة، وإزالة العوائق التى تعترض مسيرتها المباركة - ولعل إيراد قول ابن إسحاق هذا إيضاح لذلك.

يقول ابن هشام: قال ابن إسحاق: «فلما رأى رسول الله ﷺ مايصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام»(١).

يتضح لنا من خلال النظرة الفاحصة لهذه المشورة النبوية والرأى المحمدى المبارك - أسلوب رائع وحكيم من رسول الله ﷺ مع أصحابه المؤمنين، يمكن أن نجمله فى النقاط التالية:

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣٤٤.

١ — تألمه مما يتعرض له أصحابه من عذاب وتنكيل ـ بل وإزهاق لأرواح بعض تلك العصبة المباركة .

٢ — حرصه الشديد على سلامة أصحابه حماة الدعوة والصادعين بها أمام تلك الطغمة الكافرة .

٣ — ثقته عليه الصلاة والسلام المتناهية فى أصحابه ، حيث إن البلاد التى سوف يذهبون إليها بلاد أهل كتاب ـ يدينون بالنصرانية .

٤ — فتح آفاق جديدة للدعوة خارج الجزيرة العربية الأمر الذى يجعل لها إعلاناً جيداً لدى قبائل العرب خارج مكة ، والسؤال عن هذه الدعوة لمعرفة كنهها وما تدعو إليه .

٥ — إيمان الرسول ﷺ المطلق بنصر الله لدينه وعباده المؤمنين ـ وهذا يتضح من إشارته ﷺ لأصحابه أن يذهبوا بعيداً إلى خارج الجزيرة العربية تاركين الأهل والعشيرة والموطن .

٦ — إعطاء الفئة المؤمنة فرصة للراحة واستعادة القوى مما لحق بهم من الكفار من أذى .

٧ — تحديد الجهة هذه بالذات ـ الحبشة ـ فيه تجميع للجهود لتستعد وتنظم الصفوف ـ لتنطلق إلى تحقيق غايتها بدلا من تفرق المسلمين فى أرض الله الواسعة هنا وهناك . فاختيار النبى ﷺ لأرض واحدة ليهاجر الأصحاب إليها كان له أثر إيجابى عظيم للدعوة وأتباعها .

٨ — فى هذه الخطوة النبوية المباركة دليل أكيد على أهمية التحرك فى الوقت المناسب ، خدمة للدعوة وحفاظاً على مستقبلها وصيانة لأرواح أتباعها

خاصة وأن قريشاً قد أطبقت على المسلمين بكل ما تملك من قوة ـ أملا فى الإجهاز على الدعوة بكاملها .

٩ ـ خروج هذه الفئة من مكة يثير عواطف ذويهم خاصة وأن الذين خرجوا فى الهجرة الأولى فيهم من هو من علية القوم أمثال : عثمان بن عفان وخالد بن سعيد ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وغيرهم رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فيحسون بفداحة ما قاموا به من تعذيب وتنكيل لهم .

١٠ ـ بيان لحقيقة العلاقة بين أنبياء الله سبحانه وتعالى ـ حيث أهل هذه البلاد من أتباع عيسى عليه السلام .

١١ ـ تأكيد للكفار وإثبات عملى لهم على صلابة وقوة المؤمنين فى إيمانهم ـ وحبهم الجم لدينهم وتماسكهم فيما بينهم وطاعتهم لرسولهم ﷺ ـ التابعة من تغلغل الإيمان فى قلوبهم وثباتهم على عقيدتهم ونحن فى صحبة السيد الجليل صلى الله عليه وسلم تشدنا هذه السيرة العطرة حتى لكأنه يبدو للقارىء أننا فى مجال بيان سيرته ﷺ .

لكننى أقول : بأن محاولة استنباط الأساليب المحمدية فى الدعوة تدعونى فى كثير من الأحيان لسرد موقف معين ، أو جانب من جوانب هذه السيرة النبوية المباركة ـ وذلك لأن فى كثير من تلك المواقف ما يغنى عن الشرح أو التعليق أو حتى الاستنباط ـ لهذا أحببت الإيضاح ونحن نتحدث عن الفترات الحاسمة والحرجة فى مسار الدعوة الإسلامية فى العهد المكى .

وصلت الجماعة المسلمة المباركة أرض الحبشة ـ وكان كما ذكر ﷺ لهم من حسن خلق النجاشى الذى قيضه الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين ، فكان خير معين لهم فى غربتهم عن أهليهم وذويهم ووطنهم .

وكما توقع ﷺ فقد أحكمت الفئة الباغية الكافرة قبضتها على النبي ﷺ وكشرت عن أنياب اللؤم والخسة والقطيعة .

المقاطعة :

محمد ﷺ فى منعة من عمه وذويه ، إذاً لا بد من خطة محكمة لتقويض هذه المنعة ، فكر القوم وتداولوا الرأى، وتوصلوا بعد مشاورات ومداولات بين زعماء الكفر إلى ما لم يكن من قبل فى حياة ذلك المجتمع - إنها المقاطعة - بل والمعاهدة المؤكدة من الجميع على تلك المقاطعة وذلك الحصار الرهيب - لكن أنى لهم أن يبلغوا من تلك العزيمة الصادقة والقوة الإيمانية فى شخص رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، يقول أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة : « ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا ، حتى بلغ بالمسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، واجتمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل القوم ، جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً ، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك ، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلون من بنى هاشم أبداً صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشم فى شعبهم - يعنى ثلاث سنين - واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعاما يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروا إليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك ودم

رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

وكان أن سلط الله الأرضة على تلك الصحيفة الظالمة وخرج المؤمنون من ذلك الحصار الظالم ـ أفسد الله تلك الصحيفة بحكمته وتدبيره سبحانه وتعالى ، فكان لذلك التدبير أثره فى تفرق كلمة الكفر واختلافهم .

فعاد عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام إلى الحياة العامة وعادت الدعوة إلى سيرتها الأولى ، يحملها الهادى البشير إلى مجتمعات العرب فى أسواقهم ومواسمهم ، حيث كان صلى الله عليه وسلم ، يخرج إلى محافل العرب يسأل عن أشراف القوم وساداتهم ليدعوهم إلى الإسلام ويطلب منهم مساندته حتى يؤدى ويبلغ رسالته التى كلفه بها رب العالمين سبحانه وتعالى ـ لكنه صلى الله عليه وسلم لم يجد المجيب ، فكان منهم من يرد عليه أقبح الرد ، ومنهم من يقول له: قوم الرجل أعلم به .

لم ييأس الصادق الأمين ، بل مضى فى تبليغ رسالة ربه سبحانه، والبحث عن المؤيد والمناصر ـ حتى قيض الله سبحانه وتعالى له من استجاب وآوى ونصر .

عام الحزن :

وتمضى الأيام سريعة وتتتابع الشدائد على الهادى البشير ، ويحل عام الأحزان الذى فقد فيه عليه الصلاة والسلام أوفى الأفياء ، زوجته خديجة رضى الله عنها ، المبشرة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى جبريل النبى

---

(١) دلائل النبوة لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى جـ ٢ / ٣١١ ، ٣١٢ .

صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب »[1] . وكان موتها قد أحدث فى نفس الحبيب صلى الله عليه وسلم الكثير من الحزن والألم ، فلم تلبث بعد الخروج من الحصار الظالم إلا قليلا حتى لبت نداء ربها سبحانه وتعالى راضية مرضية ، مبشرة ـ كما أسلفنا ـ من زوجها العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالنعيم المقيم من رب العالمين فى الجنة .

وبرزأ الصادق الأمين بعد زوجته بفقد عمه أبى طالب ، الذى كفله بعد وفاة جده عبد المطلب واستمر فى رعايته ـ كما أوضحنا سابقاً ـ ودافع عنه دفاع الأبطال ـ كيف لا يدافع عنه وهو وحى أبيه فى كفالة ورعاية الحفيد الجليل صلى الله عليه وسلم وحمايته .

قال ابن إسحاق : « ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها ، وبهلك عمه أبو طالب وكان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب حتى قال : دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك .

---

(١) فتح البارى لابن حجر جـ ٨ / ١٣٨ ، ١٣٩ . شركة البابى الحلبى القاهرة .

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب »[1] .

ويتضح لنا أن منافذ الدعوة وتبليغ الرسالة قد سدت فى المجتمع المكى بعد أن فقد عليه الصلاة والسلام العم الحامى والزوجة الحنون ، فكان لابد أن يتحرك عليه الصلاة والسلام ويفكر فى طريقة ليسير بهذه الدعوة قدما إلى الأمام ، ويبلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى ، فأرض الله واسعة ، وهى منازل للدعوة ـ لأنه أرسل إلى الناس كافة ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ - ٥٧ ، ٥٨ .

الفصل الرابع

الانتقال بالدعوة إلى خارج حدود مكة

الفصل الرابع

الانتقال بالدعوة إلى خارج حدود مكة

لقد صبر عليه الصلاة والسلام كما قال له الحق سبحانه وتعالى « فاصبر صبراً جميلا »[1] ، فكان من نتائج هذا الصبر أن ازداد طغيان الوثنيين وإيذاؤهم للفئة المؤمنة بربها سبحانه وتعالى القالية للأصنام ومن عبدها .

ومع ازدياد ذلك العتو والعناد من قبل قريش كان فى المقابل ازدياد قوة المؤمنين وتمسكهم بعقيدتهم والتفافهم حول نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وحفز الهادى البشير إلى الخروج بهذه الدعوة المباركة خارج حدود مكة وأهلها ، حيث بدأ بعرض دعوته على القبائل القادمة إلى مكة فى المواسم التى كانت معروفة فى ذلك الوقت لدى القبائل العربية ، خاصة وأن فى مكة البيت الحرام حيث كانت مكة مركزاً دينيا وتجاريا عظيما فى ذلك الوقت .

وقد أمره الله سبحانه وتعالى أن ينذر أم القرى ومن حولها .

قال تبارك وتعالى فى سورة الأنعام : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه لتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون »[2] .

---

(١) سورة المعارج الآية ٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

فكان صلى الله عليه وسلم قد اشتد ساعده وقويت عزيمته وازداد تحركه بعد محنة الحصار الظالم وزاد اتصاله بالناس جميعا فى مكة أهلها ومن جاء إليها من حولها ، فكان يأتيهم فى مجتمعاتهم وأنديتهم وأماكن لقاءاتهم واحتفالاتهم يدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ـ يسمعهم آيات من القرآن الكريم .

بدأ صلى الله عليه وسلم تحركه بكل عزم ونشاط ـ فلم يكن يعلم بوصول سيد من سادات العرب ويعلم منزله إلا ذهب إليه ودعاه وقومه إلى الدين الحنيف ـ نشطت الدعوة وذاع صيتها بين قبائل العرب وأخذت فى الانتشار بكل قوة ، خاصة بعد أن وصل إلى مسامع تلك القبائل ماحدث بالصحيفة الظالمة ـ فذاع خبر هذه الصحيفة فى أسواق العرب ـ فتناقلتها الألسن ـ فكان فى ذلك كل الخير للمسلمين ، حيث كانت عاملا فى انتشار هذه الدعوة ووصولها إلى كثير من المواطن والمضارب العربية .

فكان منهم من كان يسمع النبي صلى الله عليه وسلم ويحسن الرد ويأخذ بما يسمع من نور وحق وهدى ، ومنهم من كان يستمع إلى النبي ﷺ ويسيء الرد ، وقسم ثالث كان يقف حائراً ماذا يفعل ؟ أيترك عبادة الآباء والأجداد ويتبع الدين الجديد ؟ أم يسفه ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ كان هذا القسم فى حيرة من أمره لا يخطو إلى ساحة الحق والفلاح ، ولا يقابل تلك الدعوة بالإساءة .

وكان من بين أولئك المدعوين من دب فى قلبه الطمع وظهر على محياه الزهو والافتخار ـ وذلك من عرض محمد صلى الله عليه وسلم نفسه عليهم ـ يطلب منهم النصرة والمنعة واعتناق الدين القويم ، فكانوا يعتقدون أن هذه فرصة ذهبية ليبرزوا مكانتهم وقوتهم التى دعت محمداً صلى الله عليه وسلم أن

يأتيهم ويدعوهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يبين لهم أن هذا الأمر كله من عند الله خالق الدنيا ومالك من فيها ـ وهو صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء ـ لأن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، فليس له إلا أن يبلغ .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق عن الزهرى : « أنه صلى الله عليه وسلم أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك (يقول وفى سائر الأصول تابعناك) على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، قال : فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش ، ثم أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . قال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يابنى عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذنابا[1] ها من مطلب ؟ والذى نفس فلان بيده ، ما تقولها إسماعيلى قط[2] ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟

---

(١) هذا مثل يضرب لما فات ، وأصله من « ذنابى الطائر » إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

(٢) أى ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بنى إسماعيل .

وهكذا كان الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم كلما اجتمع الناس فى الموسم أتاهم يعرض عليهم دعوة الإسلام وما نزل عليه من هدى ورحمة وذلك امتثالا لأمر ربه فى تبليغ الناس مانزل إليهم من ربهم سبحانه وتعالى .

وها هو سويد بن الصامت بن حوط وقد قدم مكة حاجا أو معتمراً - كما يقول ابن هشام فى سيرته : فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلة[1] لقمان - يعنى حكمة لقمان - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا لكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بعاث[2] .

يا لروعة الحديث هذا بين الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم وسيد الأوس - حيث يتجلى فيه الأسلوب المحمدى الحكيم فى الدعوة - حيث أخذ

---

(١) المجلة : الصحيفة .

(٢) يوم بعاث : موضع كان فيه حرب بين الأوس والخزرج - سيرة ابن هشام جـ ٢ - ٦٨ ، ٦٩ .

يتجاذب مع سويد أطراف الحديث بكل هدوء وأدب كما هو معروف عنه صلى الله عليه وسلم ، فهو صاحب الخلق العظيم ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه .

لم يغضب من الرجل عندما قال له : لعل الذى معك مثل ما معى ، لكنه صلى الله عليه وسلم أتاح له الفرصة ليتكلم وليبين ما عنده ، فلعله أحد الكتب المنزلة على أحد إخوانه من رسل رب العالمين عليهم الصلاة والسلام، ويبث الصادق الأمين الطمأنينة فى نفس محدثه ، ويأخذ منه ماعنده ، ثم يعرض عليه الذى نزل من حكيم حميد ويظهر لسويد صدق قول ابن عبد المطلب الذى حاولت الفئة الكافرة أن تمنع عنه الناس ، فيستحسن ما سمع من آى الذكر الحكيم ، وهو ما هو فى قومه من الشرف والنسب حتى كانوا يسمونه : الكامل .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :

وكان ذلك بهدف المضى بالدعوة إلى الأمام ونشرها بين سكان تلك الربوع لتبليغ رسالة الحق إلى الخلق .

لقد شددت قوى الكفر والطغيان على رسول الهدى ومن تبعه . وكان أن خلا الجو للمشركين بعد وفاة أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان القوة البشرية الواقفة بجانبه بعد عناية الحق تبارك وتعالى ورعايته له ، وهذه القوة كانت أيضاً من رحمة الله بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وبذلك العتو وتلك المضايقة المستمرة من عبدة الأوثان سدت الأبواب والمنافذ أمام الدعوة وتبليغ أمر الله فى مكة ، فكان عليه الصلاة والسلام

يفكر جيداً فيما آلت إليه الحالة من ضيق وأذى وطغيان واعتداء من أهل الكفر والأصنام.

فاستقر به الأمر إلى أن يغادر البلد الحرام متجهاً إلى بلدة ليست بعيدة عنه، إنها الطائف.

وذلك دأباً منه ﷺ فى تبليغ رسالة ربه سبحانه وتعالى إلى خلقه فى كل مكان ـ مكة أبت أن تستجيب، لا بل وقفت فى وجه كل من استجاب لدعوة الخير والهدى، ووقفت سداً منيعاً دون نشر هذه الدعوة المباركة، دعوة الخير والهدى والنور ـ لقد تعدى طغيانها وجبروتها ذلك كله إلى أن قررت الفتك بالنبى الكريم وقتله غدراً وظلماً وعدواناً ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره، ولماذا ذلك كله؟ لأن محمداً ﷺ يريد منهم أن يقولوا: ربنا الله وحده لا شريك له، ولا ند ولا ظهير.

يخرج عليه الصلاة والسلام من بلده الظالم أهلها باحثاً عن متنفس للدعوة ومؤيد لها.

يقول ابن هشام فى سيرته: قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب، فخرج رسول الله صلى الله عليه إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

قال ابن إسحاق: فحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى قال: لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف،

هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة ابن غيرة بن عوف بن ثقيف ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال أحدهم : هو يمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك . وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى ـ : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[2] ذلك عليه .

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يارسول الله ، لقد كنت حسن الظن بهم وأنت كذلك حسن الظن بالجميع لكن القوم خفروا الوفادة وتنكبوا الطريق ، وحادوا عما عرف عن العرب من حسن الضيافة وكرم الوفادة وإغاثة الملهوف ـ لقد أعمى الله أبصارهم ، فهم لا يفرقون بين الغث والسمين وبين النور والظلام ، فكانوا بذلك ألأم قوم فى العرب ، فأفشوا ما كان بينهم وبين الحبيب ﷺ وزادوا عليه أن طلبوا منه الخروج من الطائف ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فسخروا منه واستهزءوا به وقعدوا له فى الطريق يقذفونه بالحجارة ـ فداك أبى وأمى يا سيدى يارسول الله ـ لقد لقيت فى الله ما لقيت فهو حسبك ونعم الوكيل حتى انتشر النور المبين بين العالمين .

---

(١) يمرط : أن ينزعه ويرميه .

(٢) يذئرهم : يثيرهم عليه ويجرئهم .

قال ابن سيد الناس فى عيون الأثر : « أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، قال موسى بن عقبة : قعدوا له صفين على طريقه فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموا رجليه . زاد سليمان التيمى : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أذلقته[1] الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً ، فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل فى ظل حبلة[2] منه وهو مكروب موجع ، وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله .

قال : فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له : يأكل منه ، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال : باسم الله ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا لكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أى البلاد أنت وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا من أهل نينوى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، قال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبيا

---

(١) أذلقته : أى بلغت منه الجهد .

(٢) حبلة : شجرة العنب .

وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ، قال ياسيدى : ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى ، قالا : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه[1] .

انظروا إلى هذا التواضع الجم فى رسول الهدى صلى الله عليه وسلم فى حديثه مع عداس ، يقول البيهقى فى دلائل النبوة : « وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رسالة ربه »[2] .

قال ابن هشام : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيما ذكر لى : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة

---

(١) عيون الأثر فى فنون المغازى والسير لابن سيدالناس ، جـ ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ دار الفكر .

(٢) دلائل النبوة لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى جـ ٢ ص ٤١٦ دار الكتب العلمية بيروت .

إلا بك »[١] .

لقد هاله صلى الله عليه وسلم ما لقى من أهل الطائف من إيذاء وسخرية واعتداء ، فالتجأ إلى ربه الرحمن الرحيم الذى بيده مقاليد كل شىء وله الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ، يسأله اللطف به والعون والمساعدة — وهو كذلك عليه الصلاة والسلام دائم الالتجاء إلى خالقه سبحانه وتعالى ، شديد التعلق به جل وعلا والاعتماد عليه والاعتصام به ، أليس هو الذى أنزل عليه قوله تعالى :

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا »[٢] .

وهو الذى أنزل عليه : « ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ألم يجدك يتيما فأوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى »[٣] .

انصرف الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام من الطائف راجعاً إلى مكة المكرمة مرتع صباه وموطن آبائه وأجداده وهو محزون لعدم استجابة أهل الطائف لدعوة التوحيد ، يقول ابن سعد فى طبقاته : « لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة »[٤] .

ويقول الإمام ابن جرير الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك :

« ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦١ ، ٦٢

(٢) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٣) سورة الضحى الآيات ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨

(٤) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢١٢ .

مكة حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة ، قام من جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن الذين ذكر الله عز وجل ، قال محمد بن إسحاق : وهم فيما ذكر لى سبعة نفر من جن أهل نصيبين اليمن ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقص الله عز وجل خبرهم عليه : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن »(١) قال : ثم قدم رسول الله ﷺ مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه .

وذكر بعضهم : أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريداً مكة مر به بعض أهل مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنت مبلغ عنى رسالة أرسلك بها ؟ قال : نعم ، قال انت الأخنس ابن شريق ، فقل له : يقول لك محمد : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ قال : فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال الأخنس : إن الحليف لا يجير على الصريح ، قال : فأتى النبى ﷺ ، فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم ، قال : ائت سهيل ابن عمرو ، فقل له : إن محمداً يقول لك : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك ، قال : قال : إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب ، قال : فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره ، قال : تعود ؟ قال : نعم ، قال : ائت المطعم بن عدى فقل له : إن محمداً يقول لك : هل أنت مجيرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال : نعم ، فليدخل ، قال : فرجع الرجل إليه ، فأخبره ، وأصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه ، فدخلوا المسجد ، فلما رآه أبو جهل قال : أمجير أم متابع ؟ قال : بل مجير ، قال :

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .

فقال : قد أجرنا من أجرت ، فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها [١] .

وقد وقف البعض فى موضوع دخول النبي ﷺ فى جوار المطعم بن عدى وتحيروا فى فهم الحكمة من ذلك ، وقد غفلوا عن أن النبي ﷺ بشر من الناس ، فقد كان قبل نزول قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » [٢] يتخذ حرساً ، ثم صرف الحرس بعد نزول هذه الآية ، وكان عمه أبو طالب يدفع عنه وهو ليس على دينه وهو ﷺ أسوة لأصحابه رضوان الله عليهم جميعاً ، ولو لم يكن لهم أسوة لتعرضوا للفناء من قبل الكفار وتوقف مسار الدعوة إلى الدين الحنيف ، كما أن هذه المرحلة من الدعوة كانت مرحلة كفاح ، لم تكن مرحلة معجزات تقهر الناس على الإيمان ، والدليل على ذلك رفض النبي ﷺ طلب ملك الجبال أن يطبق عليهم الجبال ، رجاء أن يخرج الله من أصلاب أولئك الكفرة المعاندين من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

دخل الحبيب عليه الصلاة والسلام مكة فى جوار المطعم بن عدى وأخذ يدعو الناس إلى الدين الحق ، وقريش فى عنادها وجبروتها وإيذائها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفى مقدمتهم أبو جهل بن هشام والذى كان يهاب النبي ﷺ إذا رآه ، يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : « وقد كان عدو الله أبا جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدته عليه يذله الله له إذا رآه » [٣] . واستشهد ابن هشام بهذه الحادثة :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢/٣٤٧ ، ٣٤٨ دار سويدان بيروت .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢/٢٨ .

« قدم رجل من أراش [١] . قال ابن هشام : ويقال : أراشة [٢] بابل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله ﷺ فى ناحية المسجد جالس ، فقال : يامعشر قريش ، من رجل يؤدينى على أبى الحكم بن هشام ، فإنى رجل غريب ، ابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ، قال : فقال له أهل ذلك المجلس : أترى ذلك الرجل الجالس ـ لرسول الله ﷺ ، وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة ـ اذهب إليه فإنه يؤديك عليه ، فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول ﷺ فقال : يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه ، يأخذ لى حقى منه ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه يرحمك الله ، قال : انطلق إليه ، وقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع .

قال : وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى ، فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة [٣] ، قد امتقع لونه ، فقال : أعط هذا الرجل حقه ، قال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، قال : فدخل فخرج إليه بحقه ، فدفعه إليه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للأراشى : إلحق بشأنك ، فأقبل الأراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى .

---

(١) أراش : هو ابن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك .

(٢) أراشة : بطن من خثعم .

(٣) رائحة : بقية روح أى ما فى وجهه قطرة من دم .

قال : وجاء الرجل الذى بعثوا معه ، فقالوا : ويحك . ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه وما معه روحه ، فقال له : اعط هذا حقه ، قال : فعم ، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه ، فأعطاه إياه ، قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك . مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط . قال : ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته فملئت رعباً ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته [1] ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت لأكلنى [2] .

إنها منحة من الله سبحانه وتعالى لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ ودليل لكل ذى عقل على صدق رسالته وأنها من لدن حكيم حميد .

وتتوالى هذه الصور الإعجازية الرائعة ، التى وهبها الحق سبحانه وتعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ حيث يورد ابن هشام مصارعة ركانة بن يزيد ابن هاشم بن عبد المطلب للنبى ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو إسحاق بن يسار قال : كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم أشد قريش ، فخلا يوما برسول الله ﷺ فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله ﷺ : يا ركانة ، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟

قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) القصرة : أصل العنق .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢/٢٩ ، ٣٠ .

أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعك .

قال : فقام إليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً . ثم قال : عد يا محمد فعاد فصرعه ، فقال: يا محمد والله إن هذا للعجب ، أتصرعني . قال رسول الله ﷺ : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى . قال : ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى ، قال : ادعها ، فدعاها فأقبلت ، حتى وقفت بين يدى رسول الله ﷺ .

قال : فقال لها : ارجعى إلى مكانك ، قال : فرجعت إلى مكانها . قال : فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض ، فوالله ما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع »[1] .

ويمضى عليه الصلاة والسلام فى تبليغ أمر ربه سبحانه وتعالى بكل ثبات وإقدام ـ يقابل الوفود ويعلم أصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ويتابع السؤال عنهم ـ يواسى من وقع فى عذاب الفئة الباغية منهم ، ويصبرهم ويبشرهم بقرب الفرج من صاحب الفرج الواحد الأحد الفرد الصمد ، كما كان يقول ابن رباح رضى الله عنه : أحد ، أحد ، أحد والسياط تنزل عليه قوية موجعة ، محاولين بها أن يعيدوه إلى الظلام الذى هم عليه ، وهو صامد محتسب لا يبالى ما يلاقى فى سبيل الله ـ نعم ـ لقد رفعها بلال بن رباح عالية مدوية فى جناب مكة المكرمة ـ أحد ـ أحد ، وكانت الغلبة فى النهاية لهذا الدين العظيم .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٣١ .

ويمضى السيد الجليل فى طريقه الشاق غير مكترث بما تضعه قريش فى طريقه من عقبات ـ هو الآن فى حماية المطعم بن عدى ، ويأتى وفد من النصارى حين بلغهم خبره صلى الله عليه وسلم .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : « ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله ، وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه بما قال . ما نعلم ركباً أحمق منكم ، أو كما قالوا .

فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

ويقال : إن النفر من النصارى من أهل نجران »[1] .

وينزل الذكر الحكيم على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم موضحاً ذلك فى سورة القصص حيث يقول الحق تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، الذين

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٣٢ .

آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ۞ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ۞ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ۞ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »[1].

ويقف الأمين صامداً لكل أنواع العذاب الذى تقوم به أيدى الكفار الآثمة على أولئك المستضعفين من المؤمنين ، وما توجهه الفئة الباغية من السخرية والاستهزاء بشخصه الكريم ﷺ ، يجلس عليه الصلاة والسلام فى المسجد وحوله المستضعفون من أحبابه الكرام مثل : عمار بن ياسر وخباب وصهيب ، فعندما تلحظ العيون الكافرة هذه الفئة المستضعفة من الصحابة البررة ملتفة حول نبى الهدى ﷺ ، يهزءون بهم ، ويقول بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه .

وتتنزل الآيات البينات من لدن حكيم عليم على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مبينة بطلان ذلك الادعاء الآثم من الفئة الباغية والسخرية الحقيرة بأولئك الكرام ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، حيث يقول تبارك وتعالى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك

---

(١) سورة القصص الآيات من ٥١ - ٥٦ .

من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم »[1] .

ويروى لنا الإمام مسلم فى صحيحه حديثاً عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه حيث يقول : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ، « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »[2] .

نعم ـ لقد أخلصت تلك النفوس الطاهرة فى إيمانها وحبها لدينها ورسولها صلى الله عليه وسلم ، فكانوا عوناً للدعوة الصادقة بوقوفهم بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحمل أنواع العذاب والأذى حتى نمت الدعوة وأينعت ودنت قطوفها على المجتمع الجاهلى الكافر فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وكانت الغلبة لأولئك المستضعفين من رب العالمين ـ جزاء صبرهم واحتسابهم . وما أحوج الدعوة الإسلامية لمثل أولئك الرجال المخلصين المؤمنين حقا وصدقا .

وتتوالى الهجمات الشرسة والأباطيل الكاذبة من الفئة الباغية طعناً فى الدعوة الجديدة وصاحبها عليه الصلاة والسلام ، حيث تظهر

---

(١) سورة الأنعام الآيات من ٥١ ـ ٥٤ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥/١٨٧ ، ١٨٨ دار الفكر بيروت .

هذه المرة فى صورة أخرى ماؤها السخرية بالنبى الكريم والتقليل من شأنه وشأن دعوته — يقول ابن هشام فى سيرته :

« قال ابن إسحاق : « وكان العاص بن وائل السهمى — فيما بلغنى — إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لاعقب له ، لو مات لا نقطع ذكره واسترحتم منه »[1] .

وكان أن تنزل الذكر الحكيم بسورة الكوثر ، يقول الحق تبارك وتعـــالى : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر »[2] .

يقول سيد قطب فى الظلال : « هذه السورة خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسرى عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر ، ومن ثم فهى تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية ، صورة من الكيد والأذى للنبى صلى الله عليه وسلم — ودعوة الله التى يبشر بها »[3] .

ويقف الحبيب صلى الله عليه وسلم صامداً أمام هذا الكم الهائل من الكيد والأذى والسخرية والاستهزاء والتحدى من تلك الفئة الكافرة المعاندة ، لكنه عليه الصلاة والسلام كان موقناً من نصر الله له ولدينه مهما استهزأ المستهزئون ، وعاند المعاندون .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٣٤ .

(٢) سورة الكوثر الآيات ١ — ٣ .

(٣) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٦/٣٩٨٧ .

وها هم القوم فى تحد آخر لنبى الهدى ، وهو يدعوهم إلى الهدى والإسلام، يقول ابن هشام فى سيرته : قال ابن إسحاق : قال زمعة بن الأسود والنضر ابن الحارث والأسود بن عبد يغوث وأبى بن خلف والعاص بن وائل : « لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك » .

ويقول ابن هشام : « بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وبأبى جهـــل بن هشام فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك »[1] .

وتنزل الآيات البينات تحدث عن هاتين الحادثتين فى سورة الأنعام ، فيقول الحق تبارك وتعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه ما يلبسون » ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »[2] .

وفى خضم هذه الأمواج العاتية من الأذى والدس والكيد الموجه إلى الحبيب ﷺ وصحبه الكرام تأتيه نفحة من نفحات الرحمن سبحانه وتعالى تطميناً من الحق لسيد الخلق ﷺ ومواساة له ذلك لما حل به صلى الله عليه وسلم من كوارث متلاحقة — ها هو عمه أبو طالب وقد هلك ، وها هى الكريمة العفيفة التى بلغها جبريل سلام الرحمن ورحمته وبركاته ، السيدة الفاضلة الصادقة الأريبة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها وأرضاها ، تنتقل

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٣٦ .

(٢) سورة الأنعام الآيات من ٨ — ١٠ .

إلى جوار ربها ، وتحدث بذلك فراغاً كبيراً فى حياة الهادى البشير كانت تسده ، فى حدبها ووقوفها بجانبه وتسليه فى المصائب التى كانت تحل به صلى الله عليه وسلم من الفئة الكافرة .

وقبل ذلك الحصار العام الرهيب الذى ضربته قريش الكافرة على النبى وأصحابه وآله فى شعب أبى طالب ، وتلك الصحيفة الظالمة ، وهاهم ثقيف يخرجونه من بلدتهم ، لأنه بلغهم رسالات ربه ودعاهم إلى الهدى والفوز ، فى هذا الخضم الهائل من البلايا ، يأتى الفرج الربانى ، تأتى آية من آيات الإعجاز المبهر ، تأتى حفاوة الحق سبحانه وتعالى بخير الخلق عبده ورسوله سيدنا محمد ، وذلكم فى حادثة الإسراء والمعراج ...

الإسراء والمعراج :

هذه الآية العظيمة ، والمعجزة الحسية المادية ، كان فيها مواساة للنبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، تثبيت وتطمين له من لدن حكيم عليم ، بعد ما تجمعت عليه غمامات الآلام ، وتكاثفت سحب الصد والعناد لتعويق الدعوة عن سيرها إلى الأمام لتصل رسالة الحق لجميع الخلق وهى فى الوقت نفسه من آيات التشريف والتكريم لإمام المتقين وسيد المرسلين من رب العالمين سبحانه وتعالى — إضافة إلى الآية الكبرى التى نزلت بداياتها على النبى الكريم فى غار حراء ، حيث الأمين جبريل عليه السلام ، وقول الحق تبارك وتعالى : « إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرام * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم »[1] .

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ — ٥ .

وهى أيضاً دليل آخر من الأدلة الكثيرة والدامغة الدالة على صدق الرسول والرسالة ، وكانت هذه الآية بمثابة البلسم الشافى للجراح المحمدية التى لحقت به صلى الله عليه وسلم من عباد الأوثان أعداء الخير والحق ، لقد أصبحت مكة وسفهاؤها وطغاتها على أخبث ما يكون من غيظ حقود وعناد بغيض ، وتأتى هذه الآية العظيمة بالتأكيد على المضى فى الدعوة ، وامتحاناً لمن آمن بهذه الدعوة ـ يذكرنى هذا القول بموقف الصاحب فى الغار رضى الله تعالى عنه وأرضاه عندما ذكر له القوم ما أخبر به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، قال كلمته المشهورة ، كلمة الصدق والحق والعدل ـ نعم أصدقه بأبعد من ذلك كيف لا ؟ وأنا أصدقه بخبر السماء ـ رضى الله عنك ياصاحب سيد المرسلين ، وجزاك الله ما تستحق لقاء هذه المواقف المشرفة الخالدة التى أنارت الطريق للدعاة ، وعلمتهم كيف يكون الوفاء والصدق لله ولرسوله ولدينه .

وفى نفس الوقت نكص البعض الآخر من الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان ، فلم يصدقوا بهـــذه الآية الخالدة فكان أن سقطوا فى هذا الامتحان .

يتضح لنا بعد هذا الاستعراض للمرحلة المكية من الدعوة المحمدية ، بأن هذه المرحلة كانت شاقة وصعبة على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضى الله تعالى عنهم ، فقد كان فيها البلاء شديداً والمحن عظيمة والقسوة الوثنية على المسلمين لا تحتمل أبدا ـ لكن الله كان معهم ويبدو لى أن هذه المرحلة كانت بتلك القسوة والشدة ، لأنها مرحلة إعداد ـ نعم مرحلة إعداد وتربية وصبر واحتمال وكفاح ـ وهى منار لكل من أراد أن يسلك هذا الطريق ، طريق الدعوة إلى الله ونشر دينه بين الناس .

لقد كان كل يوم يمر على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيه من البلاء ما تنوء به العصبة أولو القوة ، وظلت هذه المرحلة على شدتها وقسوتها مدة ثلاثة عشر عاما لم يهدأ لهيبها أو تخمد نارها ، ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم ثابت الخطى قوى العزيمة ، صابر محتسب ومعه الصفوة المباركة من أصحابه البررة ـ لتصل هذه الدعوة إلى جميع الناس ، ويعم خيرها مختلف الأرجاء ، ويشع نورها ويسطع فى جميع الأطراف ، ليكون الناس عباداً لله إخواناً ـ فترتفع راية التوحيد ـ وتزول الوثنية إلى الأبد .

ويظهر لنا جليا من إصرار رسول الله صلى الله عليه وسلم على المضى أسلوب الاستمرارية الذى أقض مضجع الكفار ـ لأنه ﷺ مستمر فى لقاء رؤساء القبائل وأفرادها فى مواسم مكة المتعددة وأسواقها المعروفة التى كانت تقام فى الجاهلية ، فكان يسأل عنهم قبيلة قبيلة ويفتش عن منازلهم ليذهب إليهم يبلغهم رسالة ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويحذرهم من عبادة الأوثان ، ويدعوهم إلى العودة لخالقهم ونبذ ما سواه سبحانه وتعالى ، وبهذا انتشرت الرسالة المحمدية بين الخاصة والكافة بفضل استمراره ﷺ فى دعوته وثباته على ذلك ـ لا يثنيه عن البلاغ كيد كائد أو تآمر مبغض حاقد ، يعاضده ويسانده رجال صدقوا فى إيمانهم بهذا الدين الحنيف ، فكانت أعمالهم وأقوالهم وفقاً لما جاء به الهادى البشير ﷺ ، لا يكلون أو يملون من الدعوة إلى دينهم العظيم لإعلاء كلمة التوحيد .

وها هو ابن هشام يذكر لنا عرض الدعوة على القبائل الوافدة إلى مكة قال ابن إسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، قال : سمعت ربيعة بن عباد يحدثه أبى قال : إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوانى وتمنعونى حتى أبين عن الله مابعثنى به ، قال : وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان[1] عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال : فقلت لأبى : يا أبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

قال ابن إسحاق : حدثنا ابن شهاب الزهرى : أنه ﷺ أتى كندة فى منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له : مليح فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه وأتى كلباً فى منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم : بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله ، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ماعرض عليهم »[2] .

ويقول محمد بن سعد فى طبقاته : « دعا الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يواتى المواسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً

---

(١) الغديرة : الذؤابة من الشعر .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

ينصره ولا يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة ، وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب ، فيردون على رسول الله ﷺ ، أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول : اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا ، فكان من سمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نضر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة ، فلم يستجب منهم أحد »[1] .

كل هذا الكم الهائل من قبائل العرب الوافدة إلى مكة فى المواسم وقبلهم أهل الطائف ـ جميعهم أعرضوا وردوا ردا غير حسن ، ورسول الهدى ﷺ لم ييأس أو يخلد للراحة أو يتسرب إليه الملل أو الإحباط ، وهو مؤمن كامل الإيمان بأن مايدعو إليه هو الحق المبين وهو دين رب العالمين ، وبهذا الصمود وذلك الإصرار الفريد والإيمان المطلق منه ﷺ وجد من يحقق له مطلبه ويؤمن بما جاء به من غير أهل مكة ـ وجد ﷺ بغيته بعد ما مكث غير قليل يفتش عليها بين قبائل العرب ـ وذلك بعد أن أعلن الملأ من قريش الحرب والقطيعة على محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه ، ولا مجال أبداً لنصرة الدعوة من قبل المجتمع المكى . فجعل الحق تبارك وتعالى لعبده ، ورسوله سيدنا محمد

---

(١) الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد جـ ١ /٢١٦ ، ٢١٧ دار صادر للطباعة ، بيروت ١٣٨٠ هـ .

صلى الله عليه وسلم فرجا ومخرجا مما حل به ، فكانت مواكب الخير القادمة من المدينة (يثرب) وكان اللقاء المبارك المثمر الذى تحققت فيه الأمانى المحمدية بأن يكون لهذا الدين ناصر ومؤيد ـ ليتسنى له صلى الله عليه وسلم تبليغ دعوته للناس جميعاً ـ ويكون لذلك الناصر المؤيد الجنة ونعيمها ، وتكون كذلك لمن آمن وصدق واهتدى .

لم يبال ولم يكترث صلى الله عليه وسلم بتلك الأخطار المحدقة وتلك الأهوال المحيطة به ـ بل استمر فى دعوته قبائل العرب إلى الإسلام ـ ومناصرة الدين استمر فى دعوته بعد أن كذبه ذلك الكم الهائل من قبائل العرب والذى أتينا على ذكرهم قبل قليل ـ لقد فقد من كان يقف بوجه قريش عندما تريد به شراً أو تدبر له كيداً لكن ذلك لم يثنه أو يفت من عضده ، بل زاده إصراراً ونشاطاً وعزيمة وقوة ـ فها هو يتجول بين منازل القبائل فى مواسمهم ـ على الله أن يهديهم إلى الحق ـ لكنهم تمردوا وتمسكوا بلاتهم وعزاهم ، حتى قيض الله له صلى الله عليه وسلم من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

مواكب الخير اليثربية

هذه الطلائع المباركة مثلها مثل غيرها من أولئك الناس الذين يأتون إلى مكة فى مواسمها ، ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم يأتيهم فى مواقعهم بمكة يدعوهم إلى الإسلام .

إن هذه الطلائع تختلف عن غيرها تمام الاختلاف ؛ وذلك لأنهم صدقوا ولم يكذبوا وآمنوا ولم يعاندوا ، وناصروا ولم يخذلوا فكانوا بذلك أنصاراً . أنصاراً لدين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وسوف نورد خير اللقاء المبارك بين الهادى البشير صلى الله عليه وسلم ومواكب الخير اليثربية كما أورده أصحاب السير .

يقول ابن إسحاق : فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا هم أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب

أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله أنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوا بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا » .

قال ابن إسحاق : وهم فيما ذكر لى : ستة نفر من الخزرج هم : أسعد ابن زرارة ، ورافع بن مالك بن زريق ، وقطبة بن عامر بن حديدة بن سواد ، وعقبة بن عامر بن حرام ، وجابر بن عبد الله ، وعوف بن الحارث ، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ »[1] .

ذكر ذلك أيضا محمد بن سعد فى طبقاته[2] .

لقد كان لقاء مباركا حقا ، قيض الله سبحانه وتعالى فيه لرسوله

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢/٧٢ ، ٧٣ مصطفى البابى الحلبى بمصر .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١/٢١٩ .

صلى الله عليه وسلم هـذه الجماعة المباركة ـ لتعلو كلمة التوحيد ، ويستريح صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من أذى الكفار وتعذيبهم وسخريتهم واستهزائهم ، وبذلك يتمكن من تبليغ رسالته للناس جميعاً كما أراد الحق تبارك وتعالى ؛ لأنه ﷺ بعث للناس كافة ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1].

يتضح لنا من خلال هذه الرواية شجاعة الهادى البشير صلى الله عليه وسلم ، فمقابلة تلك الوفود والتحدث إليهم وبيان ما جاء من ربه ، وتبليغهم الرسالة ـ كل هذه الأمور ، ليست بالبسيرة أو السهلة ـ إنها مهمة صعبة لا يستطيع أن يقوم بها إلا هذا النبى الكريم ﷺ فهى تحتاج إلى شجاعة ورجولة ـ فكان صلى الله عليه وسلم كذلك ، يقابل الوفود ليبلغهم رسالة ربهم لا يخاف أو يتردد أو يخشى أحداً أبداً إلا الله سبحانه وتعالى .

إن ما قام به صلى الله عليه وسلم من ملاقاة اليثربيين وعرض ما جاءه من ربه عليهم وطلب العون منهم والتأييد والمؤازرة ، كل ذلك فيه دلالات أكيدة على شجاعته صلى الله عليه وسلم المنبثقة من إيمانه بما جاءه من ربه سبحانه وتعالى ، ولو لم يكن كذلك ـ لا يمكنه أن يقوم بذلك ؛ لأن مثل هذه المواقف تحتاج لرباطة جأش وعزيمة قوية مبعثها الشجاعة والرجولة فهو سيد الرجال وأشجع الرجال صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .

أن يقوم أى إنسان بعرض فكرة جديدة وإقناع الناس بها يحتاج إلى كثير من الجهد والعناء والمثابرة ، فكيف بمن يريد أن يغير معتقدات ويمحو إرث الآباء والأجداد ، ويساوى بين الفقير والغنى ، والعبد والحر ، والأبيض والأسود ، والعربى والعجمى ـ لا شك أن هذا غير ذاك ـ ولا غرابة فى أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ، فهو عبد الله ورسوله ، وصفوته من خلقه . وخاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم .

بيعتا العقبـــة

نخلص مما سبق ذكره ، وهو لقاء الرسول ﷺ قبائل العرب والذهاب إلى الطائف ، إنفاذاً لقوله تعالى : « ولتنذر أم القرى ومن حولها »[1] ، حيث قام بنذارة أهل مكة ومن حولها وامتد ذلك إلى أبعد من الطائف ، امتد إلى المدينة المنورة « يثرب » حيث اللقاء الميمون بالصفوة المباركة من المدنيين (اليثربيين) ، لقد كان لقاء النبي الكريم ﷺ بأبي الهيسر أنس ابن رافع ومن معه من الأوسيين منفذ من منافذ الدعوة الإسلامية إلى هذه البلدة المباركة ، والحديث الذى جرى بينه وبين إياس بن معاذ ـ أحدث الوفد سنا ـ كانت تلك اللقاءات بمن جاء من (يثرب) فاتحة خير للدعوة ، لتنطلق من مهدها فى مكة المكرمة إلى آفاق أرحب وأوسع ؛ ذلك لأن هذه الرسالة للناس كافة ، وحامل هذه الرسالة أرسل للناس كافة ، كما قال تعالى فى سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، وها هى الفرصة أمام الأمين ﷺ قد سنحت بعد جهود شاقة ومضنية ، ولقاءات صعبة ومتعددة ، كان نتاجها هذا التوفيق وذلك النصر والظفر ، حيث المخرج من تلك الغمة ، وذلك العذاب والعنت الذى تحمله الهادى البشير وصحبه الكرام من قريش وأحلاسها .

لقد باءت محاولات قريش الجادة فى حصر هذه الدعوة والتضييق عليها بالفشل الذريع ، لم تفلح محاولاتهم أثناء مالك الحبشة عن مساندة المهاجرين

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨ .

إلى بلاده من المسلمين وإيوائهم ، وتحذير القبائل الوافدة إلى مكة من محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذى جاء به كما يزعمون ، ولم تفلح كل وسائل التعذيب والتضييق على الدعوة ورجالها المؤمنين بها ، المصدقين برسولها صلى الله عليه وسلم ، ولم تفلح مخططاتهم ومحاولاتهم المتكررة وأد الدعوة فى مهدها ، وحجب نور الإسلام من أن يصل خارج حدود مكة ، ولقد أوردنا بعضاً من وسائلهم وطرقهم للحيلولة دون أن تصل دعوة الحق إلى مسامع الناس ، ولعل فى قصة الطفيل الذى أوردناها فيما سبق ، أكبر دليل على ذلك ، لكن القوم لم يعلموا بأن الله بالغ أمره سبحانه وتعالى، ورافع راية دينه وناصر رسوله ﷺ ، ومعل كلمته جل شأنه ، هذا مطلع الأخيار قادم ، وها هو فضل الله على هذا المجتمع المتنافر المتطاحن والممزق من الحروب المتتالية ، هذه الضروس المسماة بيوم بعاث وقد طحنت الشيوخ والشباب وتركت من خلفها الأرامل والأيتام ، والحقد والبغضاء ، وها هم قتلة الأنبياء - يترصدون لكل من الأوس والخزرج للقضاء عليهم والانفراد بهذه المدينة لوحدهم لا ينافسهم فيها أو عليها أحد ، وهذا صدى اللقاء الأوسى الخزرجى المحمدى يتردد بين جنبات يثرب ، فى مجالسها وفى أنديتها لا بل فى جل بيوتها ، وها هى أصداء التهديدات اليهودية للأوس والخزرج بقتلهم قتل عاد وإرم ، هذه الإرهاصات كلها تنذر بمقدم النور المبين ، الذى يبدد الظلمة الحالكة الجاثمة على هذا المجتمع اليثربى ، ويوقف ذلك الطغيان عند حده ، ويحفظ لإنسان هذا المجتمع كرامته ، ويصون له دمه وعرضه .

لم يكن محمد ﷺ الرابح من هذا اللقاء وحده ، لقد كان الرابح بحق

هو ذلك المجتمع المتداعى ، الذى لا يأمن فيـــه الفرد على نفسه أو ماله أو ولده .

ولقد كان حقا ما قالته الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما من أن يوم بعاث كان يوما قدمه الله لرسوله ﷺ ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد افترق ملؤهم وقتل سراتهم .

كيف يترك اليثربيون هذه الفرصة دون استغلال ، وهم يعلمون أن اليهود دائماً يتوعدونهم بمبعث هذا النبى الكريم ﷺ ، كيف يتركونها وقد حطمتهم الوثنية وأدمت قلوبهم الحروب المستعرة فيما بينهم ، وقذفت فى قلوبهم الرعب والهلع والاضطرابات النفسية المستعرة — كيف يتركون هذه الفرصة وقد انشرحت صدورهم بمجرد أن تشرفوا بلقاء البشير النذير صلى الله عليه وسلم ، حيث سرت إشعاعات الخير والهدى إلى قلوبهم ، وأحسوا وهم يتحدثون إلى خير البرية صلى الله عليه وسلم برد وسلام هذا الذى يدعوهم إليه ، وكيف لا يحسون بتلك الأحاسيس ويشعرون بتلك المشاعر الإيمانية العميقة وهم قاب قوسين أو أدنى من الذى ارتضاه الحق سبحانه وتعالى لجميع خلقه ، وختم به رسالاته إلى عباده .

وسوف نعجز بحق عن وصف الرحمة المهداة وتلطفه مع القوم وكريم خلقه وهو يدعوهم إلى ربه ، بالحكمة ، الحكمة التى وهبها له رب الخلق عز وجل ، ويوضح لهم أمر ربه سبحانه وتعالى ، ويتلو عليهم بعضاً من آياته البينات ومهما قلنا أو كتبنا ، فسوف نكون عاجزين عن وصف تلك اللحظة المباركة التى من الله بها على أهل هذه البلدة الحزينة المكلومة البائسة بذلك

اللقاء الميمون ، لقاء نبى الرحمة والمكرمة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فعادت بأعظم وأكرم هدية لأهلها وذويها .

لقد تملك الشوق أهل يثرب ، وتحرقت قلوبهم ، علهم يحظون برؤية النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، يسمعون منه كلام الله ويبايعونه على السمع والطاعة ؛ لأن حلاوة الإيمان حركت فى نفوسهم حب الاستزادة من معينه الصافى والتشرف برؤية الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم ، ودعوته إلى مدينتهم ، التى تبدلت بأحزانها أفراحا وبحروبها سلاما ، وبذلها العزة والكرامة .

لقد كانوا فى أشد ما يكون من توثب واستعداد للسفر إلى مكة حين يحين الموسم المعتاد كل عام والذى كانوا يذهبون فيه إلى البنية المباركة كما كانوا يسمونها ، وهى الكعبة المشرفة ، بيت الله العتيق .

قال ابن هشام : حتى إذا كان العام المقبل وأتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء »[1] .

وكان هؤلاء عشرة من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، عوف بن الحارث ، معاذ بن الحارث ، رافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة ، وذكوان بن عبد قيس ، عقبة بن عامر ، قطبة بن عامر .

واثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم مالك بن التيهان ، وعويم بن ساعدة .

---

(١) سيرة ابن هشام عبد الملك بن هشام جـ ٢/ ٧٣ .

ويقول عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض القتال ، على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر »[1] .

إن المتعمق فى هذه المبايعة وما اشتملت عليه من فقرات يجد فيها الشيء الكثير الذى يحتاج لدراسة مستفيضة وألمح بشكل جلى أحد الأساليب المحمدية فى الدعوة من خلال هذه المبايعة . انظر إلى هذه الفقرات القصيرة فى هذا العقد ، لا نشرك بالله ، لا نسرق لا نزنى . إلى آخره .

إن هذه النصوص العظيمة التى تضمنتها هذه المبايعة تظهر لكل ذى عقل بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم اتبع أسلوب البساطة فى القول والإيجاز الوافى من خلال هذه الفقرات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أظهر لهم أن هذا كله من عند الله سبحانه وتعالى المشرع لخلقه لعلمه بما يضرهم وما ينفعهم .

فحقيقة العبودية الحقة تقتضى أن لا يكون لرب الناس شريك أو ظهير أو معين أو وسيط أو مثيل لأن الأمر كله منه وإليه ، بيده سبحانه وتعالى

---

(١) التاريخ الإسلامى لمحمود شاكر ص ١٣٩ الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ المكتب الإسلامى . بيروت .

مقاليد الأمور كلها ، فما على العبد إلا التسليم والانقياد لخالقه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو وحده الذى يستحق ذلك ، وهو وحده فقط الذى يجب أن يعبد لأنه هو وحده الذى خلق وصور وأعطى ومنع .

بعد ذلك تأتى الجوانب ذات العلاقة بالعباد وحفظ حقوقهم ، فإذا ما قام أحدكم بما ذكرت لكم كان جزاؤه الجنة وإن لم يكن مخلصاً فى هذه المبايعة فالأمر إلى الله ، ليس لى ، إذاً لا بد وأن يكون ذلك حقا وصدقا ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ينسب لنفسه شيئاً من ذلك ، وهو فى الوقت نفسه يدعو الناس لرسالة ربه سبحانه وتعالى المتفرد بالجلال والكمال .

إن هذه الفقرات القصيرة — سهلة الفهم لوضوحها واشتمالها على حقائق يعرفونها جميعا ، والإنسان بفطرته يأبى الوقوع فى النقائص والرذائل والجرم ، وهذه المعانى كلها متوفرة فى السرقة والزنا والعدوان ، إذا ما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم هو الصدق والحق ، وما وافق الفطرة البشرية . فالحق سبحانه وتعالى خلق عباده حنفاء كما ورد فى الأثر ، فالرسول صلى الله عليه وسلم سلك مع البشر بين أسلوب الموعظة ؛ وذلك لأنه ذكرهم بفطرتهم التى فطرهم الحق سبحانه وتعالى عليها ، وطلب منهم الترفع والبعد عن كل ما هو ذميم ، لا يوافق الفطرة السليمة لهذا الإنسان الذى فضله خالقه على كثير من خلقه .

إننا ونحن نتابع هذه البعية المباركة نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهج أسلوباً آخر أيضاً من أساليب الدعوة المحمدية ، يمكن أن نطلق عليه أسلوب التثبيت والمؤازرة ، وذلك لأنه أرسل مع هذه الجماعة صاحبه رضى الله عنه مصعب بن عمير ليعلمهم أمور دينهم ، لم يتركهم عليه الصلاة والسلام

هكذا بل أرسل مصعباً ، وكان فى هذه الخطوة المباركة كل الخير لأن مصعباً أخذ ينشر دين الله فى يثرب ويدعو الناس إلى ترك عبادة الأوثان وتوحيد الديان سبحانه وتعالى .

وقصة مصعب بن عمير مع أسيد بن حضير وسعد بن معاذ معروفة ، حيث أراد الله لهما السعادة والفلاح فأسلما على يد مصعب بن عمير ، وذلك عندما كان مصعب بن عمير مع أسعد بن زرارة رضى الله عنهما فى أحد البساتين وأتاهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكان من نتائج هذا اللقاء أن أسلم بنو عبد الأشهل وهم بطن من الأوس تبعاً لسيدهم سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنهم جميعا .

ومن خلال متابعتنا للأوضاع الاجتماعية فى يثرب نجد أن العلاقة بين قبيلتى الأوس والخزرج كانت على غير ما يرام وربما يختلفان عند عودتهما إلى المدينة بعد البيعة الأولى ، لذلك بعث عليه الصلاة والسلام معهم مصعب ابن عمير ليعلمهم ويصلى بهم ويثبتهم على دينهم ويوضح لهم ما يتعلق بهذا الدين ، ولا ننسى أن اليهود لعنهم الله لن يقفوا مكتوفى الأيدى يتفرجون ، لأن ذلك لم يكن من عادتهم فلابد أن يعملوا على تشكيك المسلمين فى دينهم خاصة وأنهم يعلمون علم اليقين بأن محمداً ﷺ مرسل من رب العالمين ، وأن هذا الدين هو دين الله الذى ارتضاه لعباده ، وهو موجود عندهم فى كتبهم المنزلة . لذا فإن وجود مصعب بن عمير بين مسلمى المدينة كان فيه كل الخير للإسلام والمسلمين ، وهو دليل على بعد نظر عبد الله ورسوله ﷺ وحسن تدبيره للأمور . وقد أجمع كتاب السيرة النبوية بأن مصعباً أخذ يدعو

الناس إلى الإسلام حتى لم يبق بيت أو دار من دور (الأنصار) إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

وكأنى بمصعب بن عمير رضى الله عنه تمر على مخيلته مالاقاه سيد المرسلين ﷺ من قومه وما تعرض له من صدود وإعراض وهو يدعو قبائل العرب فى مواسمهم ، ويرجو نصرتهم ليبلغ رسالة ربه سبحانه ، فلا يجد من يجيب ، يتذكر مصعب بن عمير هذه المواقف وهو يعيش فرحة النصر والظفر بانتشار هذا الدين فى ربوع يثرب ، وكأنه يقول فى نفسه : لقد أصبح لك ياسيدى يارسول الله دار وأعوان يفدونك بأرواحهم وما يملكون ، فهلم إلينا لنسعد بقربك ، وننعم بالنظر إليك يا من بعثك رب العالمين رحمة للناس ومنقذاً ، كأنى بمصعب بن عمير يقول فى نفسه ذلك وهو يرى دور الأوس والخزرج وقد عمها نور الإسلام وارتفع بين جنباتها صوت الحق ـ الله أكبر الله أكبر ، فكان أن أبدل الله خوفهم أمناً ، وفرقتهم اجتماعاً ، وكرههم لبعضهم محبة ووئاماً ، وقتالهم لبعضهم أخوة وسلاماً . وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[1] .

ويذكر الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه (الإسلام ظهوره وانتشاره فى العالم) بأن رسول الله ﷺ أرسل مع مصعب بن عمير ، عبد الله بن أم

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

مكتوم ، ثم يقول : (ولعل ذلك ليكون أحدهما إماماً للأوس والآخر إماماً للخزرج ؛ لأن ما كان بينهما من عداء وتحاقد لم يكن قد زال) "(١)".

كأني بمصعب الخير يتذكر تردده خلسة على دار الأرقم بن أبي الأرقم ، المدرسة الأولى في الإسلام ، خوفاً من المشركين ومن أهله ، وكأني به وهو يغادر وطنه مجبراً إلى أرض الحبشة مهاجراً ، كأني به رضي الله تعالى عنه يسترجع تلك المواقف وهو يعيش فرحة الفتح المبين . فرحة أن جعل الله لهم هذه المدينة موطناً ومهاجراً ، فرحة الثقة النبوية المباركة فيه ، وبعثه معلماً مع النفر الذين بايعوا في العقبة الأولى ، كأني بك يا أبا زينب وأنت ترفع يديك الطاهرتين شكراً لله وحمداً على ما أنعم على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من دخول الإسلام هذه البلدة ، وجعل مهاجرهم إليها كأني بك (يا رسول رسول الله ﷺ) ، وأنت تنتقل بين جنبات هذه البلدة تدعو إلى الإسلام وعيناك الطاهرتان ترقب مجيء الهادي البشير ومشاعرك تتلهف إلى ذلك الحدث العظيم .

وتمضي الأيام والليالي والشهور ، وينقضي العام ، ويزداد شوق الحبيب إلى حبيبه ، وكيف لا يشتاق إليه القلب وقد كان الواحد منهم لا يقدر على فراقه أبداً ، فكيف بمن غاب عنه قرابة عام كامل ؟ إنه في شوق عارم إلى لقاء الحبيب ﷺ ، ليطلعه على ما تم في يثرب .

وكيف لا يطلعه . وقد أصبح أهلها لا هم لهم إلا ترديد ذكر الله

---

(١) الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم لحامد عبد القادر ص ١٦٦ ط ٢ مكتبة نهضة مصر .

سبحانه وتعالى ، وتلاوة القرآن الكريم ، وكلهم شوق وحنين للرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم ، فكلهم قد امتلأت قلوبهم بحب الإسلام ونبى الإسلام ، يبذلون أرواحهم فداء لهذا الدين ، وكيف لا يفدونه بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وقد أنعم الله عليهم به ، وأكرمهم باتباع رسوله ﷺ بأن هداهم لهذا الدين العظيم ، فأحسوا بهذه النعمة وهذا الخير الذى حل بدارهم ، وكأنى بمصعب الخير يقول فى نفسه : مهلا يا إخوتى الصابرين فى بطاح مكة الظالم أهلها ، فقد جعل الله لكم مخرجا من هذا العذاب الذى أنتم فيه ، وهذا البلاء الذى أحاط بكم سنين عديدة ، لقد أصبح لكم إخوة وأنصار فى هذه البلدة ، يتحرقون شوقا للقائكم وحمايتكم وإنقاذكم من هذا البلاء الذى أنتم فيه ، فلا شىء يمنعكم من المجىء إلى هنا ، فقد مهـــدت السبل ، وازدانت الطرق بنور الإيمان فى (يثرب) وأصبحت القلوب هنا وقد امتلأت شوقا إلى لقـاء الأحبة المضطهدين فى مكة ، تنادى بأعلى صوتها ، مرحباً بكم يا إخوتنا فى الله فى بلدتنا التى باركها الله ، وأنارها بنور الإسلام ، وكيف لا تكون هذه المشاعر صادقة وقد وحدها الإسلام ، وربط بينها برباط لا ينفصم أبدا ؟

كأنى بمصعب بن عمير يجد فى المسير صوب مكة ليقول للصادق الأمين وهو لا يزال فى بطاح مكة يبحث عن من يؤويه وينصره ليبلغ رسالة ربه ، مهلا يا سيدى يارسول الله ، فها هى يثرب بأسرها فى شوق إليك ، فلا عليك بمن لا يجيبك من قبائل العرب ، ولا يؤويك ، ولا ينصرك ، فلن تخـاف بعد اليوم ، وقد فتح الله لنـا يثرب وأصبح لنا فيها ركن شديد .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : (ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله) [1].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/٨١ .

الفتـــح المبين

أعنى بذلك البيعة الكبرى ـ العقبة الثانية ، باكورة الخير للدعوة الإسلامية ، حين اشتد البلاء ، وتبجحت الفئة الكافرة ، فلم ترع للرحم حقا ، ولا للقربى والأرومة [1] رحمة وعطفا ، فتفننت وبالغت فى إيذاء المسلمين ، وتعذيب المستضعفين منهم ، وهم صابرون محتسبون ، وبدينهم متمسكون .

فجاء الفرج من الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم على موعد مع إخوتهم المؤمنين فى يثرب ، ليلجأوا إليهم فارين من العذاب الأليم الذى لحق بهم لقاء أن قالوا : ربنا الله .

لقد كانت بيعة العقبة فتحاً ونصراً لأولئك المستضعفين ، وللدعوة الإسلامية ، فقد سدت الأبواب أمامها جميع الأبواب فى مكة ، ورسول الهدى كالطود الأشم ـ مستمر فى دعوته ، ومقابلة الناس فى مواسمهم ، ينادى بأعلى صوته : من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟ حتى أبلغ رسالة ربى ، لكن أنى لتلك القلوب الواجمة المتحجرة كالحجارة التى يصنعون منها آلهتهم أن تجيب ، وأنى لتلك الكبرياء وذلك العناد أن يذعن ويعود ، خاضعا لفالق الحب والنوى ، رب البيت العتيق ، الذى أنقذهم من ذلك الطوفان الرهيب الذى أحاط بهم ، فوقفوا مكتوفى الأيدى ، فاستولى على أموالهم وسلبهم كرامتهم ، حيث أرهبتهم فيلة أبرهة وجنوده واقتحموا حماهم ، وهاجموهم

---

(١) الأرومة : الأصل .

فى عقر دارهم ، وهم فى هذه المحنة وتلك الكارثة ، أجابهم عندما سألوه فصرف عنهم أبرهة وجنوده وأفياله التى جاء بها من اليمن ليهدم البيت ، فكان النصر ، حيث الطير الأبابيل ، وهذا هو ابن سيدهم عبد المطلب ، الذى التجأ إلى الكعبة المشرفة رافعاً يديه لخالقه ليفرج عن قومه ما حل بهم ، يعرفون حسبه ونسبه ويقرون بصدقه وأمانته ، لكن إنها لا تعمى الأبصار إنما تعمى القلوب التى فى الصدور .

لقد أسمعهم إياها أبو طالب عالية مدوية بارا بها قومه عندما قال لهم ناصحاً ومبينا أمر ابن أخيه ﷺ : (يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل وسعة فى الصدر ، واتركوا البغى والعقوق ، ففيهما هلكة القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، واعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً .

فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر فى الأطراف

والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قـــد محضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم ، كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ، ولدفعت عنه الدواهي)[1] .

لقد أسمعهم إياها أبو طالب لكنهم ظلوا في عنادهم وطغيانهم يعمهون ، فجاء من هناك من بعيد ، من يثرب من يقول له صلى ﷺ : نفديك بأموالنا وأولادنا وأرواحنا يا نبي الله ، فامض في دعوتك وعناية الله تحوطك وترعاك ، يا من أرسلك الله رحمة للعالمين .

يقول ابن هشام عن بيعة العقبة الثانية : « قال : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر

---

(١) الروض الأنف لعبد الرحمن السهيلي ج ٢/١٧١ دار المعرفة بيروت .

أمر ابن أخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ـ قال : وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ، خزرجها وأوسها ـ : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ، قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

قال : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة[1] ، ورثناها كابراً عن كابر . قال : فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله ﷺ ، أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ ، قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم[2] أنا منكم و أنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

---

(١) الحلقة : السلاح .

(٢) الهدم : أى ما هدمت من الدماء هدمته أنا .

ثم قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس»(١) .

ويحسن بنا أن نذكر أولئك الأبرار الإثنى عشر الذين اختارهم الأنصار ليمثلوهم ويكونوا كفلاء لهم .

قال ابن هشام : من الخزرج : أسعد بن زرارة بن عدس وسعد بن الربيع ابن عمر ، وعبد الله بن رواحه بن ثعلبة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء ابن معرور بن صخر ، وعبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة ، وعبادة ابن الصامت بن سعد بن على ، وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة ، والمنذر ابن عمرو بن خنيس .

ومن الأوس : أسيد بن حضير بن سماك ، وسعد بن خيثمة بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير(٢) .

يالها من بيعة مباركة رابحة .

نعم لقد ربحوا وفازوا برسول الله ﷺ إمام المتقين ورسول رب العالمين إلى الناس أجمعين ، لقد حلت فى ديارهم البركة والرحمة ، وحل السلام والوئام مذ عاد الرهط المبارك من مكة فى أول الأمر .

لقد بدد نور الإسلام ذلك الظلام الوثنى الذى جثم عليهم سنين كثيرة ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ / ٨٦ ، ٨٧ .

وكيف لا يكونوا رابحين وقد عاهدوا الله ورسوله أن ينصروا الدين ، ويبذلوا من أجل ذلك النفس والمال والولد ؟ رحمكم الله يا من رضيتم بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبايعتم على حرب كل من عاند وكفر وعادى الدين ، ولم يؤمن بما أنزل على نبي الهدى ﷺ .

يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : (وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ، أخو بنى سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال الجنة . قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده ﷺ فبايعوه)[1] .

نستنتج من هذه البيعة الأمور التالية :

أولا : إيمان الرسول ﷺ المطلق بما يدعو إليه واطمئنانه الأكيد من أن الله سبحانه وتعالى ناصره ومؤيده .

ثانياً : تلاوة القرآن الكريم من لدن رسول الله ﷺ فيها الكثير والكثير من الدروس لمن أراد أن يسلك سبيل الدعوة . وهذا الأسلوب فى الدعوة ـ

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ / ٨٨ ، ٨٩ .

إنما هو فى القمة منها ؛ وذلك لأن كلام رب العالمين فيه من الخير والبركة والتأثير الشىء الكثير والكثير ، فيه الحكمة ، وفيه الموعظة ، وفيه الإعجاز وفيه ما يبهر السامعين من روعة البيان ، ووضوح المعانى ، وصدق العبارة ، وترقيق القلوب ، وبث الطمأنينة فى النفوس ـ وكيف لا يكون فيه ما ذكرنا وفعجز أن نذكر أكثر من ذلك ، وهو كلام رب العالمين جل وعلا .

إن استفتاح النبى ﷺ كلامه بتلاوة القرآن الكريم يجعلنا نقف لنتبصر ونفكر فى هذا النهج المحمدى ، لنتزود منه فى سيرة الدعوة إلى الله فى عصرنا هذا وفى كل وقت ، إن هذا الأسلوب المحمدى ، يدخل فى نفس السامع الطمأنينة والسكون لما فى كلام رب العالمين من أسرار عظيمة ، فهو الجد ليس بالهزل ، فيه ذكر ما قبلهم وخبر ما بعدهم ، تطمئن النفس وتسكن عند سماعه والإصغاء إليه وتدبر معانيه .

وها هو مصعب بن عمير مع أسيد بن حضير الذى أتى إليه متوعداً وزاجراً ، يقول مصعب بن عمير لمن جاء والغضب قد تملكه: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فركز أسيد حربته واتكأ عليها ـ ماذا يفعل؟ يصغى إلى مايتلو مصعب بن عمير من القرآن العظيم وعلى أثر ذلك أسلم أسيد الصياعا لما سمع من الحق .

والدعاة فى رسولهم ﷺ أسوة حسنة وصدق الله العظيم ربنا الكريم حيث يقول : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين »[1] .

---

(١) سورة يس الآية ٦٩ ، ٧٠ .

كما أن استهلال المصطفى ﷺ حديثه لأهل البيعة بالقرآن العظيم ، دعوة فى حد ذاته ؛ وذلك لأن القرآن الكريم كان معجزاً فى نظر العرب فى ذلك الوقت ولا زال ، وسيظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ وذلك لأنهم لم يسمعوا بمثله من قبل ، ولم يستطيعوا مجاراته أو تقليده ، وهم الفصحاء وأهل اللغة ، والحاذقون فى فنونها وأساليبها المختلفة ، وهو كذلك إلى أن تقوم الساعة . إلا من أبى وعاند واستكبر وأعرض عن هذا الذكر العظيم .

ثالثاً : لم يسأل عليه الصلاة والسلام شيئاً لنفسه خاصة مما له علاقة بالدنيا وزخرفها - بل كان سؤاله فى الله ، ليبلغ رسالة ربه ، وكان هذا مما دفع القوم إلى الإيمان ، بأنه رسول من رب العالمين لا يطلب ملكا ولا رئاسة ، ولا مالا ، لذلك نراهم يبايعون على أرواحهم وأموالهم وأولادهم ؛ لأنهم لمسوا الصدق والإخلاص من رسول الهدى ﷺ فى دعوته لهم .

وهكذا يجب أن يكون الداعى إلى الله زاهداً فى الدنيا وملذاتها مقبلا على الله بكل جوارحه ، ليكون لدعوته قبول . فلم يقل ﷺ ملكونى أمركم ، وامنعونى لأكون رئيساً عليكم ، لم يقل ذلك ، بل قال : امنعونى لأبلغ الدين للناس كافة ، وهذا هو الأسلوب الحكيم ، الذى يعتمد على الصدق فى القول والإخلاص فى النية ؛ لأنه ﷺ ، كان يدعوهم لتوحيد الله فى العبادة وترك عبادة جميع ما كانوا يعبدون ، وهذا ما تميل إليه الفطر السليمة ، وهى التى فطر الله سبحانه وتعالى عباده عليها ، قال تعالى : (فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)[1] . وقوله تعالى : (وإذ أخذ ربك

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .

من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)[1] .

لقد كان هذا الأسلوب مؤثراً فى نفوس القوم أعظم تأثير ، فهم أمام رجل (ﷺ) لا يطلب لنفسه شيئاً أبداً ، أو لأصحابه أو أهل بيته ، بل ما يطلبه هو سعادتهم وصلاحهم ، وعودتهم إلى خالقهم سبحانه وتعالى ، بتوحيده وإخلاص العبادة له وحده جل وعلا - كما ذكرنا سابقا .

رابعاً : كما نستنتج من هذه البيعة أسلوباً آخر من أساليب النبى ﷺ فى الدعوة ، وهذا نستخلصه من قوله ﷺ : (بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربكم ، وأسالم من سالمتم) ويمكن أن نقول فى مقولة المصطفى ﷺ هذه : إنه الوفاء والتضحية ، وبذل الروح فى سبيل الدعوة رخيصة . إنها أسمى مراتب التواضع الإنسانى ، فها هو القرشى الهاشمى النسب ، والمصطفى من الخلق ، والرحمة المهداة يقول : « أنا منكم وأنتم منى » إنها أعلا وأعظم مراتب العهود والمواثيق التى عرفها بنو البشر على طول تاريخهم الحافل بالأحداث العظيمة ، والمواقف الجليلة .

ماذا بقى للأنصار بعد ذلك ؟ إنه منهم ، يألم لألمهم ، ويفرح لفرحهم ، لقد من الله سبحانه وتعالى عليهم بذلك الفضل العظيم ، وتلك المنحة النادرة ، فهو مالك الملك ، يعطى ويهب لمن يشاء من عباده ما شاء من نعمه وفضله وجوده وكرمه ، لا معقب لأمره ولا راد لحكمه ، سبحانه وتعالى ، إنهم يعرفون حسبه ونسبه ومكانته من العرب ، هو ابن عبد المطلب سيد مكة ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

القائم على بيت الله الحرام ، ياله من وفاء ، ويالها من مروءة ، قمة فى الشموخ والصدق ـ لم يكتف عليه الصلاة والسلام بأن ضمن لهم الجنة ، لقاء إيمانهم برسالته وتوحيدهم عبادة ربهم ، ونصرتهم له وهى أثمن ما يتوق إليه العبد ، وأغلى ما يتمناه ، لا بل هو منهم ومعهم فى السراء والضراء .

فالداعية إلى الله لا بد أن يكون كريماً وفياً مضحياً فى سبيل تبليغ رساله ربه بكل ما يملك ، بل بروحه التى بين جنبيه ، اقتداء برسول الله ﷺ ، فى موقفه مع الأنصار فى البيعة الكبرى .

وكل ذلك إنما هو تعليم لأمته ﷺ ليعلم الجميع ، وتعرف الدنيا بأسرها ، كيف يكون الفداء ، وكيف تكون التضحية فى سبيل الدين ونشره وتبليغه للناس أجمعين .

خامساً : فى هذه البيعة دلالة عظيمة للمسلمين بأنهم سوف يخطون بالدعوة خطوة جديدة ومرحلة مختلفة تماماً عن ما سبق ، وإن كانت عليه الدعوة ، إنها مرحلة القوة ـ حيث يقول الصادق الأمين : (إن تمنعونى) والمنع إنما يكون فى بعض مراحله بالقوة ـ الحرب ـ والدفاع عن الإسلام بالأرواح والأموال والأولاد .

سادساً : فى هذه البيعة أسلوب آخر من أساليب النبى عليه الصلاة والسلام فى الدعوة ـ ألا وهو الأخذ بالأسباب وذلك عندما واعد اليثربيين ، والذين أتوا مع المشركين من قومهم رأى عليه الصلاة والسلام أن يكون التجمع والانصراف فى غاية من السرية ، وهذا فيه خير للدعوة وقوة لها وصيانة من أن يعرف الأعداء مكتسبيها ، فيعملوا على إعاقتها والوقوف فى طريقها .

سابعاً : إن هذه البيعة توضح عظم المسئولية التى وقعت على أهل المدينة من جراء هذه الوثيقة ، وذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم ـ إنها معاداة العرب وحربهم . لقد كانوا رجالا أوفياء بما قطعوه على أنفسهم .

ثامناً : نأخذ من هذه البيعة الطاعة المطلقة التى ظهرت فى سلوك المبايعين لرسولهم الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وذلك عندما نبههم ﷺ إلى خطورة الوضع من أن تعلم قريش بما حدث، امتثلوا الأمر ، بالرغم من قدرتهم على القتال والنزال ، فعادوا لرحالهم كما أمرهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ملتزمين بالأمر الذى صدر من قائدهم ﷺ .

بالرغم من صدقهم فى مقولتهم : (والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا) .

ولماذا كل هذه الطاعة وذلك الانضباط من هذه الجماعة المبايعة ؟ إنه الإيمان الصادق الراسخ فى أعماقهم ، لقد بايعوا بأيديهم ، وصدقت على تلك البيعة جميع جوارحهم ، لقد عرفوا المعنى الصحيح لكلمة التوحيد الخالدة ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ إنها الطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

الفصل الخامس

في طريق الهجرة

الفصل الخامس

فى طريق الهجرة

يحسن بنا ونحن فى بداية الحديث عن هذا الفصل أن نقف قليلا عند كلمة (الهجرة) .

يقول صاحب لسان العرب[1] : الهجر : ضد الوصل ، هجره يهجره هجراً ، والاسم : الهجرة ، وفى الحديث : لا هجرة بعد ثلاث[2] ، يريد به الهجر ضد الوصل ، يعنى فيما يكون بين المسلمين من عتب وموجدة أو تقصير يقع فى حقوق العشرة والصحبة ، ومنه حديث أبى الدرداء رضى الله عنه : ولا يسمعون القرآن إلا هجرا[3] يريد الترك والإعراض عنه . والهجرة ـ بكسر الهاء ـ والهجرة ـ بضمها ـ : الخروج من أرض إلى أرض .

والمهاجرون : الذين ذهبوا مع النبى ﷺ ، وتهجر فلان أى تشبه بالمهاجرين ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هاجروا ولا تهجروا ، قال أبو عبيد : يقول أخلصوا الهجرة لله ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، فهذا هو التهجر ، وهو كقولك : فلان يتحلم وليس بحليم ، وينشجع أى أنه يظهر ذلك وليس فيه ، قال الأزهرى : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن . يقال : هاجر الرجل إذا فعل ذلك .

---

(١) لسان العرب جـ ٥ / ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) النووى على مسلم جـ ١٦ / ١١٨ دار الفكر بيروت لبنان .

(٣) لم أجد هذا اللفظ فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشأوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة .

والاسم منه : الهجرة . قال تعالى : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما[1] »[2] .

من ذلك يتضح لنا أن الهجرة المحمدية إلى المدينة المنورة ، انتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، والهجرة المباركة هذه كانت نقطة تحول فى تاريخ الدنيا بأسرها ، كانت نقطة تحول لأن أعداء الإسلام دبروا وهموا بتنفيذ الضربة القاضية لهذا الدين ، وذلك باتفاقهم جميعاً على قتل الرحمة المهداة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وفعلا تحوقلوا حول بيته للقيام بتنفيذ ما اتفقوا عليه ، لكن الأمين جبريل عليه السلام يأتيه ﷺ ويحذره من النوم فى بيته تلك الليلة ، ويخرج الصادق الأمين بتلك الطريقة الإعجازية تاركا حبه وابن عمه على بن أبى طالب فى فراشه ـ إنها الهجرة المباركة ـ ليعم النور مشارق الأرض ومغاربها ، ولتأخذ هذه الرسالة الإلهية الخالدة طريقها إلى تلك القلوب المتعطشة إلى الإيمان بخالقها سبحانه وتعالى ، ونبذ ماسواه هذه الرسالة العامة الشاملة ، الشافية ، المشرقة الفاتحة لأبواب السعادة الأبدية ، الموقظة لهذه الإنسانية من غفلتها ، ليتحرر هذا الإنسان مما لحقه من ذل ومهانة واحتقار وعبودية لغير المستحق لها سبحانه وتعالى ، عبودية الأصنام والأفلاك والنار .

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٠ .

(٢) لسان العرب ج ٥ / ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

لقد طال الأمد بهذه الإنسانية التائهة ، فكان هذا الفتح العظيم للرسالة الخاتمة المنقذة للإنسان ، العائدة به إلى خالقه سبحانه وتعالى ، لينعم بالأمن والسلام والخير والعطاء والحرية والكرامة التي أرادها الحق سبحانه وتعالى لبني الإنسان جميعاً .

لقد كانت هذه الهجرة فتحاً عظيماً ونصراً مبيناً للإسلام والمسلمين ، حيث لم يكن الهدف منها الفرار من التنكيل والتعذيب ولو أن ذلك التعذيب كان عاملا من العوامل الكثيرة التي جعلت البشير النذير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة رحمة بهم وشفقة عليهم مما هم فيه من النكال خاصة تلك الفئة المستضعفة ، أما شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلم تكن هجرته إلى المدينة فراراً أبداً ، بل فتحاً ونصراً لهذه الدعوة ، التي لم تتمكن من النمو في تلك البقعة بشكل كامل ، وذلك بسبب عناد الوثنيين وشراستهم ، فاختار لها الحق تبارك وتعالى بيئة مباركة فكانت المدينة المنورة الأرض المباركة التي اختارها الحق سبحانه وتعالى لأفضل الخلق ﷺ .

إن الحديث عن الهجرة المباركة طويل جداً ومتشعب جداً أيضاً ، لكن الذي يعنينا في هذا البحث ما يتعلق بجانب الدعوة وأسلوب الصادق الأمين الذي انتهجه في كل مرحلة من مراحل هذه الدعوة الإلهية المباركة .

فالرسول ﷺ أخذ بعضاً من الوقت يفكر في الهجرة بعد أن أصبح بملك كل البيوت في المدينة المنورة ، فالقلوب تخفق والعيون ترقب ذلك اليوم الوضيء الذي يطل فيه عليهم الرحمة المهداة ﷺ ، لكنه عليه الصلاة والسلام ينتظر الإذن من رب العالمين سبحانه وتعالى ، فها هو الصديق يريد الهجرة ، ويستأذن النبي ﷺ ، فيقول له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ويتهلل

وجه الصديق فرحا وإشراقاً وسروراً وهو الرجل الذكى الفطن ، ويتحقق الحلم الذى يراود نفس كل صحابى جليل ، وتكون إرادة الله سبحانه وتعالى ويصبح الصديق رفيقاً فى هذه الرحلة الإيمانية المباركة ، فداك أبى وأمى ياسيدى يارسول الله ، كأنى بك وأنت وصاحبك تنطلق إلى حيث العزة والمنعة بعد أن أبى القوم وأصروا واستكبروا وتآمروا على الإسلام ورسوله ﷺ كأنى بك ترقب من بعيد مراتع الصبا وموطن الآباء والأجداد ، ومواطن الطهر والقداسة حيث الكعبة المشرفة بيت الله الحرام ، لن يطول البعد بك عن هذه الأرض المباركة ، التى جثم علينا الطغيان والكفر أمداً بعيداً ، وكيف يطول البعد بمن بعثه الله رحمة للعالمين جميعاً ؟ كيف يطول البعد بمن أنقذ الله به تلك البطاح ومن فيها من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشرور والحروب إلى الخير والسلام ، من البغضاء والشحناء إلى المحبة والصفاء ؟ .

إن ترك الديار والأوطان يعز على كل إنسان ، لكن الأمر يسير إذا كان ذلك الترك فى سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة التوحيد .

والكل يعلم أن للفراق مرارة وغصة تفوق كل تصور ، وتعلو على كل وصف لكنها فى سبيل الله تكون حلوة المذاق ، لأن الدين عند المسلم أعز شىء فى حياته ، يضحى من أجله براحته وبأعز ما يملك ، وأعز ما يأنس إليه من أهل وولد ومال ، هكذا كان سيد المرسلين ، فبالرغم من أنه كان فى منعة من قومه وأهل بيته من أن يصيبه أى أذى من المشركين ، إلا أنه عزم على الهجرة إلى المدينة ، ليكون فى ذلك درس عظيم لأمته فى جميع فترات حياتها .

ولقد انتهج ﷺ فى هذه الرحلة أسلوباً رائعاً من بدايتها حتى أن وصل

إلى مهاجره فى المدينة المنورة ، وهو تعليم لأمته ﷺ وتربية لها حتى لا تضل الطريق ، وحتى تضع لكل خطوة تخطوها فى سبيل الدعوة ماينا سبها ، ويضمن لها النجاح والمضى إلى الأمام رافعة راية التوحيد الخالص .

ها هو البشير النذير ﷺ يرسم خطة محكمة لهذه الهجرة المباركة وتلك الرحلة الميمونة والمحفوفة بالمخاطر الجمة من بدايتها إلى نهايتها .

لقد اتبع ﷺ فى تنفيذ خطة الهجرة إلى المدينة السرية والحذر ، وسوف نورد حديث عائشة رضى الله تعالى عنها فى صحيح البخارى حيث قالت : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ماجاء به فى هذه الساعة إلا أمر ، قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى ﷺ لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحابة بأبى أنت يارسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين ، قال رسول الله ﷺ : بالثمن ، قالت عائشة : فجهزناهما أحسن الجهاز وصنعنا سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت فى الغار عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر

ابن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل[1] وهو لبن منحتهما ورضيفهما[2] حتى ينعق بها عامر ابن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى ، هاديا خريتا ، والخريت : الماهر بالهداية ، قد غمس حلفا فى آل العاص ابن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعد غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل[3] .

هذا ما أورده الإمام البخارى فى صحيحه فى باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، والذى نحن بصدده فى هذا البحث ـ كما ذكرت سابقا ـ الوقوف على أساليب النبى ﷺ فى الدعوة ، وكما هو معلوم لدى المشتغلين بالدعوة فى مختلف العصور ، أن للدعوة تكاليف كثيرة ، يجب على الدعاة القيام بها ، وتحمل المشاق والصعاب فى سبيل هذه الدعوة ، ولنا فى الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة .

وفى هذه الخطوة التى خطاها السيد الجليل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم نلحظ الأساليب التالية :

أولا : مواجهة الأحداث بما يناسبها ، وأعنى بذلك أنه ﷺ عندما وجد

---

(١) فى رسل : بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة : اللبن الطرى .

(٢) أى اللبن المرضوف ، أى التى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته .

(٣) فتح البارى جـ ٨ / ٢٣٥ - ٢٣٩ مطبعة الحلبى ١٣٧٨ هـ .

أن جميع المحاولات التى قام بها لدعوة أهل مكة إلى الإسلام قوبلت بالرفض والإعراض ، وتبين له عليه الصلاة والسلام إصرار القوم على عداوته ومحاربته طيلة العشر سنوات والتى تمثل عمر الدعوة الجهرية .

عقد العزم على أن يبحث عمن يؤازر الدعوة وينصرها ، وتم ذلك ـ كما ذكرنا ـ فى بيعتى العقبة الأولى والثانية ، حيث أمر ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة حيث المعين والنصير ، ومكث هو فى مكة حتى اللحظة الأخيرة ، ولم ييأس أو يركن للدعة والسكون ، بل كان شغله الشاغل عليه الصلاة والسلام المضى بالدعوة إلى الأمام ، فهو لم يدع أى فرصة إلا واستغلها فى الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى ، فهاهو عليه الصلاة والسلام يقابل القبائل ، يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام وإخلاص العبادة للخالق العظيم سبحانه وتعالى ، حتى حانت ساعة الصفر ـ كما يقولون ـ حيث قرر القوم القضاء عليه صلى الله عليه وسلم ، عندما اجتمعوا فى دار الندوة واتفقوا على قتله بالطريقة المعروفة فى كتب السيرة ، عندها واجه عليه الصلاة والسلام هذا الحدث العظيم بكل حكمة وتعقل كما هو معروف عنه ﷺ فى جميع شئونه ، فخرج من بيته منطلقاً إلى صاحبه الصديق ، وهذا كما هو واضح أسلوب حكيم ، إذ أنه ﷺ رأى بفكره الثاقب أنه لابد من الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر ، لأنه لا فائدة من البقاء فى مكة والحال كما هى عليه بل ازدادت سوءاً بالتآمر على قتله ﷺ والقضاء النهائى على الدعوة .

ثانياً : أسلوب التحرك فى الوقت المناسب ، وهذا يظهر لنا من خروج المصطفى ﷺ قبل أن يهجم الأعداء على بيته فى الساعة التى اتفقوا عليها ، إذ كان تحركه ﷺ فى وقت مناسب جداً للوضع الذى كان فيه ، إذ لو تأخر بعض الشىء لنفذ الأعداء خطتهم وهجموا على بيته صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : اتبع ﷺ فى هجرته إلى المدينة أسلوب التعمية ، ويظهر هذا الأسلوب فى تكليف الجندى الفدائى الذى يحبه الله ورسوله بأن ينام على فراشه ﷺ ويتسجى ببرده ، لإيهام الأعداء بأنه ما زال نائماً على فراشه متغطياً بغطائه الذى يتغطى به دائماً ، وفعلا حقق هذا الأسلوب نجاحاً عظيما وبقى القوم يرقبون ذلك المسجى حتى الساعة المحددة ليهجموا عليه ، ويتضح لهم بعد ذلك أنه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد خرج من البيت ، وبهذا سلمه الله من كيدهم ومكرهم وما دبروه له ﷺ ، وفى هذا درس وعبرة للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى وذلك للمحافظة على استمرارية الدعوة ، والمضى بها إلى الأمام وعدم إتاحة الفرصة لأعداء الدين للنيل من الدعوة وإعاقتها عن مسارها المرجو لها فى هداية الناس ، وبيان الطريق السوى لهم ، وحمايتهم من الضلال والكفر ، وإنقاذهم مما هم فيه من الشرك والغواية والبعد عن خالقهم جل وعلا المستحق وحده للعبادة والخضوع والخشوع .

وعلى معشر الدعاة أن يتأسوا بهاديهم ونبيهم ﷺ ، فهو ﷺ قد تحرك فى الوقت المناسب بكل تعقل واتزان بحيث لا يتمكن العدو منه ، ويصل إلى ما خطط له بدون ضجة ، لأن المقام يحتاج لمثل هذا التصرف .

رابعاً : اتبع ﷺ فى هذه الهجرة أسلوب اليقظة وعدم الغفلة عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، لأن الداعى يستمد العون من خالقه جل وعلا ، يسأله التوفيق والثبات والتأييد ، فالمصطفى ﷺ كان يتلو آيات من سورة يس عندما خرج من بيته كما ذكر ذلك ابن هشام فى سيرته عند ذكره خروج النبى ﷺ واستخلافه عليا رضى الله عنه على فراشه .

« قال : وخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم[1] ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : « يس والقرآن الحكيم » إنك لمن المرسلين » على صراط مستقيم » تنزيل العزيز الرحيم » . إلى قوله : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات »[2] .

إن تواجد الداعية فى ساحة الحق سبحانه وتعالى دائماً وأبداً يعطيه القوة والإقدام والشجاعة ، لأنه مستمسك بحبل الله المتين ، لا يغفل لحظة واحدة عن خالقه ، تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً و تجاء واعتصاما ودعاء ، لأنه بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه سبحانه وتعالى ، فها هو الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يخرج من بيته والعدو متربص به . وينصره الله سبحانه ويسلمه من أذاهم ومكرهم ، ثم هو وصاحبه فى الغار إذ يمر بهما هذا الموقف المفزع ، حيث لم يكن بينهما وبين العدو إلا أن يطأطىء أحد الأعداء بصره فيراهما . وأنى لهم ذلك ولب الحبيب متعلق بربه سبحانه وتعالى .

روى الإمام البخارى عن ثابت عن أنس ، عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرفعت رأسى فإذا بأقدام القوم ، فقلت : يانبى الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا ، قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما »[3] .

---

(١) ويعنى بذلك أبو جهل .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١٢٦/٢ ، ١٢٧ .

(٣) فتح البارى جـ ٢٦٠/٨ مطبعة البابى الحلبى .

الله أكبر إنها أعظم مراتب اليقين من سيد العالمين ﷺ ، لا عليك أيها الصديق ، لن يصلوا إليك ، وكيف يستطيعون ذلك ؟ ومعنا فالق الحب والنوى ، خالق كل شيء ومليكه ، هون عليك أيها الصديق ، لن يصلوا إليك أبداً ، وكان ذلك حقاً وصدقا .

ويصور الذكر الحكيم هذا الموقف بأبلغ عبارة وأجمل كلام وأصدقه حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة التوبة : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه و أيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »[1] .

خامساً : أسلوب البذل ، وذلك واضح فى عدم موافقته لأبى بكر بأن يتطوع بالراحلة ، وفى ذلك درس لأمته ، كى لا تبخل أو تتأخر عن البذل فى سبيل الله سبحانه وتعالى وإعلاء كلمته وكيف لا يبذل المال ، وقد بذل روحه فى سبيل هذه الرسالة ، فحفظه الحق تبارك وتعالى من كل سوء ومكروه ، فالمؤمن يجب عليه أن يبذل المال فى سبيل إعلاء كلمة الله والدعوة إليها ، والصبر على الأذى فيها ، لأن ما عند الله خير وأبقى .

سادساً : أسلوب الأخذ بالأسباب : وهذا واضح فى تطلع النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم إلى البحث عن مكان آخر لدعوته ، فهاهو عليه الصلاة والسلام يذهب إلى الطائف ، ثم يعود بعد أن وجد الصدود وعدم الرغبة فى النصرة من أهلها ، ويلتقى بالقبائل ، يبحث عن النصير فلم يجده إلا فى الرهط من أهل (يثرب) ثم هو بعد العدة ليلحق بأصحابه ، ويختار الرفيق فى الطريق ، ويكلف علياً رضى الله عنه لينام فى فراشه وتعيين

---

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .

الدليل الذى يوضح لهم الطريق ، بعد أن اختار وحدد المكان الآمن مؤقتاً وهو (غار ثور) كل ذلك أخذ بالأسباب ليكون فيه الدروس والعبر لأمته ﷺ ، فها هى الخطة المحكمة التى وضعها إمام المتقين وسيد المرسلين لهجرته وهذه عناصرها ، فالهدف واضح وهو التوجه إلى المدينة المنورة ، مهاجره ، والوصول إليها بأمان وسلام ، والرفيق والصاحب هو الصديق ، والتموين كان عن طريق بنت الصديق ، ذات النطاقين رضى الله تعالى عنها ، وجندى المعلومات والأخبار هو عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما ، والدليل العارف الحاذق الماهر هو عبد الله بن أريقط ، والموعد للانطلاق إلى المهاجر من مكان الاختباء بعد ثلاثة أيام ، كل هذا أخذ بالأسباب ، مع إيمانه الأكيد وثقته المتناهية عليه الصلاة والسلام بخالقه سبحانه وتعالى ، الذى لم يغفل ولو للحظة واحدة عن ذكره وسؤاله العون وطلبه المدد والنصر والعون .

سابعاً : أسلوب الإنصاف ، وكيف لا يكون منصفاً وهو رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين ، ويظهر هذا الأسلوب العظيم فى استبقاء ابن عمه رضى الله تعالى عنه من بعده فى مكة ليرد الأمانات إلى أهلها . لمن يرد الأمانات ؟ يردها للذين تآمروا عليه وقرروا قتله والقضاء على دينه ، وفى هذا درس عظيم للأمة على امتداد التاريخ الطويل ، يضرب فيه الصادق الأمين أروع مثل للبشرية بأسرها فى الوفاء والإنصاف ، برد الحقوق إلى أهلها ، مهما كانت الظروف والملابسات ، فالحق أحق أن يتبع ، وهذا الأسلوب ، لم تعرف البشرية مثله لا من قبل ولا من بعد ، فهاهى الفئة الكافرة المتآمرة تتآمر عليه ، وتتفق على قتله ، وهاهو صاحب الخلق العظيم يحرص على رد أماناتهم أكثر من حرصهم على قتله ، فيستبقى ابن عمه ليقوم بهذه المهمة

الكبيرة بالرغم من صعوبة الأوضاع القائمة ، واستحالة أن يقوم هو بتسليم تلك الأمانات بنفسه وذلك لإحاطتهم ببيته عليه الصلاة والسلام ليقوموا بتنفيذ ما خططوا له ، كل ذلك لم ينسه عليه الصلاة والسلام حقوق الآخرين وأماناتهم التى استودعوه إياها ، فكان أميناً حقا ، كما كانوا يلقبونه وينادونه ، إنه درس عظيم لأمته ، يوضح لهم فيه إمامهم وسيدهم عليه الصلاة والسلام وجوب رد الأمانات إلى أهلها وحرمة أكل أموال الناس بالباطل حتى غير المسلمين .

ثامنا : كما يمكننا أيضاً أن نستنتج أسلوباً آخر من الأساليب المحمدية فى هذه الهجرة المباركة ألا وهو أسلوب الإيثار الذى ضربه عليه الصلاة والسلام لأمته ، فهو من سادات القوم وأشرافهم ، وسيرته عند قومه ، لا ينكرها إلا من عاند وصد عن هذا الدين ، فهو المعروف عندهم بالصادق والأمين الذى لم يجربوا عليه كذباً ، ولم يعرفوا عنه إلا الصدق فى القول والأمانة المطلقة .

لقد ترك عليه الصلاة والسلام كل ذلك ، الأهل والديار والحمية وموطن الآباء والأجداد ، وآثر الله على الأهل والمال والمنعة ، وقد امتدح القرآن الكريم هذا الأسلوب فى قول الحق تبارك وتعالى :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه

فاولئك هم المفلحون »[1] .

والإيثار من الخصال التى يندر أن توجد إلا فيمن تغلغل الإيمان فى قلبه وصفت نفسه وارتفعت عن سفاسف الأمور ، وأيقنت يقينا كاملا لا يساوره شك فى أية لحظة من اللحظات بأن الله سبحانه وتعالى له الأمر كله ويجب أن يؤثر على كل شىء ، لأنه رب العالمين وخالق الناس أجمعين ، وهو المستحق بحق لأن يبذل فى سبيله النفس والمال والولد وكل غال لدى الإنسان ، ورسول الهدى ﷺ وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه إمام وسيد كل من اتصف بهذه الصفة ووجدت فى سجاياه .

ومعلوم أن الإنسان بطبيعته مجبول على حب النفس والمال والأهل والولد ، وهذا يكون بدرجات متفاوتة بين الناس ، ويكون أشد ما يكون تمسكا بالأهل والعشيرة فى ساعة الضيق والحاجة .

فرسول الهدى ﷺ ، والذى كان فى أمس ما يكون إلى قومه وعشيرته لم يثنه هذا الموقف العظيم عن الذى كان يعتقده ويدين الله به ، وأعنى بذلك الإيثار ، حيث مضى فى طريق الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى ، تاركا وراءه الحمية والمنعة ، متعلقاً بحبل الله المتين ، متوكلا على رب العالمين ، ليضرب فى ذلك مثلا عظيما لأمته إلى يوم القيامة ، فى سبيل الله سبحانه وتعالى يرخص المؤمن كل غال لديه ، تحقيقاً لكمال العبودية للحى القيوم سبحانه وتعالى .

إن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بها ، وهذا الانحسار المؤلم الذى تعيشه إلى أن تؤثر الله ورسوله على هذا

---

(١) سورة الحشر الآيتان ٨ ، ٩ .

الحطام الزائل ، ليكتب لها الحق سبحانه وتعالى العزة والكرامة والرفعة ، وكل هذا بالإمكان تحقيقه إن شاء الله تعالى إذا حقق كل فرد من أفراد الأمة المسلمة العبودية لله وحده لا شريك له ، وترفع بذلك عنها الذل والصغار الذى تعيشه بالزهد فى ملذات الحياة ، والاكتفاء بالضروريات ، وترسيخ مفهوم زوال هذه الحياة الفانية فى نفوس الأفراد والمجتمعات المسلمة ، حتى لا يركنوا إليها أكثر مما فعلوا ، وبذلك تكون لهم الغلبة ، ولدين الله النصر والعزة والسيادة .

تاسعاً : أسلوب الانتفاع بطاقات ومواهب غير المسلمين ، وهذا واضح فى استئجار النبى ﷺ عبد الله بن أريقط ليكون دليلا للرحلة ، وهو بذلك يضرب لأمته مثلا فى إمكانية الاستفادة من خبرات ومواهب وطاقات غير المسلمين فى إنجاح الدعوة وحمايتها لتصل إلى الناس جميعاً ، استأجره عليه الصلاة والسلام لأنه خبير بالطرق الصحراوية ، واعلمه ﷺ بأن قريشاً ستطارده ، خاصة وأنهم قد أحاطوا ببيته الكريم ـ لتنفيذ مؤامرتهم الدنيئة ، وكأنه ﷺ يستعين بخبرة ابن أريقط على مغالبة أولئك المطاردين من الكفار أو من الذين كانوا حريصين على الفوز بالجائزة الكبرى التى رصدتها الفئة الكافرة لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا .

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه فقه السيرة : « نظر ﷺ فى هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها ، فإذا اكتملت فى أحد ، ولو مشركا استخدمه وانتفع بموهبته »[1] .

---

(١) فقه السيرة لمحمد الغزالى ط ٧ ، ١٩٧٦ م ص ١٧١ دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

عاشراً : أسلوب السرية التامة :

وهذا الأسلوب الذكى ، مارسته شتى الأمم بعد الرسول ﷺ ، وحققت به ما خططت له لأنه يمكن صاحبه من التحرك بطمأنينة حيث لا يعلم أحد بما هو قادم عليه ، والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم يعلم بهجرته أحد أبداً غير ابن عمه على رضى الله عنه وصاحبه الصديق وبعض أهل بيته، وهو فى إطلاعهم على هجرته ﷺ لم يتوسع فى إطلاعهم بهذه الخطوة فى مسار الدعوة الإسلامية إلا بقدر ، وذلك تأكيداً على السرية التامة ، والتى لا صدر إلا ممن يملك عقلا كبيراً ، بالرغم من وطأة فراق الأهل والأوطان والأصحاب والعشيرة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام ، رابط الجأش ، شديد الحرص على سرية ما يقوم به ، لضمان النجاح لهذه الخطة التى أعدها ؛ ليتمكن من تحقيق الهجرة المباركة واللحاق بالأصحاب الكرام الذين وصلوا المدينة ، عقب البيعة الكبرى عند العقبة ، بعد أن أذن لهم عليه الصلاة والسلام بالهجرة إليها .

وخلاصة القول فى هذا : ما نجده من احتواء أسلوب الحكمة التى ظهرت فى كل خطوة خطاها البشير النذير فى هذه الرحلة المباركة ، وهى الرحلة الربانية لإعلاء كلمة التوحيد ، بالانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام الجديد ، المدينة المنورة ، وهذا الأسلوب إنما هو توجيه ربانى للنبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، ومعلوم أن أصل كلمة حكمة فى اللغة ، وضع الشىء فى موضعه ، وهذا ما كان منه ﷺ فى التخطيط والإعداد لهذه الهجرة المباركة فى جميع مراحلها ، حتى الوصول إلى بغيته ﷺ ومعه الصديق رضى الله تعالى عنه ، وهذا الأسلوب النبوى الكريم حقق للنبى ﷺ النجاح الباهر فى جميع خطواته المباركة لتبليغ رسالة ربه سبحانه وتعالى

امتثالا لقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) .

والهجرة المحمدية إلى المدينة كانت فتحاً عظيما للدعوة الإسلامية ، فتحت لها الآفاق الواسعة ليصل صوت الحق والهدى الذى حاولت الفئة الباغية الكافرة المعاندة إخفاءه عن الناس ووأده فى مهده .

لكن أنى لهم ذلك وهو دين رب العالمين الذى ارتضاه للناس أجمعين ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وقد يقول قائل : ما علاقة هذه الاستنتاجات بأسلوب الدعوة ؟

والجواب : أن الدعوة عملية متكاملة يتمم بعضها البعض الآخر ، فقد يضطر الداعية إلى جانب من جوانب هذه العملية الكبيرة فليس له إلا سيرة إمامه وقائده ﷺ ، الذى رسم الطريق لأمته بكل وضوح ، حتى لا تضل ، وحتى تبلغ الغاية بيسر وسهولة ، فالتحلى بالحكمة من أهم مستلزمات الداعية ، الأمر الذى يؤدى به إلى أن يتصرف فى المواقف التى تواجهه بكل حكمة وتعقل ، حتى تصل الدعوة إلى آفاق بعيدة ومجالات أرحب ، لينعم أولئك المساكين الذين ضلوا الطريق ، بنور الإسلام ورحمة هذا الدين العظيم بالعودة إلى فطرتهم التى فطرهم الحق تبارك وتعالى عليها ، وهى توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده جل وعلا ، ونبذ ما سواه سبحانه وتعالى ، بتحقيق العبودية الصادقة لمستحقها جل وعلا بالتحرر من عبادة العباد والمخلوقات بأنواعها والعودة إلى خالقهم المتفرد بالجلال والكمال سبحانه

---

(١) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

وتعالى — والحكمة تحقق السلامة فى التحرك مع بلوغ الهدف والوصول إلى الغاية ، علاوة على ما فيها من راحة للنفس وسلامة للبدن ، وصيانة للدعوة من أن ينال منها العدو ، خاصة عندما تكون فى بدايتها ، وهى غضة طرية ، لم يشتد عودها ، أو يقوى سندها بعد .

وفى العصر الحديث تمر بعض المواقف لبعض الدعاة فى أوروبا وأمريكا وبعض البلدان التى تقف موقف العداء من المد الإسلامى المبارك ، ويكون لهم فى سيرة سيد المرسلين ، مختلف الحلول لتلك المواقف التى يمرون بها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام معلم هذه الأمة وقدوتها وهاديها إلى صراط مستقيم بفضل من الله سبحانه وتعالى ، وصدق الله العظيم : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »[1] .

ويمضى البشير النذير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وصاحبه الصديق تحيطهما عناية الله ورعايته إلى غار ثور حيث مكان الاختباء الذى اقتضاه الأسلوب النبوى الحكيم لتسكن عاصفة عبدة الأوثان ، وتهدأ الملاحقة اللاهثة ، بحثاً عمن عرفوا صدقه وأمانته وحسبه ونسبه ، بحثاً عن الذى أرسله رب العالمين رحمة مهداه ، ومنقذاً لهم من تلك الظلمات التى كانوا فيها يعمهون ، وتلك الضلالات التى كانوا فيها منغمسين ، وكالعادة يتحقق النجاح العظيم لهذه الخطوة المباركة الموفقة ، حيث تنزلت الرحمات من الرحمن الرحيم ، وظهرت المعجزات الباهرات حماية منه سبحانه وتعالى لعبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ ، ورعايه له ونصرة ، وإعلاءً لدينه القويم ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

أقام الرسول الكريم وصاحبه الصديق فى هذا الغار ثلاث ليال فى حراسة الحق تبارك وتعالى ، ولقد كانت هذه الحراسة وتلك العناية الربانية فى هذه الهجرة منذ جاء الأمين جبريل مخبراً للنبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بمكر قريش وائتمارها لتقتله على فراشه فى بيته ، وتنزلت الرحمات عليه ﷺ حين خرج على الذين يترصدونه محاطاً بالعناية الإلهية ، فلم يره أحد منهم وهم أيقاظ ، وهذه سنة الله فى خلقه حيث أخذ على نفسه نصرة من ينصره تفضلا منه سبحانه وتعالى وكرما ، فهاهو العنكبوت ينسج على باب الغار عقب دخول الرسول ﷺ إلى جوفه ، إنه مصداق لقول الحق تبارك وتعالى : « وأيده بجنود لم تروها »[1] حيث يدل تنكير لفظ (جنود) على أن كل ما حمى الله سبحانه وتعالى به عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ من كيد الحاقدين هو من جنده سبحانه وتعالى ، والله أعلم .

---

(١) التوبة الآية ٤٠ .

الباب الرابع

الأسلوبُ النبوى للدعوة
فى العهدِ المدنى

الباب الرابع

الأسلوب النبوى للدعوة فى العهد المدنى

تمهيد :

وعنى بالدعوة فى العهد المدنى مسار الدعوة الإسلامية فى المدينة المنورة ، خاصة الأساليب التى انتهجها البشير النذير من حين وصوله إلى المدينة المنورة بلد الإسلام الجديد ، خاصة وأن معظم سكان المدينة قد أسلموا وفى مقدمتهم أهل بيعة العقبة الأولى والثانية ، ومن لحق بهم من أهلهم وذويهم من الذين لم يذهبوا إلى مكة المكرمة لمبايعة الرسول ﷺ ، وأولئك الذين دخلوا الإسلام عن طريق رسول رسول الله ﷺ (مصعب بن عمير) رضى الله تعالى عنه وأرضاه ، الذى أرسله عليه الصلاة والسلام لتعليم المسلمين أمور دينهم وإمامتهم فى الصلاة .

خاصة وأن هذه المرحلة تعد من أهم وأخطر مراحل هذه الدعوة بعد أن خرجت منتصرة من مقرها الأول مكة المكرمة ، حيث استطاع البشير النذير بعون من الله سبحانه وتعالى الخروج من مكة بسلام ، دون أن يلحقه ذلك المكر الخبيث الذى خطط له جهابذة الكفر والوثنية ، طغاة قريش ، حيث يصور الذكر الحكيم ذلك فى سورة الأنفال بقوله سبحانه وتعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله

والله خير الماكرين)[1] .

ومع أولئك الأخيار من الأنصار كانت تعيش قبائل يهودية ممثلة فى بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى قينقاع ، وهم أهل كتاب ، يعرفون حقيقة هذا الدين وصدق هذا النبي الأمى العربى القرشى ﷺ والحالة هذه ، لابد من القيام بعمل ينظم العلاقة بين هذه الفئات الثلاث التى يتكون منها المجتمع المدنى ، وأعنى بذلك المهاجرين والأنصار واليهود ، ولو أنه فى الحقيقة لا فرق بين المهاجرين والأنصار ، فهم يشكلون جماعة واحدة ، جمعها الدين القويم ، وربط بينها ذلك الرباط المتين ، رباط العقيدة الواحدة ، إلا أن المكيين قدموا على بيئة لا عهد لهم بها من قبل من جميع النواحى المناخية والاجتماعية والاقتصادية ، والدفاعية أيضاً إذ أصبحوا بعد خروجهم من ديارهم وأوطانهم مهاجرين إلى الله ورسوله ، تاركين الأهل والمال والعشيرة هدفاً لكفار قريش ، خاصة وأن خطتهم التى كانوا يرجون منها القضاء على محمد ﷺ قد كتب لها الفشل ، فخرج عليه الصلاة والسلام برعاية الله وحفظه لم يلحق به سوء أو مكروه والحمد لله رب العالمين .

وعلى ما تقدم يظهر لنا أن الدعوة الإسلامية فى العهد المدنى تختلف مناخها عن العهد المكى (بعض الشىء) ذلك لأن هذه المرحلة من الدعوة تتميز بكثرة المسلمين من المهاجرين والأنصار ، علاوة على اليهود الذين يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، فقد كانوا يستفتحون على من معهم من قبائل العرب الكافرة من الأوس والخزرج والذين أنعم الله عليهم فيما بعد بالإيمان

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

بهذا الدين ، بينما الذين كانوا يعرفونه كفروا به ، فحلت عليهم لعنة الله سبحانه وتعالى ، وزاد ذلك الكفر والحقد حينما رأوا الإسلام ينمو بسرعة فائقة فى مدة قصيرة جداً لم يعرف التاريخ البشرى لها مثيلا ، فهم يعرفون كيف تعثرت اليهودية ، وكيف حوربت النصرانية ، لكن دين محمد انتصر فى حياته ﷺ وفى خلال مدة وجيزة ، خاصة عندما تمت الهجرة إلى المدينة المنورة وأعز الله الإسلام والمسلمين بالمهاجر الجديد ، الذى وجدوا فيه القوة والمنعة والأهل والإخوان ، الذين أثبتوا للدنيا بأسرها مكانة الأخوة الإسلامية ، والقرابة الدينية عند ما شاطروا إخوانهم من المهاجرين ما يملكون ، حتى أن أحدهم يعرض أن ينزل عن إحدى زوجتيه لأخيه المهاجر ، ولقد بين القائد العظيم رحمة رب العالمين للناس أجمعين هذا المعنى أوضح ما يكون البيان فى الحديث الذى رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما فى صحيح مسلم رحمه الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1] .

لهذا وجد الأصحاب الكرام من المهاجرين الراحة والاستقرار وتخلصوا من أذى قريش ، بل وتعذيبها لبعض المسلمين من المستضعفين ، وتنفسوا الصعداء مما كان يلحق بهم من كفار قريش من عدم السماح لهم بممارسة عباداتهم والاجتماع برسولهم الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، أما موطنهم الجديد فإنه يختلف تماماً عن مكة ، فقد كانوا ينعمون بلقاء سيدهم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٦ / ١٤٠ دار الفكر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٨ هـ .

وقائدهم دائماً يؤمهم فى الصلوات الخمس ، ويلتقى بهم يومياً يعلمهم أمور دينهم دنياهم لا يمنعهم من لقائه أحد أبداً ، لهذا نجد أن المهاجرين قد تحسنت أوضاعهم بشكل عام وارتاحت نفوسهم مما كانت فيه من المعاناة والاضطهاد والخوف والفزع ، لقد نجحوا فى ذلك الامتحان الصعب بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وها هم اليوم فى المدينة المنورة وقد أقبل عليهم الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام قادما من مكة ، ليعيش معهم فى هذه البلدة المباركة ، ليبدأوا معاً مرحلة جديدة من مراحل التضحية والفداء والعزة والكرامة ، وليبلغوا رسالة ربهم للناس كافة فى مشارق الجزيرة العربية ومغاربها ، لا بل فى كل مكان من هذه المعمورة ، ليعود ذلك الإنسان إلى فطرته التى فطره عليها الحق تبارك وتعالى ، وليعم هذا الكون السلام والوئام ، وتستريح تلك الإنسانية المعذبة مما لحق بها بسبب بعدها عن خالقها سبحانه وتعالى ، وتعلقها بما لا ينفع ولا يضر .

إن الدعوة فى العهد المدنى تعتبر الانطلاقة الحقيقية بهذا الدين إلى أبعد من حدود جزيرة العرب ، لقد عرف سكان الجزيرة العربية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من ديار مهاجراً إلى المدينة المنورة حيث العزة والمنعة ، وبذلك ارتفع وعلا صوت هذه الدعوة حتى بلغ تلك البلدان ، لقد أصبح لمحمد صلى الله عليه وسلم بلد يأويه ورجال يفدونه بأرواحهم ، كيف لا يكون ذلك وقد استطاع هذا النبى الكريم أن يوحد الصفوف ويؤلف بين القلوب فى فترة وجيزة جداً ، فما أن وصل إلى المدينة إلا وأخذ فى بناء المسجد ، المسجد الذى كان كل شىء فى حياة المسلمين ، سواء فى حالة السلم أو فى حالة الحرب ، إذ لم يتمكن أن يقيم ذلك فى مكة ، فلم يكن له مكان يجتمع فيه مع صحابته سوى دار الأرقم بن أبى الأرقم رضى الله عنه .

أما اليوم فهاهم جميعاً يشاركون فى إقامة هذا الصرح العظيم الذى قال فيه الحق تبارك وتعالى :

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً »[1] .

حتى سيدهم وإمامهم كان يشاركهم البناء عليه صلوات الله وسلامه ليكون فى ذلك درس لهذه الأمة على مدى تاريخها الطويل .

---

(١) سورة الجن الآية ١٨ .

الفصل الأول

مجتمع المدينة وتنظيماته

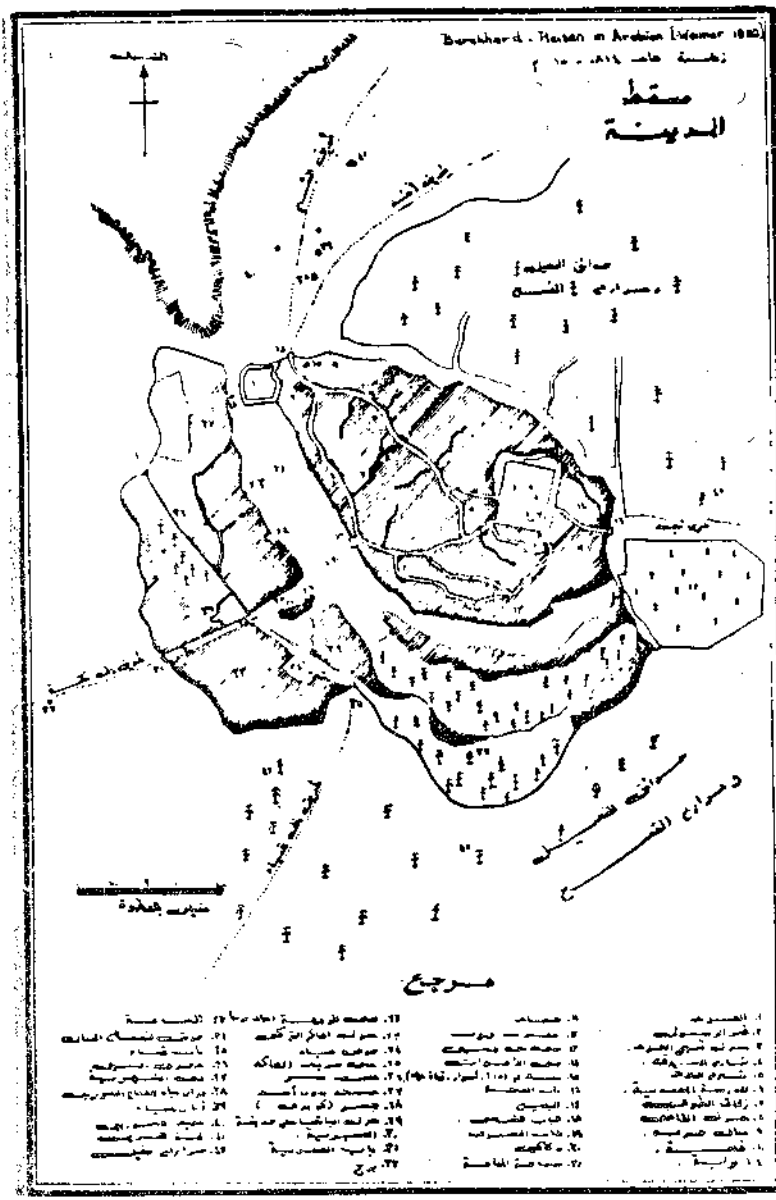

خارطة المدينة المنورة

عام ١٨١٤م

الفصل الأول

مجتمع المدينة وتنظيماته

يحسن بنا ونحن نتحدث عن المجتمع المدنى وتنظيماته أن نقف قليلا عند موقع المدينـــة المنورة وحدودها ومعالمها الجغرافية العامة ، حيث إن للبيئة الجغرافية تأثيراً على السكان كما هو معروف ، فهى تدخل فى تحديد وبيان الوضع الاجتماعى العام من حيث الأعمال التى يقوم بها الفرد فى هذا المجتمع واعتماداته فى حياته الاجتماعية ، والتى تشكلها البيئة التى يعيش فيها ومواصفاتها الجغرافية من حيث السطح والمناخ والموقع .

والمدينة المنورة واحدة من مدن الجزيرة العربية المعروفة منذ القدم ، تقع فى واحة خصبة ، يحف بها بعض الجبال والأودية حيث جبل أحد ووادى قناة من الشمال وجبل عير ووادى العقيق من الجنوب ، وجبل سلع من الشمال الغربى .

أما حدودها : فإن جبل عير يحدها من الجنوب ، وجبل أحد يحدها من الشمال ، أما من الشرق فهناك حرة واقم ، التى تعرف الآن بالحرة الشرقية ، أما من جهة الغرب فهناك حرة الوبرة ، والمعروفة الآن بالحرة الغربية .

أما بالنسبة لخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية ، فإن المدينة المنورة تقع على (٣٩) درجة و (٣٦) دقيقة وثانية واحدة و (٦١) من المائة من خطوط الطول ، وعلى ٢٤ درجة و (٢٨) دقيقة و (٥) ثوان

و (٣٥) فى المائة من خطوط العرض ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٥٩٧ متراً إلى ٦٣٩ متراً .

أما من حيث المناخ ، فهو حار بل يميل إلى شدة الحرارة والسموم فى فصل الصيف ، معتدل فى الخريف والربيع ، بارد فى الشتاء[1] .

هذا حديث مجمل عن المدينة المنورة ، رأينا أنه من الأحسن تناوله فى بداية هذا الفصل من البحث .

لقد كان سكان المدينة مختلفى الجنسية والعقيدة ، فمنهم العرب ومنهم اليهود ، كانت حياتهم تعتمد على الزراعة وتملك الأرض ، وخاصة الزراعية منها ، وذلك لاستثمارها والانتفاع بها فى مجتمع قبلى ، كانت القوة والقهر فيه لمن كان قوياً حيث لا توجد حكومة معينة ، يجتمع من خلالها أمر هذا المجتمع ، وتنتظم شئون أفراد المجتمع وتتحد كلمتهم تحت راية واحدة ، ليسود النظام ، ويحسب له حساب لدى أفراد المجتمع المدنى فى تلك الحقبة التى سبقت مجىء البشير النذير إليها أو حتى دخول الإسلام إلى (يثرب) لذلك فلم تعرف لهذا المجتمع حكومة معينة تحفظ الحقوق ، وتعمل على أداء الواجبات من قبل أفراد المجتمع ، فلم يكن إلا القوة الذاتية الضامن لحفظ الحقوق ، سواء كانت تلك القوة صادرة عن أفراد أو جماعات معينة من العرب أو اليهود ، ويمكن أن نطلق على هذا المجتمع فى تلك الحقبة من تاريخ هذه البلدة بأنه مجتمع (قبلى) .

ولما كانت أرضهم زراعية ، فإن هذه الميزة كانت تثير النزاع بين أفراد

---

(١) فصول من تاريخ المدينة للأستاذ على حافظ ، شركة المدينة للطباعة والنشر — جدة .

المجتمع ؛ لأن كل فئة من فئاته أو قبيلة من قبائله كانت تطمح إلى أن تستحوذ على أخصب الأراضى وأغناها ، مما دفع بهم إلى التطلع إلى ما لدى البعض الآخر الاستيلاء عليه بالقوة وقهر السلاح ، الأمر الذى جعل من هذا المجتمع ، مجتمعاً غير مستقر ، إذا ما قورن بالمجتمع المكى المجاور لهم ، الذى كان يقوم على الوحدة والاستقرار بسبب وجود الكعبة المشرفة بين ظهرانيهم ، والتى عملت على توحيدهم ، ليقوموا بشئون البيت الحرام من سقاية ووفادة وتجارة وخدمة للحرم .

وبالرغم من أن حياة الزراعة من خصائصها ربط الناس بعضهم بالبعض الآخر والعمل على استقرار السكان ، إلا أنه لعدم وجود حكومة أو سلطة قائمة فى يثرب ، نجد أن المجتمع لم يكن مترابطاً كالمجتمع المكى ، بل لم يكن مستقراً أيضا ، لذلك نجد أن المجتمع المدنى (اليثربى) كان منقسما على نفسه مكونا من فئتين متعاديتين ، تترصد كل فئة أو معسكر للفئة أوالمعسكر الآخر لقهره والاستيلاء على أراضيه بالقوة .

والمجتمع اليثربى كان خليطا من العرب واليهود ، إذ توجهت مجموعات من اليهود الذين كانوا فى بلاد الشام إلى يثرب وما جاورها فارين من هناك ، فسكنوا هذه المدينة ، مع من كان فيها من بطون عربية وما قدم إليهم من مجموعات كبيرة من اليمن ، حيث عاش اليهود فترة من الزمن فى هذه الأرض العربية ، مع تلك القبائل العربية من أوس وخزرج فى أمان وسلام ، إلا أنهم حاولوا السيطرة على هذه المدينة وفرض أنفسهم على أهلها بالقوة ، فنشبت الخلافات بين اليهود والقبائل العربية ، وقامت بينهم الحروب بسبب طمع هذه المجموعات اليهودية بما تحت أيدى عرب يثرب من أراض وخيرات

وعقدت معاهدات بين الطرفين للعيش فى هذه البلدة بسلام ، واستطاع العرب أن يجعلوا الزعامة فى أيديهم ، وسوف نوضح العلاقة القائمة بين عناصر هذا المجتمع اليثربى .

أولا : العلاقات بين اليهود :

لقد قدم اليهود إلى يثرب على شكل هجرات متتالية نتيجة للظروف التى كانت تواجههم فى فلسطين ، فلما قدموا أرض الحجاز كان من مصلحتهم أن يقيموا علاقات جيدة فيما بينهم ، فقاموا بتشييد الحصون والآطام حتى يقووا على مواجهة ومجابهة أى هجوم ، علاوة على استثمار الأراضى الأمر الذى جعل كلمتهم تعلو وشأنهم يرتفع .

وما أن استقرت أمورهم وتمت لهم الغلبة على يثرب حتى أخذت روح التنافس والصراع تدب بينهم وتظهر بين جماعاتهم ، وبدأ التفكك والنزاع واضحاً بين يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة من جهة ، ويهود بنى قينقاع من جهة أخرى ، وجاءت حرب بعاث حيث دخلت بعض البطون اليهودية فى أحلاف مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، نتج عن هذه الحرب عداء مستحكم بين هذه القبائل اليهودية الثلاث ، وقد ورد فى الذكر الحكيم آيات تصور ماوقع بينهم من قتال وسفك دماء ، حيث قام البعض منهم بإخراج الآخرين من ديارهم ، يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة وهو أصدق القائلين ربنا رب العالمين : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون

ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »[1] . ولا نريد أن نتوسع فى هذا الجانب لأن الحديث فيه طويل ، أفرد له بعض الكتاب كتباً مستقلة تحكى قصة اليهود مثل : كتاب محمد عزة دروزة : تاريخ بنى إسرائيل ، وكتاب عفيف طبارة : اليهود فى القرآن .

ويتضح من ذلك أن العلاقات بين اليهود لم تكن حسنة حيث سيطرت عليها المنافع الشخصية وروح العداء .

ثانيا : العلاقات بين العرب واليهود :

قدمت قبيلتا الأوس والخزرج إلى يثرب ، وكان فيها اليهود[2] ، بيدهم الأموال والعدد والقوة ، فكانت العلاقة بينهم علاقة جوار حيث قنع كل من الأوس والخزرج بهذا الجوار وتلك الإقامة ، ولما كانوا أهل زراعة ، فقد اتخذهم اليهود عمالا ومساعدين لهم ليستفيدوا من خبرتهم فى الزراعة .

أقام اليهود والعرب مدة طويلة يسودهم الوفاق والسلام فعقدوا معاهدة جوار ، بحيث لا يعتدى طرف منهم على الطرف الآخر ، ويكونون يداً واحدة إذا ما هوجمت المدينة من أى عدو أو معتد ، مكثوا على ذلك

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) مكة والمدينة ، لأحمد إبراهيم الشريف ص ٣٢٤ .
المجتمع المدنى فى عهد النبوة لأكرم العمرى ص ٦٠ طبعة ١٤٠٣ هـ . الجامعة الإسلامية .

طويلا ، وبمرور الزمن أصبح لقبيلتى الأوس والخزرج شأن فى يثرب ، الأمر الذى جعل اليهود فى خوف منهم ، فنقضوا الحلف الذى بينهم كعادتهم ، فخافت القبائل العربية على وضعهم فى يثرب فاستنجدوا بالغساسنة حيث تمت لهم الغلبة والنصر على اليهود[1] .

ويتضح مما سبق أن العامل الاقتصادى كان هو الأكثر تأثيراً فى تلك العلاقات التى قامت بين العرب واليهود فى يثرب .

ثالثا : العلاقة بين الأوس والخزرج :

مكث كل من الأوس والخزرج بعد تغلبهم على اليهود فى يثرب زمناً طويلا وكلمتهم واحدة ، ثم بدأ النزاع بينهم على شكل تناقس قبلى على الرياسة والصدارة ، كل قبيلة تطمح إلى أن يكون الأمر فى يدها والصدارة لها ، فوقعت بينهم حروب طاحنة أولها حرب سمير وآخرها حرب بعاث والتى وقعت قبل هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة بقليل .

وبالرغم من تلك الحروب التى وقعت بين هاتين القبيلتين العربيتين إلا أن توجيه الأمور كان بيد العرب فى يثرب ، وهاتان القبيلتان العربيتان هما : الأوس والخزرج وهما أبناء ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، أمهما «قيلة» بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ابن عمرو مزيقياء ، لذلك عرفوا ببنى قيلة ، نسبة إلى أمهم .

---

(١) مكة والمدينة لأحمد إبراهيم الشريف ط ٢ ، دار الفكر العربى ١٩٦٥ م .

وكانت كل قبيلة من القبيلتين تنقسم إلى خمسة بطون كبرى ، انقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر ، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطنا .

وقد سكنت بطون الأوس المنطقة الجنوبية والشرقية من يثرب وهى منطقة العوالى ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى والشمالية وهى سافلة المدينة .

لقد اتحدت هاتان القبيلتان وتغلبتا على اليهود المجاورين لهم ، وانتقلت الزعامة إليهما ، إلا أنهما لم يحسنا توزيع تلك الأراضى التى وقعت فى أيديهما حيث احتل الأوس أراض خصبة وغنية بينما كانت أراضى الخزرج أقل منهم الأمر الذى جعل من هذا الوضع سبباً فى نشوب النزاع بينهما ، كما كان قد حدث بين العرب واليهود من قبل ، عندما احتكرت اليهود الأراضى الغنية الخصبة ، وكانت فرصة مواتية لليهود ليزرعوا بذور الخلاف والنزاع بين هاتين القبيلتين ويشيعوا عوامل الفرقة بينهما ، وقد أدركت الأوس والخزرج ذلك فسموهم (الثعالب)[1] .

ولما كانت قبيلة أوس قد تملكت أحسن البقاع وأخصبها طمعت فى أن تكون الزعامة لها ، إلا أن قبيلة الخزرج كان لها اليد الأولى فى هزيمة اليهود ؛ وذلك لأن النصر جاء على يد رجل من الخزرج ، ولما لم يذعن طرف للطرف الآخر ، نشبت الحرب بينهما ، والذى كان سببها المباشر هو العامل الاقتصادى .

---

(١) مكة والمدينة لأحمد إبراهيم الشريف ط ٢ ص ٣٣٩ دار الفكر العربى .

وتوالت الحروب بين هاتين القبيلتين ، وتدخل اليهود فى بعضها مع الأوسيين ، وكان آخرها (يوم بعاث)[1] الذى قالت فيه أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها :

(كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملوهم وقتلت سرواتهم وجرحوا ، قدمه الله لرسوله ﷺ فى دخولهم الإسلام)[2] .

وكان يوم بعاث قد أضعف بطون العرب فى يثرب ، وكأن القوم قد سئموا العداوة والقتال ، وأحسوا بالحاجة إلى السلام وإلى من يخرجهم من محنتهم هذه ، فكان أن أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بالإسلام ، فكانت بيعتا العقبة ، وكانت الهجرة المحمدية المباركة إلى هذه الديار التى تشتت شملها وتفرقت كلمتها ، وحلت بين أفرادها العداوة والبغضاء .

طلع عليهم البدر المنير ، فبدد دياجير الظلام ، فكان أن حدث ذلك التغير العظيم ، وذلك التحول المبارك ، فحل السلام مكان الحرب ، فأصبحوا بنعمة الله سبحانه وتعالى إخوانا ، وأصبحت مدينتهم مهاجر الرسول الأعظم ﷺ ، عاصمة الإسلام الأولى ومنطلق الرسالة المحمدية إلى أطراف المعمورة .

---

(١) يوم بعاث : اسم حصن للأوس ـ لسان العرب جـ ٢ / ١١٧ .

(٢) فتح البارى جـ ١١١/٨ مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٧٨ هـ .

الفصل الثاني
مع أهل الكتاب

الفصل الثاني

مع أهل الكتاب

كانت الدعوة المحمدية إلى دين الله القويم امتداداً للرسالات الإلهية إلى الناس جميعاً ، فالدين واحد ، وهو إفراد العبادة لله سبحانه وتعالى ، حيث أرسل الحق سبحانه وتعالى رسله إلى أممهم فى مختلف العصور ابتداء من نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فكانت الرسالات السابقة تحمل ما يناسب تطلعات تلك الأمم لنشر الخير والحق فى ربوع تلك الأوطان ، والتوجه للواحد الأحد الخالق الرازق ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض .

ومرت العصور والأزمان ، وتوالت الليالى والأيام ، وجاءت الدعوة المحمدية بالدين الخاتم ، الذى ارتضاه الحق سبحانه وتعالى لعباده ، كاملا وافياً متمما لما سبقه من أديان ربانية كما قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »(١) .

فقام البشير النذير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بدعوة الناس جميعاً لاعتناق هذا الدين العظيم ، الذى ارتضاه رب العالمين لعباده أجمعين ، يأمر بالخضوع لأمره ، وترك ما هم عليه من عبادات وعقائد ، طال عليها الأمد وبعدت الشقة بينها وبين أصلها الصافى المشرق ، حيث قام الإنسان بإدخال الكثير عليها ، مما يتناسب وأهواءه وطمعه ووسوسة شيطانه فحرفت تلك

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣ .

الرسالات السماوية ، وغيرت وبدلت ، فكان الانحراف عن الدين الحق ، ولما كانت الحالة هذه ، تنزلت الرحمات من الرحمن الرحيم ، على هذا الكون العاج بالآثام القابع على الأوثان والأصنام ، المغير لدين الملك العلام ، فكان دين الإسلام كما قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب »(١) .

فكان الرسول المختار هذه المرة غير غريب على سكان هذه الجزيرة ، وكيف يكون غريباً وقد ورد ذكره ونعته فى كتب الله المنزلة على رسله .

إن أهل الكتاب يعرفون تمام المعرفة هذا النبى الأمى العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فقد دعوا إلى الإيمان به والتصديق بما جاء من عند الله سبحانه وتعالى ، فهم أحرى الناس بالمسارعة إلى هذا الدين واعتناقه والإيمان به ، يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »(٢) .

لقد كانوا يتحدثون عن هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وذلك قبل مبعثه ﷺ وفقاً لما وجدوه فى كتبهم ، حيث وردت صفته وورد وصف زمانه ، وورد ما يأمرهم به صلى الله عليه وسلم .

يقول تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٩ .

(٢) سورة الصف الآية : ٦ .

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[1] .

وكانت اليهود فى يثرب تفخر بذلك على القبائل العربية ، فكلما تغلبت عليهم عرب يثرب قالوا لهم : غداً يأتى النبى الجديد (ﷺ) ونقوى به عليكم ونقتلكم قتل عاد وإرم .

يصف الذكر الحكيم هذا الموقف بأحلى عبارة حيث يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »[2] .

ويعلل البعض سبب كفر اليهود بالنبى محمد ﷺ أنهم أرادوه منهم ولهم ليقوى به سلطانهم وتعلو كلمتهم ، لكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب (ﷺ) وليس من اليهود ، فكان وما زال ينظر إلى الناس على أنهم سواسية إذ لم يعد هناك شعب مختار كما يقولون ويدعون . لقد أذهل اليهود سرعة انتشار الإسلام فى يثرب وإقبال الأوس والخزرج عليه ، وتمسكهم به وحبهم العظيم وتفانيهم فى سبيله ، واستقبالهم للنبى العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالبشر والترحاب وتسابقهم على التشرف بأن يقيم عندهم ، فالكل يتوق إلى ذلك الشرف العظيم ، وهو نزوله عليه الصلاة والسلام فى حيهم ، وتأججت بذلك نار الحقد فى قلوبهم واشتعلت البغضاء والحسد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة : ٨٩ .

فى نفوسهم ، لكن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم سلك أسلوب الحكمة فى تعامله معهم لعل الله يهديهم فيؤمنوا بما بشروا به فى كتبهم المنزلة من عند رب العالمين .

إن أسلوب الحكمة الذى انتهجه البشير النذير مع اليهود كان له عظيم الأثر بالنسبة لمسار الدعوة فى يثرب فى أول طريقها ؛ وذلك لأن المعاهدة التى عقدها عليه الصلاة والسلام معهم ، تلزمهم بالدفاع عن المدينة ، وتتيح لهم حريتهم الدينية فى ممارسة ديانتهم أو الدخول فى الإسلام إن أرادوا ، وبذلك أعطت هذه المعاهدة بعضاً من الوقت لرسول الهدى ﷺ ليوحد الصفوف ويجمع الكلمة بين الأوس والخزرج ، إذ لا قدرة لدى المسلمين لفتح باب القتال مع اليهود ، وليس من الحكمة أن يقع ذلك ، والدعوة غضة طرية فى يثرب الأمر الذى مكن هذه الدعوة من أخذ طريقها إلى الأمام فى هذا المجتمع الذى حلت فيه المحبة بعد العداوة والسلام بعد الحرب ، والصفاء بعد الجفوة ، وبذلك قويت شوكة الإسلام بفضل تلك المؤاخاة التى عمل عليه الصلاة والسلام على إقامتها بين الأوس والخزرج والتى أثارت حقد اليهود ، خاصة وأن يوم بعاث ليس ببعيد ، فكيف تم هذا التحول ؟

وأصبحت اليد التى تحمل السلاح لتفتك بمن أمامها تمتد بالمصافحة إلى من أمامها ، عجباً ! إنه تحول عظيم أذهل اليهود ، وأفقدهم صوابهم .

وهذه مقتطفات من تلك الوثيقة الخالدة ، والمعاهدة الحكيمة التى عقدها عليه الصلاة والسلام مع اليهود : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب

ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ـ إلى أن يقول : وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته .

وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن البر دون الإثم .

وأن بطانة يهود كأنفسهم .

وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

---

(١) الوتغ : الوتغ ـ بالتحريك ـ الهلاك ، لسان العرب جـ ٨ / ٤٥٨ .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة)[1] .

ولتقف الدنيا بأسرها إجلالا لهذه السياسة الحكيمة التى سار عليها البشير النذير بعد أن خطط لها كأحسن ما يكون التخطيط ، وكيف لا يكون ذلك وهو رسول رب العالمين ، والرحمة المهداة للناس أجمعين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

وهذه الوثيقة يهمنا منها الجانب المتعلق باليهود ؛ لأنها ـ كما هو معروف ـ تتعلق بسكان المدينة من عرب ويهود ، وعند الوقوف على ما تضمنته هذه الوثيقة من بنود ، وهى التى ذكرنا ما يتعلق باليهود منها نجد أن النبى عليه الصلاة والسلام سلك :

أولا : أسلوب الحكمة :

نهج الهادى البشير أسلوب الحكمة فى جميع بنود هذه الموادعة ، فها هو عليه الصلاة والسلام فى أحد بنود هذه الوثيقة يمنع اليهود من مناصرة قريش ، وذلك لأن تجارة قريش تمر بالقرب من المدينة عندما تكون متجهة إلى الشام ، لذا نجده ﷺ يدخل هذا الجانب فى تلك المهادنة حتى لا يكون سبباً فى نشوب خلاف بينه وبينهم ، وفعلا كان لهذا البند أثره العظيم وذلك

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى لمحمد حميد الله ، دار النفائس ط ١٤ ١٤٠٣هـ بيروت .

عندما خرج عليه الصلاة والسلام لعير قريش ، وكانت معركة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة المباركة الميمونة .

وفى بند آخر من بنود هذه المعاهدة نجد النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يمنعهم من الخروج من المدينة إلا بإذنه ، مما قيد حركتهم ومنعهم من المشاركة فى حروب القبائل خارج المدينة المنورة الأمر الذى يؤثر على أمن المدينة ويجعلها عرضة للحرب ، واليهود مواطنون فى هذا المجتمع وهذه الدولة الإسلامية الفتية ، فعليهم أن يخضعوا لأنظمة هذه الدولة ويعملوا على تنفيذها واحترامها[1] .

إن الأسلوب الحكيم الذى سار عليه النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فى مهادنته اليهود مكن الدعوة أن تأخذ طريقها بسلام ، وأن ترسخ أقدامها فى جنبات هذا المجتمع المدنى الجديد ، وتأخذ فى الاستعداد للدفاع عن نفسها واتخاذ مكانها بين مجتمعات الجزيرة العربية ، ويظهر هذا بشكل جلى فى غزوة بدر الكبرى ، بالرغم من إيمان المسلمين بأن اليهود قد تغلغت الخيانة فى نفوسهم ، وتمكنت البغضاء من قلوبهم ، وهذا ما ظهر بشكل واضح فى السنة الثانية والسنة الخامسة للهجرة فى غزوتى أحد والأحزاب للقضاء على الإسلام والمسلمين .

لكن المسلمين استفادوا من هذه المهادنة عامل الوقت إذ أنهم ليسوا قادرين على فتح جبهة مواجهة مع اليهود من البداية ، مما كان له أكبر الأثر على مسار الدعوة فى العهد المدنى ، حيث أتاحت هذه الوثيقة للنبى ﷺ أن يعالج الأمراض الاجتماعية التى كانت فى ذلك المجتمع بفعل الحروب التى نشبت بين الأوس والخزرج ، فتم الإخاء ، وتجسدت الروح الإسلامية

---

(١) المجتمع المدنى فى عهد النبوة لأكرم العمرى ـ الجامعة الإسلامية طبعة ١٤٠٣هـ

فى معاملات أفراد ذلك المجتمع فلا فرق بين أنصارى ومهاجرى ، أو أوسى وخزرجى ، وتحققت الوحدة الداخلية على أقوى ما يكون كما هو معروف فى كتب السير والأخبار بفعل السياسة النبوية الحكيمة ، ومؤاخاته بين أفراد المجتمع الاسلامى الجديد .

ويموت أسعد بن زرارة والمسجد يبنى ، وتبدأ اليهود كعادتها بالتشكيك والنيل من الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، ويبدأ أسلوب آخر من أساليبه ﷺ مع اليهود .

ثانيا : أسلوب المجادلة :

إنه أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن ، يقول ابن هشام فى سيرته : « إن رسول الله ﷺ قال : بئس الميت أبو أمامة . ليهود ومنافقى العرب يقولون لو كان نبيا لم يمت صاحبه . ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا »[1] .

انظروا إلى هذه العبارة الجامعة ـ لا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئاً ... لم يغضب أو يثر بالرغم من معرفته لمكرهم وعداوتهم للإسلام وكيدهم له ، لا بل جادلهم ورد عليهم بأنه لا يقدر على رد ما قد كتبه الله سبحانه وتعالى ، وأن الموت والحياة بيده جل وعلا ، لا يستطيع أحد أن يفعل حيالهما شيئاً أبداً ، فهما من أفعال الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أخرصهم عليه الصلاة والسلام ، وما يستطيعون قوله ؟ بعد هذا البيان الشافى والقول الوافى من الذى يعرفون صفته فى كتبهم المنزلة .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/١٥٣ .

ثالثاً : أسلوب الدعوة برفق :

وهذا أسلوب آخر مع أهل الكتاب فى المدينة تضمنته آيات من سورة آل عمران ، إنه أسلوب الدعوة برفق والمجادلة بالتى هى أحسن ، مع التغاضى عن سيئاتهم .

يقول لهم صلوات الله وسلامه عليه برفق قول الحق تبارك وتعالى : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

رابعاً : أسلوب التذكير :

حيث قام عليه الصلاة والسلام بتذكيرهم نعم الله سبحانه وتعالى عليهم وما أفاء عليهم من خيراته التى لا تحصى ولا تعد ويصور هذا التذكير هذه الآيات من سورة البقرة أصدق تصوير وأروعه حيث يقول الحق تبارك وتعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ، واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون * يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »[1] .

خامساً : أسلوب التودد :

ويظهر هذا فى ملاينته لهم عليه الصلاة والسلام وتوددة لهم ، فها هو يصوم يوم عاشوراء ، كما أنه عليه الصلاة والسلام- وكما ورد فى الوثيقة - أمن لهم الحرية الدينية ، وآمنهم على أموالهم ، ومد لهم يده الكريمة عليه الصلاة والسلام ليدافعوا معاً عن المدينة المنورة إذا أغار عليها عدو ، كل هذا يظهر توددة إليهم عليه الصلاة والسلام ، لكن نيران الحسد التى اشتعلت فى صدورهم أعمتهم عن الحقيقة ، فأخذوا فى حقدهم وحسدهم أمداً بعيداً ، حيث كانوا يخططون للقضاء على الإسلام ، ولقد صورت هذه الآية الكريمة مشاعرهم حيث يقول رب العالمين فى محكم التنزيل : «مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[2] .

وبالرغم من أنه شهد شاهد منهم بصدق هذا الدين ورسالة هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، إلا أنهم أصروا على عداوتهم بل صرحوا بها أمام الرسول العظيم ﷺ ، وذلك فى قصة إسلام عبد الله بن سلام التى أوردها ابن هشام فى سيرته ، قال ابن إسحاق :

(١) سورة البقرة من الآية ٤٠ - ٤٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٥ .

« وكان من حديث عبد الله بن سلام ، كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال : لما سمعت برسول الله ﷺ ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف[1] له ، فكنت مسرا لذلك صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو ابن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت . قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

قال : فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال : فقلت لها : نعم .

قال : فقالت : فذاك إذاً .

قال : ثم حرجت إلى رسول الله ﷺ ، فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

قال : وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له : يا رسول الله[2] ، إن يهود قوم بهت[3] ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض

---

(١) نتوكف : نترقب ونتوقع .

(٢) هذا هو الشاهد على ماذهبنا إليه من حقدهم وحسدهم وعداوتهم للإسلام ورسوله ﷺ .

(٣) البهت : الباطل .

بيوتك ، وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني ، حين يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

قال : فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه ، فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بي .

قال : فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور .

قال : « فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي ، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها »[1] .

وهذا يكفي في بيان ما ذهبنا إليه من مكرهم وحسدهم .

وهناك قصة مخيريق ، وقصة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله تعالى عنها مع عمها وأبيها وقول عمها لأبيها كما ذكر ابن هشام في سيرته : «أهو هو؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت»[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢/ ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢/ ١٦٦ .

وبالرغم من هذا كله كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الإسلام بكل رفق ولين إلا أنهم أصروا على موقفهم العدائى من الإسلام عليهم لعنة الله .

سادساً : أسلوب التقريع والزجر :

وعلى ما ذكرنا سابقا من إصرارهم على عداوة المسلمين والكيد لهم وكتمانهم الحق الذى جاء به سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أخذ عليه الصلاة والسلام فى تقريعهم وزجرهم ؛ وذلك لأنهم شرعوا فى الدس للمسلمين منذ البداية ، وبدأ عليه الصلاة والسلام بهذا الأسلوب لعلهم ينتهون عما هم فيه من كتم الحق وإلباسه بالباطل ، وكان فى هذا زجر لهم وتقريع حيث تنزلت الآيات البينات بهذا الأسلوب التقريعى الزجرى ، قال تعالى : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون »[1] .

سابعاً : أسلوب القوة :

لقد كان عليه الصلاة والسلام فى غاية اللطف مع اليهود ، حريصاً على المحافظة على المعاهدة التى عقدها معهم ، إلا أنهم كانوا أشد حرصاً على عداوة المسلمين والتربص بهم والتآمر عليهم ، وها هو عليه الصلاة والسلام يعاود النصح لهم وذلك عندما عاد من غزوة بدر الكبرى ، التى أعز الله فيها دينه

(١) سورة البقرة الآيات ٧٥ — ٧٧ .

ونصر نبيه ﷺ وعباده المؤمنين، وقمع المشركين وردهم على أعقابهم خاسرين، حيث جمعهم عليه الصلاة والسلام فى سوقهم — أى سوق بنى قينقاع ، كما ذكر ابن هشام فى سيرته حيث قال : قال لهم رسول الله ﷺ : «يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم ، قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك . لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[1] .

هكذا كانوا ، إلا أن الله سبحانه وتعالى رد عليهم بقوله جل وعلا : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[2] .

فقد كان أول من نقض العهد من اليهود هم بنو قينقاع .

(وقد أورد ابن هشام سبب الحرب واستعمال النبى ﷺ أسلوب القوة معهم بالتالى ، وذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب[3] لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣/٥٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٢ ، ١٣ .

(٣) الجلب : ما يجلب للأسواق ليباع فيها .

فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع)[1] .

وهى المواجهة المسلحة الأولى التى تحدث بين اليهود والرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ قام المسلمون بقيادة البشير النذير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بمحاصرتهم للقضاء عليهم جزاء ما اقترفوا فى حق المسلمين ، وما أظهروا من تبجح عند ما طلب منهم رسول الله ﷺ الدخول فى الإسلام ، وذكرهم بما حل بكفار قريش فى بدر ، لقد نقضوا العهد الذى كان مع المسلمين ، ولم يؤدوا حقوق الجوار ، ولم يتأدبوا مع رسول الله ﷺ حين ذكرهم بالله سبحانه وتعالى رغبة منه عليه الصلاة والسلام فى دخولهم فى هذا الدين الذى يعرفون حقيقته من خلال ما جاء فى توراتهم ، لقد تبجلوا الشر فكان أن باءوا به ، ووقعوا فى شر ما كانوا يخططون للمسلمين حيث أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة إلى غير رجعة .

لقد لجأ المصطفى عليه الصلاة إلى أسلوب القوة مع اليهود عند ما بدأوا هم برفع السلاح فى وجـــه المسلمين ونقضوا العهد باعتدائهم على حرمة المسلمين .

هذا ما كان من بنى قينقاع من اليهود ، أما بنو النضير فكان أن نكثوا العهد مع رسول الله ﷺ أيضاً ، وذلك بالشروع فى قتل المصطفى ﷺ ، حيث أورد ابن هشام قصة ذلك الغدر اللعين من بنى النضير .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣/٥١ .

دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتلا عمرو بن أمية الضمرى ، للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، كما حدثنى يزيد بن رومان ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف .

فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة ـ كما قال ـ ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله تعالى عنهم .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث[1] النبى ﷺ أصحابه ، قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة .

فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى انتهوا إليه ﷺ ، فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم :

قال ابن هشام : وذلك فى شهر ربيع الأول ، فحاصرهم ست ليال .

---

(١) استلبث : من اللبث وهو الإبطاء والتأخر . لسان العرب ج ١٨٢/٢ .

قال ابن إسحاق : فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها؟[1] .

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم (عدو الله) عبد الله ابن أبي بن سلول ومالك بن أبى قوقل ، وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[2] ، ففعل ﷺ .

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام[3] .

وأنزل الله سبحانه وتعالى فى ذلك قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، فنزلت سورة الحشر بأسرها توضح هذا الحدث الهام فى حياة المسلمين والذى كان له أكبر الأثر ، حيث خلصهم الله سبحانه وتعالى من قسم آخر من اليهود الذين كانوا يجاورونهم فى المدينة المنورة .

---

(١) وجاء الرد من رب العالمين فى سورة الحشر فى قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة و تركتموها قائمة على أصولها - الآية » سورة الحشر آية ٥ .

(٢) الحلقة : السلاح كله أو خاص بالدروع .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ / ١٩٩ - ٢٠١ .

وكان ذلك فى السنة الرابعة للهجرة .

وهكذا يتضح لنا أن سبب استخدام النبى ﷺ أسلوب القوة مع اليهود من بنى النضير كان ما بدر منهم من خيانة للعهد وغدر برسول الهدى عليه الصلاة والسلام ، وكان أن أراح الله سبحانه وتعالى المسلمين من شرهم بجلائهم عن المدينة .

وبهذا الجلاء بقى من اليهود بنو قريظة فقط ، وذلك بعد أن طرد عليه الصلاة والسلام بنى قينقاع ثم أتبعهم ببنى النضير جزاء اعتدائهم على المسلمين ، وتربصهم بهم الدوائر ، فرد الله كيدهم فى نحرهم ، وحرموا من النعمة التى كانوا فيها ، حيث الأمن والأمان بجوار رسول الله ﷺ - أحسن جوار وأكمله وأشرفه ، رحمة الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين .

ولم يمض وقت طويل حتى أعلنت الفئة الباغية من اليهود فى المدينة - وهم بنو قريظة - عن غدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق ، وبغضهم وكراهيتهم لرسول رب العالمين عليه الصلاة والسلام ، وذلك عندما تواطأوا مع الأحزاب وسمحوا لهم بمهاجمة المسلمين من الجهة التى كانوا يقطنونها ، فكان لزاماً على المسلمين أن يلقنوا هؤلاء الخونة درساً لن ينسوه أبداً .

يقول ابن هشام فى معرض الحديث عن غزوة بنى قريظة : (فلما كانت الظهر ، أتى جبريل رسول الله ﷺ ، كما حدثنى الزهرى ، متعجراً[1] بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها رحالة[2] عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوقد

---

(١) متعجراً : الاعتجار : أن يتعمم الرجل دون تلح ، أى لا يلقى شيئاً تحت لحيته .

(٢) الرحالة : السرج .

وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً ، فأذن فى الناس ، من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة .

قال ابن إسحاق :

وقدم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة وابتدرها الناس ، فسار على بن أبى طالب ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق ، فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث ، قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً .

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين[1] قبل أن يصل إلى بنى قريظة ، فقال : هل مر بكم أحد ؟ قالوا : يا رسول الله قد مر بنا دحية ابن خليفة الكلبى على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج .

---

(١) الصورين : موضع قرب المدينة بالبقيع ذكره الحموى فى معجم البلدان ج ٣ / ٤٣٢ .

فقال رسول الله ﷺ : ذلك جبريل ، بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

وكان أن حكم فيهم سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه ، بأن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1] »[2] .

وبهذا تخلص المسلمون من اليهود وانقطع دابرهم واستراحوا من غدرهم ومكرهم وبغضهم للإسلام والمسلمين فى عهد رسول الله ﷺ بعضاً من الوقت ، وطهرت المدينة منهم ، وزالت الغمة عن المسلمين بجلاء هذه الفئة الملعونة عنهم ، إذ أنهم بحق أعداء الإسلام والمسلمين ، حسداً من عند أنفسهم وكرهاً لسيد العالمين ﷺ ، وبغضاً لدينه القويم ، الذى أتى رحمة للناس أجمعين .

---

(١) الأرقعة : السموات ، الواحدة : رقيع .

(٢) سيرة ابن هشام من ص ٢٤٤ - ٢٥١ .

الفصل الثالث

دعوة قبائل الجزيرة العربية

الفصل الثالث

دعوة قبائل الجزيرة العربية

وكما ذكرنا عند الحديث عن بيعتى العقبة ، بأن ذلك كان فتحاً ونصراً للدعوة الإسلامية ، وانطلاقا إلى آفاق أوسع ، وبعد أن مكن الله سبحانه وتعالى للدعوة فى المدينة المنورة ، وأصبح المسلمون هم أصحاب الكلمة فى المدينة بعد ذلك النصر العظيم فى بدر ، وما تبعه من فضيحة لليهود ، بسبب غدرهم بالمسلمين واعتدائهم عليهم ، ومكرهم برسول الله ﷺ وإجلائهم عن المدينة إلى خارجها ، وما كتب الله لرسوله والمؤمنين من عزة ورفعة ، فى أحد ثم الأحزاب وما وصل إليه المسلمون من شأن عظيم فى جزيرة العرب حيث أصبحوا قوة يحسب لها حساب ، وما تمخضت عنه معاهدة الصلح فى الحديبية مع المشركين من نتائج عظيمة بسبب حكمة المصطفى ﷺ ، حيث كان لذلك الصلح أثره الطيب على الدعوة الإسلامية كى تنطلق إلى خارج دائرة هذه المنطقة المحصورة فى مكة والمدينة المنورة إلى أطراف جزيرة العرب شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، حيث أخذ عليه الصلاة والسلام فى تبليغ قبائل الجزيرة العربية هذه الدعوة السماوية عن طريق إرسال الرسل إلى تلك القبائل تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى فى سورة سبأ : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .

وذلك لينعم الإنسان بهذا الخير ، ويتحرر من عبادة العباد والتعلق بالأصنام والكواكب والنجوم ، ويعود إلى فطرته التى فطره الله سبحانه وتعالى عليها ، ويأخذ هذا الإنسان مكانته التى أرادها الحق سبحانه وتعالى له بين هذه المخلوقات من التكريم والاصطفاء ، فيعم بذلك السلام أرجاء تلك البقاع بالانقياد لأوامر الحق تبارك وتعالى ، والابتعاد عن نواهيه ، ليقوم بالخلافة فى الأرض كما أراد الله سبحانه وتعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون »(١) .

قام عليه الصلاة والسلام بهذه الخطوة الموفقة لأن الدين الإسلامى جاء لجميع الخلائق أسودهم وأبيضهم ، عربيهم وعجميهم ، لا ، بل إنسهم وجنهم ، وهاهو عليه الصلاة والسلام يقول فيما يرويه عنه عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »(٢) .

وكان فى هذه الخطوة المباركة كل الخير لهذه الدعوة ، ذلك لأنها تعدت حدود المدينة المنورة ومكة المكرمة إلى تلك البقاع فى أنحاء جزيرة العرب والتى كانت تغط فى سبات عميق من الظلم والكفر والطغيان والاستعباد والقتل

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٢) صحيح البخارى جـ ١ / ١٤٩ ، ١٥٠ عالم الكتب بيروت ط ٤ ، ١٤٠٥ .

والسلب والنهب ، فكانت تلك الرسائل وأولئك الرسل بمثابة الإشعاعات المبددة لتلك الظلمات ، إشعاعات الخير والمحبة والإخاء ، لتطمس تلك الأحقاد وتزيل تلك المعبودات التي كانت تعبد من دون الله سبحانه وتعالى إلى الأبد ، فلا يعبد في هذه الأرض إلا خالقها ومبدعها سبحانه وتعالى ، ويحل التوحيد الخالص محل الشرك والكفر ، وبذلك تتوحد الجهود وتتكاتف الأيدي لسعادة الإنسان ورخائه وعزته .

لقد كانت دعوته عليه الصلاة والسلام قبائل الجزيرة العربية في وقت مناسب جدا حيث كان ذلك بعد عدة انتصارات للمسلمين ، ثم عقد ذلك الصلح مع المشركين ، وفي هذا درس لمعشر الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ، لم يركن عليه الصلاة والسلام للراحة والدعة أو الانتظار بعض الوقت حتى يرى ما يفعل المشركون بمقررات ذلك الاتفاق ، وبذلك يضيع على الدعوة بعض الوقت ، بل تقدم بالدعوة خطوة إلى الأمام ، لم تقتصر على قبائل الجزيرة بل تعدت ذلك إلى ملوك وسلاطين وأباطرة وأمراء العالم في ذلك الوقت ؛ وذلك لأن الدعوة إلى هذا الدين عبارة عن حركة مستمرة ، لا تتوقف أبداً لأن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم كان يدعو الناس إلى الإسلام ثم يقوم بتعليم أولئك المؤمنين ما أوجبه الحق تبارك وتعالى عليهم ، ثم هو عليه الصلاة والسلام يرسل الرسل ويبعث البعوث ويعد السرايا ، ويخطط للغزوات بنفسه ، عمل متواصل ومستمر ، لا يعرف التوقف أبداً ، شعاره في كل ذلك الحكمة والتخطيط السليم ، الذي يضمن للدعوة الانطلاق بدون عوائق بعد توفيق الله سبحانه وتعالى ، ويضمن للداعية تبليغ هذه الدعوة بسلام وطمأنينة .

وسوف أتناول بحول الله وقوته فى هذا الفصل الأساليب التى تضمنتها تلك الرسائل التى بعث بها المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى قبائل الجزيرة العربية للوقوف على تلك الأساليب النبوية المباركة ودراستها وبيان أسرارها وفوائدها وإيضاحها بما يفتح الله سبحانه وتعالى على به من فهم لتلك الرسائل، مع الاستفادة من آراء الأقدمين والمعاصرين فى هذا الصدد ، لإبراز ذلك فى قالب جديد ومحدد لإثراء مكتبة الدعوة الإسلامية بذخائر الحكمة المحمدية المباركة فى هذا الجانب الهام فى هذا العصر الذى يجد الداعية أنه فى أمس الحاجة إلى الأساليب النبوية فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يعلمه ربه سبحانه وتعالى ، العالم بما يصلح لهذه النفس وما لا يصلح ، فهو الذى خلقها وهو وحده سبحانه وتعالى العليم بها ، والآيات المباركة المعلمة للبشير النذير عليه الصلاة والسلام أساليب الدعوة والتى حددت فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) .

وما وهبه الله سبحانه وتعالى من رجاحة العقل وصفاء الذهن والإيمان العميق الصادق ، والرحمة والرأفة بالناس جميعاً حتى يدخلوا فى دين الله سبحانه وتعالى .

كل ذلك فيه الخير العميم للدعاة والقدوة المباركة والفوائد العظيمة ، لأنه سير على نهج قويم ، كان عليه سيد الأنبياء والمرسلين ، تحقق به كل الخير

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

للبشرية جمعاء ، تفضل الحق سبحانه وتعالى على من يسلك هذا السبيل بالنصر والفلاح ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[1] .

وهذا عهد من الله سبحانه وتعالى لمن نصره وهو الغنى عن عباده ، المتفرد بالجلال والكمال سبحانه وتعالى .

يتضح لنا مما سبق أن هذه الدعوة المباركة قد أطلت على مرحلة جديدة من مراحلها المظفرة بقيادة سيد العالمين عليه الصلاة والسلام ، إنها مرحلة العالمية ، نعم عالمية الدعوة ، هذه الدعوة التى أرادها الحق تبارك وتعالى للناس جميعاً لينعموا بالخير والسلام ؛ لأنها رسالة الخير ورسالة السلام للناس جميعاً ، تدل على مكارم الأمور وتأمر بهـــا ، وتبين سفاسفها وتحذر عنها .

ولعل التمهيد إلى عالمية هذه الدعوة قد ظهر فى المرحلة المكية من الدعوة ، عندما جهر عليه الصلاة والسلام بدعوته واستمر فى ذلك حتى منازل أولئك الوافدين على مكة من قبائل العرب ، حيث كان عليه الصلاة والسلام ينتقل بين منازلهم يطلب منهم الإيمان بهذه الرسالة ومناصرة هذه الدعوة ، ولكن دون مجيب ، حتى أتت تلك المجموعة المباركة التى أراد لها الحق تبارك وتعالى الخير من أهل يثرب فآمنت وصدقت .

وكان أن انشغل عليه الصلاة والسلام بالأحداث الجسام التى توالت على هذه الدعوة ، وقيام الرسول عليه الصلاة والسلام بإقناعهم ومحاولة بيان

---

(١) سورة محمد الآية ٧ .

الخير والنور الذى جاءت به هذه الرسالة ، وما ينتظرهم من عز وكرامة إن هم أجابوا ونصروا وأيدوا هذه الدعوة المباركة .

مضت سنين مكث النبي ﷺ فى مكة بعد الإعلان الجهرى بالدعوة وهو مشغول بعملية الإقناع والبلاغ ، وعملية الدفاع عن الدعوة وإرساء قواعدها فى المجتمع المكى ، بتثبيت المؤمنين الممتحنين المعذبين ، والتهوين عليهم مما حل بهم من كفار قريش .

وعندما هاجر إلى المدينة كان مشغولا بإرساء قواعد المجتمع الجديد المبارك ، مجتمع الإسلام ، مجتمع الخير والإخاء وتأمين السلامة لهذا المجتمع من اعتداء المعتدين وكيد الكائدين من يهود ومشركين ، حيث توالت الغزوات فمن بدر إلى أحد إلى الخندق .

لقد كانت الأعوام الستة الأولى فى المدينة بصدق أعوام جهاد كبير ومجاهدة لكل الذين وقفوا أمام الدعوة وأرادوا النيل منها .

لهذا كله تأخرت الدعوة بعض الشيء من أن تصل إلى أطراف الجزيرة العربية وقبائلها الضاربة فى أجزائها المختلفة ، وإلى رؤساء وملوك العالم فى ذلك الوقت ، وسوف نبين بحول الله وقوته تلك الكتب التى بعث بها الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وفقاً لمضمونها ، ونوضح تشابه تلك المضامين التى وردت فى تلك الكتب والتى أرسلت إلى أهل الكتاب ، الذين لديهم علم بنبي آخر الزمان وفقاً لما جاء فى كتبهم المقدسة من عند رب العالمين ، ونبرز الاختلاف بين هذه الكتب وتلك التى أرسلت إلى من كانوا يدينون بدين غير سماوى ، مثل كسرى فى بلاد الفرس ، معتمدين فى ذلك ، ما ورد فى كتب السيرة النبوية العطرة ، وما روى فى كتب الحديث الشريف ، كصحيح الإمام البخارى رحمه الله .

وفى البداية سوف نقف عند هذه العبارة التى أوردها ابن سعد فى طبقاته « وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم »[١] .

ولن يكون ذلك مستغربا أو مستحيلا أن يحدث لرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد حدث الكثير والكثير من المعجزات لهذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

على العموم يمكن حدوث ذلك استناداً للروايات الأخرى التى ذكرت أن ذلك حدث لرسل عيسى عليه السلام ، وكيف برسل سيد الأنبياء والمرسلين ؟ إن الله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير .

يقول الأستاذ الدكتور محمد الجيوشى فى هذه القضية :

« ومن تتبع تفصيلات الحوار الذى دار بين الرسل ومن أرسلوا إليهم ، يبدو أنهم كانوا قادرين على مخاطبتهم بلغاتهم »[٢] .

ومعلوم أن العرب كانوا يملكون تفوقاً عقلياً بارزاً ، وقدرة على معالجة الأمور بشكل جيد ، علاوة على أنهم كانوا أصحاب أموال وتجارة أوجبت عليهم الاتصال بمن حولهم من سكان هذه المعمورة ، ولقد بين القرآن الكريم فى سورة قريش ذلك التواصل والترحال بسبب التجارة ، الأمر الذى يمكن أن ينتج عنه معرفة بلغة تلك الأمم التى كانت قريش تتعامل معها.

يقول الحق تبارك وتعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ /٢٥٨ .

(٢) محاضرة بعنوان « كتب رسول الله ﷺ » للأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى ١٤٠٤ هـ .

والصيف »[1] ، على افتراض أننا لم نعول على الجانب الإعجازى ، والذى اطمئن إليه ، حسب رواية ابن سعد أن هذا ممكن الحدوث ، فلقد أعز الله سبحانه وتعالى ونصر هذه الدعوة فى غير موطن بجنود من الملائكة والحفظ من كيد الأعداء من يهود ومشركين ومنافقين حاقدين على الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام .

إن هذا الدين العظيم الذى ارتضاه رب العالمين للناس أجمعين ، والذى جاء بعد أن بعدت الإنسانية عن حقيقتها وفطرتها التى فطرها الحق سبحانه وتعالى عليها ، جدير أن يسود وأن يكون الملاذ الوحيد لهذه الإنسانية المعذبة والغارقة فى أوحال الوثنية والاستعباد ، فإمكانية نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم لغة الأمم التى بعثوا إليها واردة جداً والحال كما ذكرنا ؛ لأن الحق تبارك وتعالى تكفل ووعد بنصر من ينصر دينه ويعلى كلمته ، كما أن الحوار الذى دار بين حاطب والمقوقس يستفاد منه أن ابن أبى بلتعة كان يعرف لغة القوم محيط بها .

فمسألة تكلم الرسل بلغة من أرسلوا إليهم لا تستبعد من أنها آيات ومعجزات بين يدى هذه الدعوة ، وهى جديرة بالبحث والتقصى .

وموضوع لغة الأقوام المدعوين من الأهمية بمكان ، بحيث تقوم الجهات المعنية بالدعوة إلى الإسلام ، ببحثه واستخلاص النتائج ، لإعداد الدعاة الحاذقين بلغات شعوب أفريقيا وآسيا وأوربا والأمريكتين واستراليا ، أو على الأقل الإلمام الكافى ببعض اللغات فى العصر الحالى والتى يسمونها

---

(١) سورة قريش الآيتان : ١ ، ٢ .

اللغات الحية كالفرنسية والإنجليزية وذلك لتأثر شعوب تلك الأقطار بالاستعمار الذى عمل على فرض لغته على تلك الشعوب المغلوبة المقهورة .

لقد اتضح لى بعد دراسة كتب رسول الله ﷺ إلى بعض زعماء العرب ورؤساء قبائلها ومقارنتها ببعض ، أن هناك تشابهاً فى ألفاظ تلك الكتب التى أرسلها عليه الصلاة والسلام إلى تلك الزعامات ، وأخص بالذكر الكتب التى أرسلت إلى :

(أ) جيفر وعبد ابنى الجلندى .

(ب) هوذة بن على الحنفى .

(ج) الحارث بن أبى شعر الغسانى .

وقد لجأت إلى هذه الطريقة حباً فى الاختصار وعدم التطويل وبيان التشابه بين هذه الكتب لاستخلاص محتواها ، وبيان الأسلوب النبوى الكريم فى هذه الكتب ، وهو موضوع بحثنا .

فنلاحظ أن هذه الكتب بدأها عليه الصلاة والسلام بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) .

قال ابن سعد : كان رسول الله ﷺ ، يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهم ، حتى نزلت عليه : « اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها »[1] ، فكتب بسم الله ، حتى نزلت عليه : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن »[2] ، فكتب « بسم الله الرحمن » حتى نزلت عليه : « إنه من سليمان وإنه بسم الله

---

(١) سورة هود الآية : ٤١ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .

الرحمن الرحيم »[1] ، فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم »[2] .

بعد أن بدأ عليه الصلاة والسلام بالبسملة نجده يقول : من محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم يأتى بالسلام بلفظه « سلام على من اتبع الهدى » ، وهذا فى الكتب الثلاثة جميعاً التى أرسلها إلى الزعماء الثلاثة ، الذين أتينا على ذكرهم سابقاً .

بعد ذلك نجد مضمون الكتاب وهو الدعوة إلى هذا الدين والعبارات متشابهة ومتقاربة وتؤدى معنى واحداً وهى : أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، وفى كتاب آخر : أسلما تسلما ، وفى الكتاب الثالث : فاسلم تسلم .

وكان عليه الصلاة والسلام يبين لأولئك الزعماء حتمية بلوغ هذا الدين إلى بلدانهم وممالكهم بإذن الله سبحانه وتعالى ، ويتضح ذلك فى هذه العبارات النبوية المباركة ، فكتابه إلى جيفر وأخيه قال فيه عليه الصلاة والسلام : (وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما) .

وكتابه إلى هوذة بن على قال فيه ﷺ : (واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر) .

أما كتابه إلى الحارث فورد فيه : (يبقى لك ملكك) .

وسوف نأتى على بيان تلك الكتب ومن أرسلت معه من صحابة رسول الهدى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة النمل الآية : ٣٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

اولا : كتابه إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى

حمله عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام .

أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين .

وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام ، فإن ملككما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما[1] .

قال ابن سعد فى طبقاته : « قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وهما من الأزد ، والملك منهما جيفر يدعوهما إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتاباً وختم الكتاب .

قال عمرو : فلما قدمت عمان عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقاً ، فقلت إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٦٢ .

كتابك ، فمكثت أياماً ببابه ، ثم إنه دعانى فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم رفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، فقال : دعنى يومى هذا وارجع إلى غداً ، فلما كان الغد رجعت إليه ، قال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكت رجلا مافى يدى ، قلت : فإنى خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجى أصبح فأرسل إلى ، فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً وصدقا بالنبى ﷺ ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيما فيهم حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

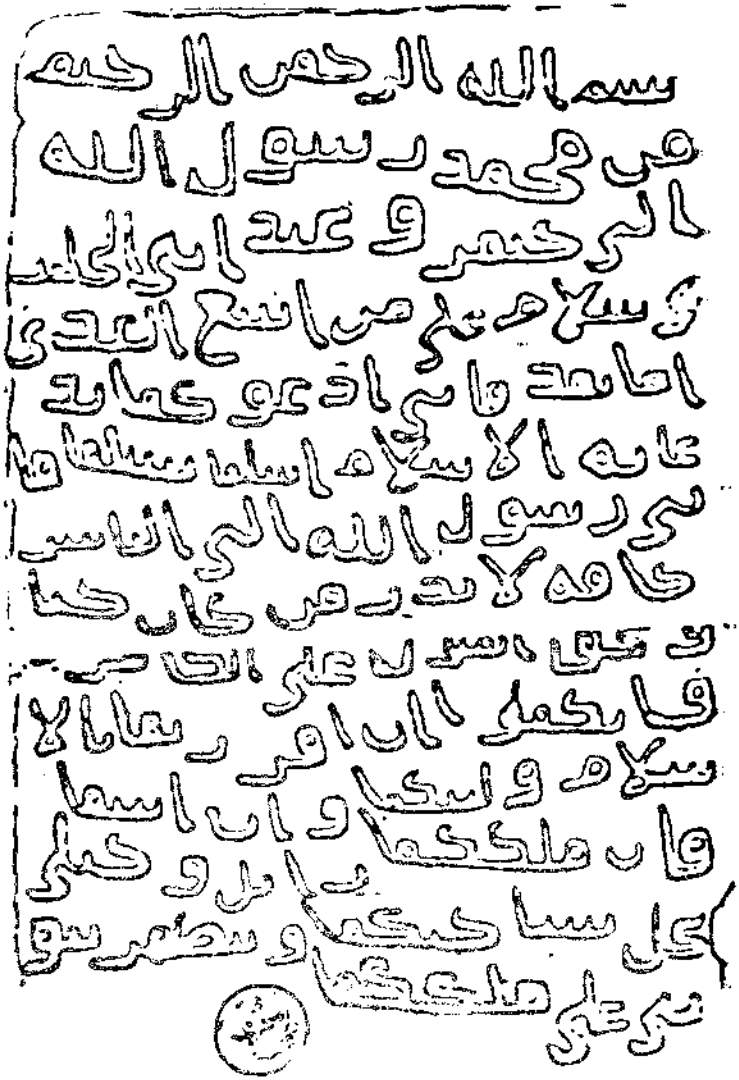

كتابه صلى الله عليه وسلم الى جيفر وعبد
ابني الجلندي

ثانيا : كتابه ﷺ إلى هوذة بن على الحنفى

صاحب اليمامة ، بعثه مع سليط بن عمرو العامرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم ، واجعل لك ما تحت يدك »[1] .

قال ابن سعد : (فقدم عليه وأنزله وحياه ، وقرأ كتاب النبى ﷺ ، ورد رداً دون رد ، وكتب إلى النبى ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

وأجاز سليط بن عمرو بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ ، وأخبره عنه بما قال ، وقرأ كتابه وقال : لو سألنى سيابة[2] من الأرض ما فعلت باد وباد ما فى يديه .

فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات[3] .

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سيابة : قال ابن منظور هى البلحة ، وجمعها سياب . لسان العرب جـ ١ / ٤٧٩ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢٦٢ .

ثالثا : كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

من أمراء غسان فى أطراف الشام ، وكان رسوله إليه شجاع بن وهب الأســـدى .

« بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك »[1] .

قال ابن سعد : قال شجاع : فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الأنزال[2] والألطاف[3] لقيصر ، وهو جاء من حمص إلى إيلياء ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة. فقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه - وكان رومياً اسمه مرى ، يسألنى عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : إنى قد قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبى ﷺ بعينه فأنا أومن به وأصدقه وأخاف من الحارث أن يقتلنى ، وكان يكرمنى ويحسن ضيافتى .

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٢٦ .
(٢) الأنزال : مفردها نزل وهو ما يهيأ للنزيل .
لسان العرب ص ٦٥٨ .
(٣) الألطاف : الطرائف مفردها: لطف .
المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، المركز العربى للثقافة .

وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه ، فأذن لى عليه فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ثم رمى به وقال : من ينتزع منى ملكى ؟

أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته ، على بالناس .

فلم يزل بفرض[1] حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : ألا تسير إليه واله[2] عنه ووافنى بإيلياء ، فلما جاءه جواب كتابه دعانى فقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ قلت : غداً ، فأمر لى بمائة مثقال ذهب ، ووصلنى مرى[3] ، وأمر لى بنفقة وكسوة وقال : أقرىء رسول الله ﷺ منى السلام ، فقدمت على النبى ﷺ ، فأخبرته ، فقال : باد ملكه .

وأقرأته من مرى السلام وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله ﷺ : صدق ، ومات الحارث بن أبى شمر عام الفتح »[4] .

وهناك فئة مارقة خارجة على مجتمعاتها أخذت السلب والنهب نهجاً لها ، وطريقاً للعيش والكسب ، كتب لها عليه الصلاة والسلام .

---

(١) الفرض : الهبة . لسان العرب جـ ٧/ ٢٠٢ ابن منظور .

(٢) إله : تقول: إله عن الشىء أى اتركه . لسان العرب جـ ١٥/ ٢٦٠ .

(٣) مرى : حاجب الحارث بن أبى شمر .

(٤) طبقات ابن سعد جـ ١/ ٢٦٠ ، ٢٦١ .

قال ابن سعد : وكتب رسول الله ﷺ : لجماع[1] كانوا فى جبل تهامة قد غصبوا المارة .

هذا نوع آخر من كتب رسول الله ﷺ التى بعثها إلى داخل الجزيرة العربية ، ليسوا رؤساء قبائل ولا زعماء أو ملوكا ، بل فئة خارجة على المجتمع ثائرة عليه أخذت السلب والنهب وقطع الطريق وسيلة للكسب عاشت فى ضلال هذه العادة الذميمة والفعلة المشينة ، دأبوا على الارتزاق من أموال الناس بغير حق ، فهم قطاع طريق ومغتصبون ، لجأوا إلى القوة والعنف ، لم يهملهم عليه الصلاة والسلام ويتركهم يعيشون فى الأرض فساداً ، بل نظر إليهم نظرة رحمة وشفقة وعطف ، وفى نفس الوقت كانت هذه النظرة بمثابة تلمس لأوضاعهم وأسباب جنوحهم ، ووقوفاً على الظروف التى أدت بهم إلى هذا السلوك ، وما دفعهم أن يعتزلوا مجتمعاتهم ويخرجوا عليها ، ويحطموا تقاليدها وأعرافها التى كانت تدين مثل هذا التصرف بكل شدة وعنف ، كتب عليه الصلاة والسلام إلى هذه الفئة من فئات مجتمع الجزيرة العربية ؛ لأن الإسلام إنما أتى للجميع لا فرق بين هذا وذاك ولا تفاضل أو ميزات لأحد على أحد إلا ذلك التفاضل القائم على العمل ودرجة القرب من الله سبحانه وتعالى وتعاليم الدين القويم ، كتب لها عليه الصلاة والسلام ليبلغها أمر هذا الدين ، فإن أطاعت فهذا ما كان يرجوه ، وإن عصت وبغت كان لها شأن آخر ، فربما كان سبب مروقها ظلم لحق بها ، أو عدوان أرغمها على فعلتها

---

(١) الجماع : أخلاط من الناس أو الضروب المتفرقون من الناس ـ لسان العرب جـ ٨/٥٦ .

تلك ، والإسلام إنما أتى للقضاء على جميع دوافع الشر والظلم والعدوان بكل أشكاله وألوانه .

فهى فئة مريضة حقها على مجتمعها ممثلا فى العقلاء والمصلحين أن يقفوا على أسباب ذلك المرض ويصفوا الدواء المناسب ، إلا أنها لم تجد من يقوم على شئونها ويرعى مصالحها ويحافظ على بقائها ضمن حدود مجتمعها ، فاستمرت فى خروجها على مجتمعاتها ، وممارسة ذلك السلوك الشائن غير المقبول من الناس جميعاً .

وكأن مكاتبة رسول الله ﷺ لهم قد فتحت أبواب الخير أمامهم ليلجوها ، ويستظلوا بعدالة الإسلام ورحمته التى أتت للناس جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، حرهم وعبدهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وينعموا بالخير العميم الذى أتى به هذا الدين العظيم من إحقاق للحق وردع للظلمة وإنصاف للمظلومين المقهورين .

ما أعظم هذا الدين ، وما أرحمه بالناس جميعاً ، وهذا هو كتاب الهادى البشير إلى تلك الفئة الظالمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لعباد الله العتقاء إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حر ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم ، وما كان لهم من دين فى الناس رد إليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان ، وإن لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد . والسلام عليكم »[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١/٢٧٨ .

إن هذه العبارات التى تكون منها هذا الكتاب من الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى تعليق أو شرح أو بيان ، وكيف لا يكون ذلك وهى صادرة من أفصح خلق الله كلهم عليه الصلاة والسلام ، وقد آتاه ربه سبحانه وتعالى جوامع الكلم ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت بجوامع الكلم »[1] . رواه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الجهاد .

إن الاهتمام البالغ من رسول الله ﷺ بهذه الفئة المارقة أعاد لها الثقة فى نفسها ، وأبان لها الخير ورغبها فيه ، وبذلك يكسب المجتمع سواعد أخرى تعمل على بنائه وإسعاده والمشاركة فى مسئولياته والقضاء على مواطن الفساد فيه ، وفرص الخروج على أحكامه ، والمشاركة الإيجابية فى كل ما من شأنه توفير الرخاء والحياة الآمنة فى ذلك المجتمع والقضاء على أسباب الظلم التى أدت بتلك الفئـــة إلى الخروج على المجتمع ومحاربته بقطع الطريق والسلب والنهب .

كما نجد نوعاً آخر من كتب رسول الله ﷺ إلى حكام الجزيرة العربية الذين كانوا على علم بالكتب السماوية ، ومن بين رعاياهم من كان على الديانة الموسوية أو العيسوية أو عبادات أخرى كالمجوسية ـ مثلا ـ والوثنية ما أنزل الله بها من سلطان خاطبهم الصادق الأمين وبلغهم رسالة ربهم .

وقد سجلت كتب السير من هذا النوع رسالتين .

ويظهر من منطوق هاتين الرسالتين أن أولئك الأقوام الذين كتب لهم رسول الهدى ﷺ يدينون باليهودية والنصرانية ، أو يوجد بين رعاياهم من يعتنق تينك الديانتين بالإضافة إلى المجوسية وعبادة الأوثان .

وسوف نعرض هذين الكتابين لبيان التشابه الذى بينهما .

---

(١) فتح البارى جـ ٦/٤٦٩ .

اولا : كتاب المنذر بن ساوى التميمى أمير البحرين.

حمله إليه العلاء بن الحضرمى رضى الله تعالى عنه .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى .

سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أما بعد : فإنى أذكرك الله ، فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، ومن يطع رسلى ، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى . وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً . وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »[1] .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٤٦ .

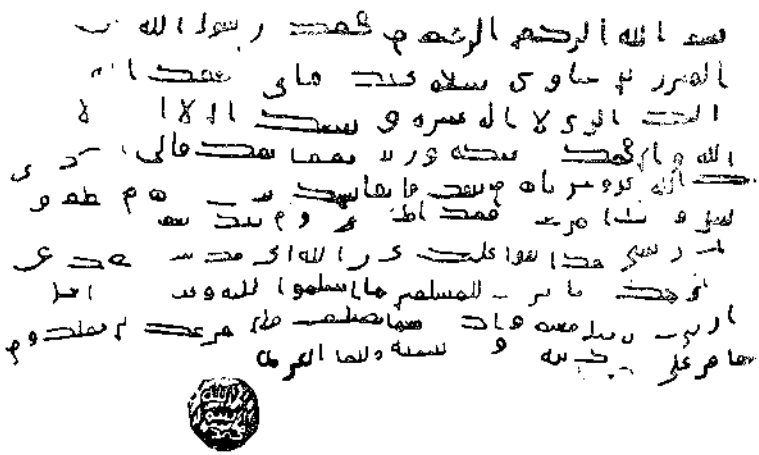

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى

ثانياً : كتاب الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال

وبعثه مع عياش بن أبي ربيعة المخزومي .

قال ابن سعد عن الزهري قال : كتب رسول الله ﷺ إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير : سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله وأن الله وحده لاشريك له ، بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود: عزير ابن الله ، وقالت النصارى : الله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله[1] .

يتضح من ذلك وجود تلك الديانات في تلك الأصقاع واعتناق أولئك تلك الأديان ، وأخص بالذكر الأديان المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى .

كما أورد ابن سعد ما قاله عليه الصلاة والسلام لعياش بن أبي ربيعة موجهاً إياه إلى ما يجب أن يعمله ، مبيناً له أوضاعا معينة كان القوم عليها ، وهي من الدقة بمكان بحيث لا يعلمها إلا من عاش مع تلك الأقوام وخالطهم ومكث في ديارهم وقتاً طويلا يسمح له بمعرفة عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم الاجتماعي وارتباطهم ببعضهم ، ومعلوم أن النبي ﷺ لم يذهب إلى اليمن ، ومعلوم أيضاً بعد المسافة بين مكة واليمن أو المدينة المنورة واليمن ، مما يدل على أن ذلك الوصف الدقيق لأحوال القوم والوقوف على شئونهم ومعرفة أسلوب حياتهم وتركيبة ذلك المجتمع الدينية ، إنما هو وحي من عند الله سبحانه وتعالى ، اطلع عليه النبي ﷺ بجلاء الأمر الذي جعله عليه الصلاة والسلام يدلي لعياش بتلك المعلومات الدقيقة عن ذلك المجتمع المرسل إليه ،

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢٨٢ .

وصدق ربنا العظيم حين قال : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »[1] ، وهذه ليست الأولى أو الأخيرة ، فلقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من هذه المعجزات النبوية ، مما أطلعه عليها الحق تبارك وتعالى تثبيتاً له عليه الصلاة والسلام ، ونصراً لهذا الدين القويم الذى ارتضاه رب العالمين لعباده جميعاً كما قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[2] .

يقول ابن سعد : قال ﷺ ـ والحديث لعياش المخزومى : « إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين وسل الله النجاح والقبول ، واستعذ بالله وخذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم فإنهم قابلون واقرأ عليهم : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين »[3] ، فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل ترجموا وقل حسبى الله (آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير)[4] ، فإذا أسلموا فسلهم قضبهم الثلاثة التى إذا حضرو بها سجدوا ، وهى من الأثل قضيب ملمع ببياض

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣ .

(٣) سورة البينة الآية ١ .

(٤) سورة الشورى الآية ١٥ .

وصفرة ، وقضيب ذو عجر[1] كأنه خيزران والأسود البهيم كأنه من ساسم[2] ، ثم أخرجها فحرقها بسوقهم .

قال عياش : فخرجت أفعل ما أمرنى رسول الله ﷺ ، حتى إذا دخلت إذ الناس قد لبسوا زينتهم ، قال : فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط فانتهيت إلى قوم فى قاعة الدار فقلت : أنا رسول رسول الله وفعلت ما أمرنى، فقبلوا ، وكان كما قال ﷺ »[3] .

وبعث ﷺ كتاباً إلى يهود خيبر[4] يبلغهم رسالة ربهم ويدعوهم إلى الإسلام الحنيف ، الدين القويم ، وإظهار الحق الذى جاءت به كتبهم ، والمتمثل فى الدين الإسلامى الذى أمروا أن يتبعوه ، ويدينوا به .

يقول محمد بن طولون الدمشقى فى كتابه : أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين : أخبرنا السراج عمر بن على الخطيب عن محمد بن إسحاق عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يقول : كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر :

---

(١) عجر : جمع عجرة وهى العقدة فى الخشبة ، اللسان جـ ٤ / ٥٤٣ .

(٢) ساسم : شجرة يقال لها : الشيز وهو شجر الجوز أو خشب أسود . اللسان جـ ١٢/ ٢٨٠ ، جـ ٥ / ٣٦٣ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٤) خيبر: على بعد مائة وخمسين كيلا من المدينة كانت دار بنى قريظة .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله عز وجل قال لكم يامعشر اليهود وأهل التوراة وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم أن (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما)[1] وإنى أنشدكم بالله الذى أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله إلا أخبرتمونا هل تجدون ذلك فى كتابكم فلاكره لكم عليكم (قد تبين الرشد من الغى)[2] وأدعوكم إلى الله تعالى وإلى نبيه ﷺ »[3] .

وقد ورد فى كتب السير كتب كثيرة أرسلها عليه الصلاة والسلام إلى القبائل العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام والإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وترك عبادة الأوثان وغيرها من العبادات أو الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية ، والتوجه إلى الحق تبارك وتعالى بالإيمان بخاتم النبيين وسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، والدخول فى الدين القويم الذى ارتضاه الحق تبارك وتعالى للناس أجمعين .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ إلى آخر السورة .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٣) أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين للإمام محمد بن طولون الدمشقى تحقيق محمود أرناؤوط ، مؤسسة الرسالة .

الأسلوب النبوى

من خلال كتبه صلى الله عليه وسلم

لقد ذكرت فى معرض الحديث عن كتب رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب بأن تلك الكتب تختلف حسب من أرسلت إليه ، وذلك لأن بعضاً منهم كان من أهل الكتب السماوية ، والبعض الآخر كان من الوثنيين ، أما المضمون العام لتلك الكتب فيكاد يكون موحداً ، وهو الدعوة إلى الإسلام، بألفاظ متقاربة ومتشابهة ، مثل : أسلما تسلما ، آمن بالله وصدق .

وجميع كتبه ﷺ أحرف من نور أملاها من كان خلقه القرآن ، من أدبه ربه فأحسن تأديبه أفصح من نطق بالعربية ﷺ .

يقول مصطفى صادق الرافعى - رحمه الله - فى حديثه عن الكلام عن الأسلوب النبوى : « تجده قصداً محكماً متسايراً يشد بعضه بعضاً وكأنه صورة روحية لأشد خلق الله طبيعة ، وأقواهم نفسا وأصوبهم رأيا ، وأبلغهم معنى ، وأبعدهم نظراً وأكرمهم خلقاً »[1] .

والكلام عن فصاحة المصطفى ﷺ يحتاج إلى بحث مستقل ، إذ لا تفيه حقه من البيان والإيضاح هذه السطور القليلة ، ولولا خشية الإطالة على الرغم من أنها محببة للنفس لأوردنا ما قيل عن فصاحة سيد العرب والعجم ﷺ ، لا . بل سيد ولد آدم .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق ص ٢٩٣ دار الكتاب العربى ، بيروت .

وسوف نورد الأساليب النبوية فى النقاط التالية :

أولا : الرفق فى القول :

إن أسلوب النبى ﷺ والذى يبدو واضحاً فى هذه الكتب يغلب عليه الرفق فى القول ، وهذا الأسلوب ليس مقتصراً على كتبه التى بعثها يدعو الناس من خلالها إلى دين الله القويم ، بل كان عليه الصلاة والسلام رفيقاً فى الأمر كله ، يحب الرفق ويدعو إليه ويأمر أمته به ، وقد أفرد الإمام البخارى فى صحيحه باباً فى الرفق قال فيه : باب الرفق فى الأمر كله عن عروة بن الزبير : أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قالت عائشة : ففهمتها ، فقلت : وعليكم السأم واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فقلت : يا رسول الله ، أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ قد قلت : وعليكم »[1] .

قال ابن حجر : الرفق - بكسر الراء وسكون الفاء بعدها قاف ، هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف .

لقد كان قولا رفيقاً بما تحمل هذه الكلمة من معنى ذلك الذى تحدث به رسول الهدى ﷺ إلى تلك القبائل داعياً إياها إلى الدخول فى الإسلام ، ومعلوم أن النفس البشرية تميل بطبعها وفطرتها إلى الخير ولين الجانب ، وتتجاوب معه تجاوباً جيداً وكان هذا هو ما حدث ، إذ استجاب أولئك لأسلوب الرفق الذى لمسوه من كتاب رسول الله ﷺ إليهم .

---

(١) فتح البارى لابن حجر جـ ١٣/٥٧ مكتبة الحلبى بمصر .

وأورد الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير »[1] .

وذكر الإمام مسلم فى باب الرفق هذا الحديث الآخر عن عائشة رضى الله تعالى عنها زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء « إلا شانه »[2] . صدقت يا سيدى يا رسول الله ، لقد كان لهذا الرفق أثره على أولئك الكفار عبدة الأصنام حيث حرك فى نفوسهم كوامن الخير فأسرعوا ملبين نداء الحق ، وكما قال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : بأن الله سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق ، فكانت نتائج هذا الأسلوب واضحة من خلال الترجمة العملية التى صدرت من أولئك الناس على كتب رسول الله ﷺ بانضوائهم تحت راية التوحيد .

وكان ذلك الحديث موجهاً لأم المؤمنين بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما والذى أورده الإمام مسلم أيضاً حيث يقول :

عن عائشة زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ، وما لا يعطى على ما سواه »[3] .

ثانياً : حسن اللفظ :

لقد كانت ألفاظ كتب رسول الله ﷺ حسنة لم تتضمن فحشا فى القول

---

(١) ، (٢) مختصر صحيح مسلم للمنذرى تحقيق الألبانى ص ٤٧٤ ، المكتب الإسلامى .

(٣) المرجع السابق .

أو استعلاء على من أرسلت إليهم ، أو كبرياء تنطلق من أنه يدعو إلى حق ويأمر بخير ويعمل على إنقاذهم مما هم فيه من الكفر والطغيان ، وحاشا أن يكون ذلك ممن بعثه الله رحمة للعالمين ، انظر إلى هـــذه العبارة التى تضمنها كتابه ﷺ إلى هوذة الحنفى « فاسلم تسلم ، واجعل لك ماتحت يدك » والعبارة الأخرى التى تصدرت معظم الكتب المرسلة « سلام على من اتبع الهدى » .

لقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب النفس البشرية فى صفائها الذى لم يختلط به ما يشوبها ، فكانت هذه النفس سريعة الاستجابة ، طائعة مختارة ، لأن اللفظ الحسن يعمل فى النفس البشرية الشىء الكثير يؤثر فيها فتتفاعل معه وتهفوا إليه ، وينتج عن ذلك التلاقى والائتلاف ، بعكس اللفظ غير الحسن أو السىء فإنه لا يؤدى إلى خير ولا يجنى منه فائدة ، بل يعود على صاحبه بالسوء والخسارة ، فتنفر منه النفوس ، وتشمئز منه القلوب ، وتنبذه العقول .

لقد كانت ألفاظ كتب رسول الله ﷺ من الحسن ما سحرت به ألباب أولئك الناس وأثرت فى نفوسهم واستحوذت على عقولهم ، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : « وإن من البيان سحراً »[1] .

يقول الرافعى : « ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليها القرآن بحقائقه ، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها من دليل فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول ،

---

(١) جزء من حديث فى صحيح مسلم — مختصر مسلم للمنذرى ، ص ١١٣ تحقيق الالبانى .

حتى ليس فيها عروة مفصولة محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ »[1] .

ثالثاً : صدق ما يدعو إليه ﷺ :

وهو توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة ، لم يكن يدعو عليه الصلاة والسلام إلى سلطان أو ملك أو رئاسة ، بل كان يدعوهم إلى خالقهم جل وعلا ، ليخلصوا له ويعبدوه وحده ، ويتركوا ما كانوا عليه عاكفين ، لم تكن دعوته تلك القبائل من خلال كتبه إليهم إلى عصبية أو مغنم شخصي؟ إذاً ماذا يريد منا ؟ — وكان الجواب حاضراً أمامهم ، لم يكن اتصاله بهم ومخاطبته إياهم من أجل كسب شخصي مادي أو معنوي ، بل كان دعوة صادقة وقياماً بواجب كلفه به رب العالمين سبحانه وتعالى .

وكان لهذا الأسلوب دوره الفعال في اقتناع أولئك الناس بهذه الدعوة الخالصة ودخولهم في دين الله أفواجا ، بعد ما ظهر لهم جميعاً صدق ما يدعو إليه ﷺ ، مما يوافق فطرهم السليمة ونفوسهم الصافية من شوائب الوثنية .

لم تتضمن كتبه ما يدل على أنه يدعو إلى مكاسب شخصية مما أظهر صدق هذه الدعوة وصدق الداعي عليه الصلاة والسلام ، وأنه لا يريد منهم إلا عبادة الله وحده لاشريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، وترك عبادة الحجارة والكواكب وغيرها مما كانوا عليه عاكفين .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص ٢٧٩ .

رابعاً : أسلوب الإنذار :

وهذا واضح من خلال دراسة كتابه ﷺ إلى جيفر حيث يقول فيه : « وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل » . وقوله ﷺ : « أسلم تسلم » .

وهذا الأسلوب يدفع بالمخاطب إلى النظر فى الموضوع بجدية واهتمام ، ويدفعه إلى السرعة فى الرد وأخذ الأمر مأخذ الجد ، ويعطيه الفرصة وحرية الاختيار بين أمرين ، أو على الأصح ثلاثة أمور وهى : إما الإسلام وإما دفع الجزية وإما الخيار الثالث وهو الحرب ، وهذا الأسلوب من الوضوح بمكان بحيث لا يترك لأولئك المخاطبين فرصة للتباطؤ فى الرد ، أو عدم الاهتمام بالموضوع ، فإن من أراد السلامة فعليه بالإسلام والتظلل براية سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام وهى راية التوحيد لله رب العالمين .

ونقصد بالإنذار هنا : التحذير ، وهذا واضح من الألفاظ التى أوردناها سابقاً والتى اشتملت عليها كتب رسول الله ﷺ لقبائل العرب .

وهناك عبارة أخرى تضمنها كتابه ﷺ إلى أبناء عبد كلال ، الحارث وسروح ونعيم وهى : « سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله » .

إن هذا الأسلوب التحذيرى كان له دوره الفعال فى لفت أنظار القوم إلى عاقبة ما ينتظرهم إن هم لم يسلموا ويؤمنوا بهذا الدين الذى أنزله رب العالمين على هذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

خامساً : أسلوب القوة :

وهذا يتضح من قوله ﷺ لابن الجلندى : « وخيلى تحل بساحتكما » أى أنهما إن أبيا ولم يسلما لله رب العالمين ، فليس لهما إلا الحرب .

وهذا الأسلوب أظهر قوة المسلمين ، وأنهم يملكون أساليب أخرى إن لم يحصلوا على نتائج طيبة من الأساليب السلمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمرهم بقتال المعاندين الذين يصرون على كفرهم بعد ما تبين لهم الحق ، إذا هم أصروا على كفرهم ، فليس لهم إلا القتال لكسر كبريائهم وإعادتهم إلى فطرتهم السليمة التى فطرهم خالقهم عليها .

قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »(١) .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »(٢) .

وأعنى بالقوة : الجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى لإعلاء كلمة التوحيد ، بنشر الإسلام والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ثم المجادلة بالتى هى أحسن ، بعد ذلك تأتى مرحلة الجهاد وقتال الكفار ، لردهم إلى الصواب وإنقاذهم من ظلمات الكفر لينعموا بنور الإسلام حيث العبودية الحقة لله رب العالمين ، وترك الأنداد والأصنام وعبادة الشيطان .

وهذا الأسلوب يظهر للكفار أن المسلمين قادرون على قتالهم إن لم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

تؤثر فيهم الموعظة الحسنة والدعوة السلمية إلى هذا الدين القويم ، مما يجعل المسلمين مرهوبي الجانب ؛ لأن قتالهم للكفار لا ينظرون إليه بأنه عملية قتال ثم نصر وحصول على غنيمة ، بل ينظرون إليه بأنه جهاد فى سبيل الله، فهم فى شوق إلى ما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين فى سبيله من النعيم والأجر العظيم فى الدنيا والآخرة ، لذا تراهم يتسابقون إلى ساحات الوغى للدفاع عن الإسلام ، ونشره بين أمم الأرض جميعاً .

كما أن هذا الأسلوب يضع أمام الكفار الخيارات جميعها ليتعاملوا معها بكل حرية ؛ لأن المسلمين بقيادة رسول رب العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام من عاند وجحد وأصر على كفره ؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى منحهم الحق فى قتال أولئك المعاندين ، وكان جزاء من قتل منهم الجنة خالداً مخلداً فيها ورضى الله عنه وأعد له من النعيم والرزق العظيم ما تتشوق إليه كل نفس ويتمناه كل مسلم — لذا نجدهم يتمنون الشهادة فى سبيل الله سبحانه وتعالى فى ساحة القتال أمام الكفار ، ويتدافعون إلى ساحات الوغى إعلاءاً لكلمة التوحيد وطلباً للشهادة ، فالموت فى ساحة القتال عندهم غاية المنى ، لما أعده الحق تبارك وتعالى للشهداء من منازل رفيعة عالية . قال تعالى :

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ ، ١٧٠ .

سادساً : اختيار الرسل الذين يحملون الكتب :

لقد كان عليه الصلاة والسلام يختار من بين أصحابه من يكون بحق رسول رسول رب العالمين عليه الصلاة والسلام ، فالرجال معادن ، وأصحاب رسول الله ﷺ كلهم أخيار ، لكن يوجد من بينهم من تتوفر فيه بعض الصفات أو يبرز فى تلك الصفات عن غيره من إخوانه رضى الله عنهم جميعاً ، ومعلوم أن هناك صفات خلقية يمن بها الله سبحانه وتعالى على بعض من عباده ، تجعل ذلك الشخص مهيب الجانب ، وكان أولئك الرسل قد تعلموا فى مدرسة النبوة المحمدية ، كانوا مستوعبين للدور المراد منهم ، والمهمة المنوطة بهم ، لما كان له أثره فى إنجاح المهمة ، وبلوغ الكتب أهلها المرسلة لهم من لدن رسول الله ﷺ ، وكان ﷺ يزود أولئك الرسل بالتوجيهات والإرشادات والنصائح ، ليبلغوا كتبه ﷺ بأحسن الطرق وأنجحها وأيسرها وأوضحها ، ويخاطبون بما يفهمون ، ويبين لهم عليه الصلاة والسلام أحسن السبل لمواجهة مختلف الظروف والأحوال .

وهذا الأسلوب كان بمثابة المدرسة التى تخرج الدعاة بعد أن أعدوا ووجهوا إلى ما يجب أن يقوموا به لإبلاغ هذه الدعوة ، وإنفاذ كتب رسول الله ﷺ ، والتصرف السليم فى كل الظروف التى يمكن أن يتعرضوا لها ، من فهم أصول هذا الدين وحقيقته لبيانها لأولئك الناس ، والرد على الأسئلة والاستفسارات التى يمكن أن يتعرضوا لها .

وقد كان اختيار رسول الله ﷺ لرسله ناجحاً إلى أبعد الحدود بفضل الله سبحانه وتعالى ، حيث قاموا بتلك المهمة خير قيام ، مقتفين أثر

سيدهم ﷺ فى الدعوة بالحكمة والرفق بالمدعوين حتى يقفوا على حقيقة هذا الدين العظيم .

لقد أحاط أولئك الرسل بالقضية المكلفين بها ، وهى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى فنجحوا فى مهمتهم بعد أن تربوا فى مدرسة النبوة وتشربوا من أخلاق وصفات سيدهم ﷺ الشىء الكثير ، فكانوا خير من يمثل الإسلام فى هذا الباب .

سابعاً : حسن العرض :

لقد أحسن عليه الصلاة والسلام فى عرض هذه الدعوة على قبائل العرب ، ويظهر هذا الحسن فى روعة البيان ، وقلة الكلام ووضوح المعنى — ماذا كتب لأولئك الزعماء ؟ .

من محمد رسول الله ، أسلم تسلم — ليس هناك مقدمات أو تمهيدات أو غلظة فى القول ، بل عبارة محددة واضحة بينة ، وجمل قصيرة هادفة ، تنطلق من توافق هذا الأسلوب وأحوال المخاطبين النفسية — لقد حققت الجماعة المسلمة بقيادة الرسول ﷺ مكاسب عظيمة ، وصلت أخبارها إلى أطراف الجزيرة العربية — وأصبحت هذه الجماعة الموحدة لها مكانها البارز فى ساحات القتال ، فمن بدر الكبرى إلى أحد ، ومن أحد إلى الأحزاب ، ومن الأحزاب إلى تلك المناوشات مع بعض القبائل ، ومع كفار مكة ، وكان صلح الحديبية .

لقد كانت تلك الانتصارات المتلاحقة للمسلمين بقيادة سيد العالمين عليه الصلاة والسلام تطرق آذان قبائل العرب مبرهنة على أن الغلبة والنصر

والتمكين لعباد الله المؤمنين ، وأن هذا الدين إنما جاء لعزة هذا الإنسان ، وإنقاذه مما كان متردياً فيه من الجاهلية العمياء ، فلا تجد إلا عاكفاً على صنم أو مستقسماً بأزلام ، أو شارباً لخمر ، أو قاتلا لنفس ، أو آخذاً بثأر — مجتمع مريض تحيط به الشرور من كل جانب ، فى خضم هذه الترديات ، يشع نور الهدى ويرتفع صوت الحق — يناديهم جميعاً ، هلموا إلى رب غفور رحيم — هلموا إلى دين ارتضاه رب العالمين لعباده أجمعين ، كل هذه الأوضاع التى ترجح كفة المسلمين ، ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم يبلغ أولئك الزعماء ، هذا الأمر بكل حكمة ولين ، أسلموا — تكتب لكم السلامة — السلامة فى الدنيا والآخرة ، والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى .

ولعل المشتغلين بالدعوة يستفيدون من هـــذا الأسلوب الذى يعتبر بحق العنصر الهام فى تبليغ هذه الرسالة إلى الناس جميعاً — وذلك ببيان الخطوة الأولى والهامة ، وهى توحيد الله سبحانه وتعالى بتسليم النفس لخالقها بالطاعة والتخلص من كل ما له علاقة من قريب أو بعيد بالشرك وأهله ، تحقيقاً للعبودية الحقة لمستحقها سبحانه وتعالى .

ومعلوم فى حياتنا العامة أن حسن العرض له دور كبير فى إنجاح أى عمل — لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الحسن فى كل شىء فى القول وفى العمل ، حتى فى التفكير ، والتجارة ، والقضايا ، وليس غريباً ممن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وخصه بالخلق العظيم أن نجد هذا الأسلوب وغيره ، مما يضمن للدعوة نجاحاً ووصولا إلى جميع الناس ، ولن يستطيع أى إنسان مهما أوتى من بيان وحسن تصرف ، وقدرة نادرة على معالجة الأمور أن يصل

الى بعض مما تميز به صلى الله عليه وسلم عن الناس جميعاً ، فهو رسول رب العالمين ، لا ينطق عن الهوى .

فليس هناك مجال للمقارنة أو التمثيل أو التشبيه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق ذلك كله ، هو مثل فى كل شىء ما على الدعاة إلا أن يقتدوا به ويكون أسوتهم فقط ، أما أن يصل أحد إلى ذلك المستوى السابق فهذا بعيد المنال .

الفصل الرابع

دعوة حكام العالم والكتابة لهم

الفصل الرابع

دعوة حكام العالم والكتابة لهم

وتمضى الدعوة المباركة قدما إلى الأمام تحوطها عناية البارى تبارك وتعالى ، صلبة قوية ، وصمود الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، الرحمة المهداة تمضى إلى آفاق أرحب بعد أن كتب الله لها العزة والنصر ، وبعد أن قمع الحق تبارك وتعالى جحافل عبدة الأوثان وردكيدهم فى نحورهم فى بدر وأحد والخندق ، وقبلها بداية إجلاء قتلة الأنبياء أهل الشر والبغى والعدوان ، بعد أن نقضوا العهود والمواثيق ، وبعد أن اتضح لسيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم غدرهم وحسدهم وكيدهم الإسلام والمسلمين .

بعد هذه الانتصارات المتلاحقة ، وبعد أن توطدت هذه الدعوة المباركة شرع عليه الصلاة والسلام فى إبلاغها لملوك ذلك الزمان وقياصرته وأكاسرته .

يقول ابن سعد فى طبقاته : « لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ، فقيل : يارسول الله إن الملوك لا يقرأون كتابا إلا مختوما ، فاتخذ رسول الله ﷺ ، يومئذ خاتماً من فضة فصه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب »[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢٥٨ .

لقد كانت هذه الخطوة المباركة فى وقت كان من أنسب الأوقات ؛ وذلك لأنها أتت بعد تلك المعاهدة مع قريش ، وقبلها كانت الجبهة الداخلية آمنة مطمئنة ، حيث قام عليه الصلاة والسلام بمسئولية الدعوة فى الداخل خير قيام ، وأصلحت النفوس ، وطبق هذا النظام الإلهى الخالد على حياتهم وسلوكهم جميعاً ، وقطعوا شوطاً عظيماً وكبيراً فى ذلك ، بعد ذلك كله ، شرع الهادى البشير فى إبلاغ هذه الدعوة الخالدة إلى الناس جميعاً ، وكيف لا يفعل ذلك وهو المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً .

قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »(١) .

لم يبعث عليه الصلاة والسلام إلى قوم بأعيانهم ، بل لجميع الناس أسودهم وأبيضهم ، أحمرهم وأصفرهم ، عربيهم وعجميهم ، ذكرهم وأنثاهم ، صغيرهم وكبيرهم ، إنسهم وجنهم .

ورسالته رسالة شاملة بعيدة كل البعد عن طابع القومية أو العنصرية ، قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٢) .

وقال تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون »(٣) .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .
(٢) سورة المائدة الآية ١٥، ١٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨ .

بعث عليه الصلاة والسلام كتبه إلى أولئك الملوك والزعماء فى ذلك الوقت بالذات ؛ لأن المصلحة العامة تقتضى ذلك ، وكان فى مقدوره عليه الصلاة والسلام أن يرسل عدداً من أصحابه إلى هؤلاء الملوك والزعماء والرؤساء قبل هذا التاريخ بكثير ، إلا أن مسئولية الدعوة فى الداخل كانت الشغل الشاغل لسيد العالمين ، وفى ذلك درس عظيم لهذه الأمة ، ومن اشتغل منها بواجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى يضربه لها عليه الصلاة والسلام تعليما وتوجيهاً وإرشاداً إلى أنجح الأساليب وأقوم الطرق لإبلاغ الناس جميعاً هذه الدعوة المباركة ، وهذا الدين العظيم .

فإصلاح المسلمين أنفسهم هو بنفسه جزء هام جداً من دعوة غيرهم إلى الإسلام ، لأن الناس كانت وما زالت تبحث عن المثل الصالح فى السلوك ، والقدوة الطيبة فى الخلق والتعامل ، ليقتفوا أثره ويتبعوه .

لقد كان من بين أولئك الزعماء والملوك من كان من أهل الكتاب فهم يجدون ذكره ﷺ ووصفه وعلاماته فى كتبهم .

يقول الحق تبارك وتعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[1] .

يقول الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى فى كتابه فقه السيرة : « إن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل ، لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحوداً وكنوداً .

« وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا »[1] ، فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة . ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟ .

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور ، فإن ثقتهم العميقة فى سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة فى الطريق ، وتجعلها ، ولو كانت الشم الرواسى — هباءاً منثوراً »[2] .

لقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على هداية الناس جميعاً ، لأن هذا الدين للناس جميعاً ، وعالمية هذه الدعوة تنطلق من مصادر عظيمة جليلة تدعمها وتؤيدها وتضمن لها البقاء والخلود ، فى مقدمتها كتاب رب العالمين ، ولقد أوردنا فى بداية هذا الفصل بعضاً منها وسوف نلحق بعضاً من تلك الدلالات القرآنية على عالمية الدعوة الإسلامية .

قال تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »[3] .

---

(١) سورة الرفقان الآية ٤١ .
(٢) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٣٩١ دار الكتب الحديثة ط ٧ ، ١٩٧٦ م .
(٣) سورة الفرقان الآية ١ .

وقال تعالى : « وما هو إلا ذكر للعالمين »[١] .

وقال سبحانه : « وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين »[٢] .

وقال جل وعلا : « قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين »[٣] .

ومعلوم أن لفظ (العالمين) جمع معرف بأل ، وهو من صيغ العموم يدخل تحته كل ما خلق الله إلا ما أخرجه دليل .

والمراد من لفظة « العالمين » كل موجود سوى الله .

وهناك آيات ورد فيها لفظ الناس ، منها قوله تعالى :

« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل »[٤] .

وقوله تعالى : « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »[٥] .

ومعنى الناس فى هاتين الآيتين كل ناس ، أى كل فرد من أفراد الناس ، الأمر الذى يبرهن ويدل على عالمية هذه الدعوة المباركة وشمولها واستغراقها لكل فرد من أفراد الناس ذكراً أو أنثى .

---

(١) سورة القلم الآية ٥٢ .
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٤ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٩٠ .
(٤) سورة يونس الآية ١٠٨ .
(٥) سورة إبراهيم الآية ١ .

وهناك أدلة حديثية على عالمية هذه الدعوة الربانية ، منها مارواه الإمام البخارى رحمه الله فى صحيحه حيث قال :

(كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده : فقال رسول الله ﷺ : « أما صاحبكم هذا فقد غامر » . وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر ، قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبو بكر يقول : والله يارسول الله لأنا كنت أظلم .

فقال رسول الله ﷺ : (هل أنتم تاركون لى صاحبى إنى قلت يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت)[1] .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[2] .

---

(١) فتح البارى لابن حجر ، كتاب التفسير جـ ٨ / ٣٠٢ ، السلفية .

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ جـ ١ / ١٣٤ تحقيق فؤاد عبد الباقى ط ٢ بيروت لبنان .

وروى الإمام أحمد رحمه الله بسنده مرفوعاً : أن الرسول ﷺ قال : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل قبلي، ونصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته)[1] .

وهذا واضح جداً ودال على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس عامة بخلاف من سبقه من الأنبياء الكرام عليهم السلام فإنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة .

ومعلوم أن الفرس والروم كانا يحكمان معظم بقاع الأرض في زمن مبعث النبي ﷺ ، وكانا يملكان السيطرة بما لديهما من عدة وعدد ، وبيدهما أكبر قوة في ذلك الوقت ، وأن ملكهما امتد إلى جزيرة العرب خاصة دولة الروم ، وكانا من القوة بحيث لا يجرؤ أحد أن يخاطب أكاسرتهما أو قياصرتهما ؛ لأن الناس جميعاً كانوا يخافونهما ، لبطشهما وجبروتهما وتعالبهما على كافة الممالك والدول والشعوب .

إلا أن الصادق الأمين الواثق من نصر الله سبحانه وتعالى لدينه ، وبعد أن أمن الجبهة الداخلية ، وأصبح للمسلمين قوة ترهبها قبائل العرب كتب إلى هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين .

وسوف نتناول كتب رسول الله ﷺ إلى كل من النجاشي وهرقل والمقوقس وكسرى .

---

(١) مسند أحمد جـ ٣ / ٣٠٤ ط ٢ بيروت .

وكان كل من النجاشي عظيم الأحباش وهرقل إمبراطور الروم والمقوقس عظيم القبط يدينون بالنصرانية ، أما كسرى عظيم الفرس فكان مجوسيا .

لذا نجد أن ملوك النصارى كان ردهم على كتب رسول الله ﷺ إيجابياً ، وذلك بناء على مالديهم من علم بهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، أما عظيم الفرس فكان على العكس من ذلك حيث مزق كتاب رسول الله ﷺ .

والآن نبحث فى موقف الزعماء النصارى من كتب رسول الله ﷺ حيث كان موقفهم أولا موقف المتثبت من الأمر ، خاصة وأن كتبهم السماوية تضمنت البشارة بهذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وبعضاً من أوصافه عليه الصلاة والسلام ، سواء ما يتعلق بالأوصاف الخلقية أو الخلقية ، فكانوا عقلاء فى البحث عن حقيقة هذه الكتب وحقيقة الذى بعثها إليهم عليه الصلاة والسلام ، إذ لا يتوقع من أحد أن يجرؤ على أن يكاتب أولئك الزعماء الكبار ويدعوهم إلى دين جديد غير الدين الذى كانوا عليه ، لذلك حاولوا جاهدين أن يستطلعوا حقيقة الأمر من رسل رسول الله ﷺ ومن بعض رجال قريش الذين كانوا هناك عند وصول كتب رسول الله ﷺ كما سوف نفصله .

فسألوا أولئك الرسل الكرام رضوان الله عليهم ، وهم الذين عاشوا معه ويعرفون حسبه ونسبه وما يتحلى به عليه الصلاة والسلام من عظيم الخصال وأكرم الأخلاق وأفضلها .

يقول الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى فى بحث حول هذا الموضوع : « تراوح ردهم بين الاستجابة والاتباع كما صنع النجاشى ، أو بين الرد اللين كما صنع المقوقس ، أو بين الاقتناع النفسى والتحسب لما سيترتب على إعلانه بالنسبة لموقفه كإمبراطور الروم هرقل »[1] . وكان أن أورد أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه أن هرقل قال لدحية بن خليفة الكلبى رضى الله تعالى عنه حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ : ويحك . والله إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى ، ولولا ذلك لا تبعته ، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم ، فهو والله أعظم فى الروم منى ، وأجوز قولا عندهم منى ، فانظر ما يقول لك ، قال : فجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، وبما يدعوه إليه ، فقال ضغاطر : صاحبك والله نبى مرسل ، نعرفه بصفته ، ونجده فى كتبنا باسمه ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً ولبس ثياباً بيضاً ، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم وهم فى الكنيسة ، فقال : يا معشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله .

قال : فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فضربوه حتى قتلوه .

فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال : قد قلت لك . إنا نخافهم على أنفسنا .

---

(١) بحث مطبوع فى كتب رسول الله ، الدكتور الجيوشى ص ١٧ .

فضغاطر ـ والله ـ كان أعظم عندهم وأجوز قولا منى »[1] .

وقد أورد الإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى حديثاً رواه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، والذى قال فيه ابن عباس : أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه .

قال : انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ ، قال : فبينا أنا بالشام إذ جىء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، يعنى عظيم الروم ، قال : وكان دحية الكلبى جاء به ، فدفعه إلى عظيم بصرى إلى هرقل .

فقال هرقل : هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ .

قالوا : نعم ، قال فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال . أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ، ثم دعا بترجمانه ، فقال له : قل لهم إنى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه .

قال : فقال أبو سفيان : وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على الكذب لكذبت ، ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ قال : قلت : هو فينا ذو حسب ، قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ / ٦٥٠ ، ٦٥١ دار سويدان بيروت .

بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : ومن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قال : قلت : لا بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قال : قلت : لا ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : قلت : تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها قال : فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه . قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قال : قلت : لا ، قال لترجمانه : قل له إنى سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها ، سألتك هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا ، فقلت لو كان من آبائه ملك ، قلت رجل يطلب ملك آبائه ، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أو أشرافهم . فقلت : بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب ، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فزعمت أن لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله ،

قلت : رجل ائتم بقول قيل قبله . قال : ثم قال : بم يأمركم ؟ قلت : يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف ، قال : إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي ، قال : ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه .

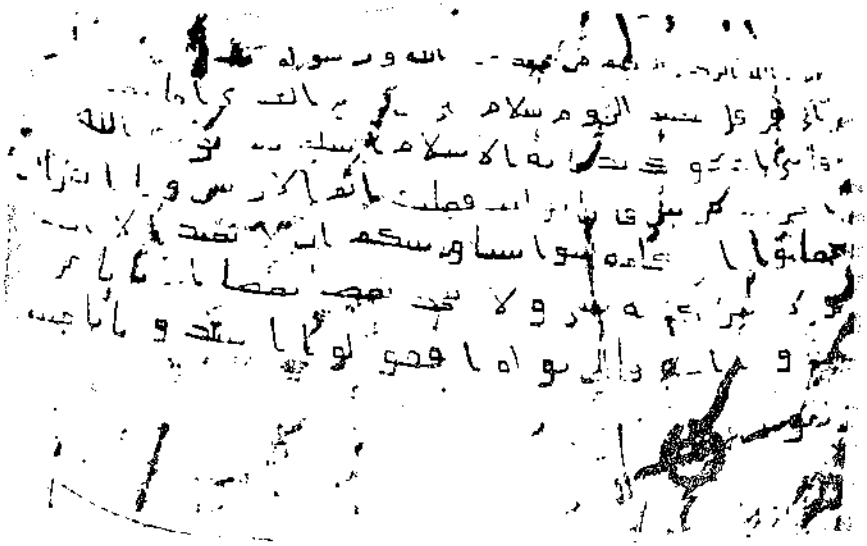

كتابه ﷺ الى هرقل امبراطور الروم

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابي حين خرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، أنه ليخافه ملك بني الأصفر قال : فما زلت موقناً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

---

(١) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي ج ١٢ / ١٠٧ — ١٠٩ . طبعة ٣ دار الفكر .

أما المقوس عظيم القبط فكان نصرانياً أيضاً لديه علم من الكتاب ، وأعنى به الإنجيل الذى أنزل على سيدنا عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام ، يعرف أنه بقى نبى آخر الزمان كما قال عيسى ابن مريم لهم ، وعبرت عنه الآية القرآنية الكريمة التالية من سورة الصف ، قال تعالى « : وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »[1] .

أورد الإمام البخارى رحمه الله فى صحيحه فى باب قوله تعالى « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً »[2] من كتاب التفسير حديثاً عن عطاء ابن يسار ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أن هذه الآية التى فى القرآن ـ « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » ـ قال : فى التوراة : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق[3] ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صما وقلوباً غلفاً[4] .

---

(١) سورة الصف الآية ٦ .

(٢) سورة الفتح الآية ٨ .

(٣) سخاب : بالسين والصاد .

(٤) فتح البارى كتاب التفسير جـ/ ١٠ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ابن حجر مطبعة الحلبى ١٣٧٨ هـ .

لذلك كان رد المقوقس حاكم مصر رقيقاً ليناً أتبعه بهدية للرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام ، تعبيراً عن المحبة وعدم العداوة وصدق ما جاء به إلا أنه لم يجب ولم يرفض ، لقد احتفى بكتاب رسول الله ﷺ فجعله فى حق من عاج وختم عليه .

قال ابن سعد : بعث رسول الله ﷺ ، حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ، وهو أحد الستة ، إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً ، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه وقال له خيراً ، وكتب إلى النبى ﷺ : قد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة و بغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم ، فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، وأختها سيرين ، و بغلة بيضاء لم يكن فى العرب يومئذ غيرها وهى دلدل ، وقال رسول الله ﷺ : ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه ، قال حاطب : كان لى مكرماً فى الضيافة وقلة اللبث ببابه ما أقمت عنده إلا خمسة أيام[1] .

وذكر الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه « هداية الحيارى » : بأن حاطب قال للمقوقس لما لقيه : إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك ، قال : هات ، قال : إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافى به الله فقد ماسواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ / ٢٦٠ ، ٢٦١ .

أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له يهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد (ﷺ) ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ، فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة من إخراج الخبء والإخبار بالنجوى ووصف لحاطب أشياء من صفة النبى ﷺ .

إن هذا الحديث وما بعده يشير إلى معرفة رسول رسول الله ﷺ لغة القوم إذ لم تذكر أى رواية أنه كان بينهما ترجمان .

وما نريد تقريره هو أن المقوقس كان يعرف حقيقة هذا الدين وصدق النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وأن ما جاء به هو الحق من رب العالمين ، وأن هذه الدعوة المباركة ستصل إلى غايتها ، وأن أصحاب هذا النبى الكريم سيصلون إلى هذا الملك الذى ظن به ، وخاف عليه .

وقد أورد ابن تيمية رواية عن الواقدى فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » عن المغيرة بن شعبة عندما خرج إلى المقوقس مع بنى مالك .

قال : قال المقوقس : كيف خلصتم إلى من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى وبينكم ؟ قالوا : ألصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك ، قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟

قالوا : ما تبعه منا رجل واحد ، قال : ولم ذلك ؟ قالوا : جاءنا بدين

مجد لا تدين به الآباء ولا يدين به الملك ، ونحن على ما كان عليه آباؤنا ، قال : فكيف صنع قومه ؟ قالوا : تبعه أحداثهم ، وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن مرة تكون عليهم الدائرة ، ومرة تكون له .

قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو إليه ؟ قالوا : يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعو إلى الصلاة والزكاة .

قال : وما الصلاة والزكاة ؟ ألها وقت يعرف ؟ وعدد تنتهى إليه ؟ . قالوا : يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد سموه له ، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال وأخبروه بصدقة الأموال كلها .

قال : أفرأيتم إذ أخذها أين يضعها ؟ قالوا : يردها على فقرائهم ويأمر بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والخمر ، ولا يأكل مما ذبح لغير الله .

فقال المقوقس : هذا نبى مرسل إلى الناس ، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم ، وهذا الذى يصفون منه بعث به الأنبياء من قبله ، وسيكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ، ويوشك قومه أن يدافعوه بالسراح[1] ، قالوا : فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا .

قال المغيرة : فأنفض المقوقس رأسه وقال : أنتم فى اللعب ، ثم قال :

---

(١) السراح : النجاح .

كيف نسبه فى قومه ؟ قلنا : هو أوسطهم نسباً . قال : كذلك المسيح — الأنبياء تبعث فى نسب قومها ، ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟ .

قلنا : ما يسمى إلا الأمين من صدقه .

قال : انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله ؟.

قال : فمن تبعه ؟ قلنا الأحداث .

قال : هم — والمسيح — أتباع الأنبياء قبله .

قال : فما فعلت يهود يثرب ، فهم أهل التوراة ؟

قلنا : خالفوه فأوقع بهم ، فقتلهم وسباهم ، وتفرقوا فى كل ناحية .

قال : هم قوم حسدة حسدوه ، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما أعرف[1].

يقول المغيرة : فقمنا من عنده ، وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد ﷺ وخضعنا له ، وقلنا : ملوك العجم يصدقونه ويخافونه فى بعد أرحامهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه وقد جاءنا داعياً إلى منازلنا .

وقد شغل حديث المقوقس نفس المغيرة وأغراه أن يتتبع من يمكن تتبعه من علماء النصارى ليعرف مدى تواطئهم على ترقب نبى جديد .

يقول : فرجعت إلى منزلنا فأقمت فى الإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها وورومها عما يجدون من صفة محمد ﷺ ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنا ، كانوا يأتونه برضاهم فيدعو لهم ،

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح للإمام ابن تيمية جـ ١/٩٨ .

لم أر قط أشد اجتهاداً منه ، فأتيته فقلت : هل بقي أحد من الأنبياء ؟ ـ قال : نعم .

هو آخر الأنبياء ، ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبي مرسل ، وقد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبي الأمي العربي اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير في عينيه حمرة ، وليس بالأبيض ولا بالأدم ، يعفي شعره ، ويلبس ما غلظ من الثياب ويجتزىء بما لقي من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالي بمن لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم ، يخرجهم من أرض حرم ، ويأتي إلى حرم يهاجر إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام .

قال المغيرة : فقلت له زدني في صفته .

قال : يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، ويخص بما لا تخص به الأنبياء قبله ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، ويبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ، ومن كان قبله كان مشدداً عليهم لا يصلون إلا في الكنائس والبيع[1] .

وبعد ذلك الحوار الذي دار بين المقوقس وذلك النفر من العرب ، يتضح لنا أن أخبار هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم قد انتشرت خارج جزيرة العرب ، فوصلت إلى أولئك الذين كانوا يترقبون خروج نبي آخر الزمان ، الذي آن أوانه ، ولعل إقامة بعض الرهبان في

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية جـ ١ / ٩٩ ، ١٠٠ .

صوامع تشرف على مشارف الجزيرة العربية ، يرقبون منها إطلالة هذا النبي العظيم أكبر دليل على ذلك ، وقد مر بنا قصة بحيرا الراهب الذى كان ينتظر هـــذا الحدث العظيم لما يراه فى كتابه المقدس ، ولما يلحظه من قرب زمان خروجه عليه الصلاة والسلام ، ولا غرابة فى أن يعيش المقوقس فى جو من المعرفة الدينية وغيره من الأساقفة والرهبان ، وذلك لما يعرفه من حقيقة هذا الأمر ، وما يتردد عليه حملة الأخبار ويطلعونه عليه من أخبار حول ظهور نبى آخر الزمان عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، مما جعل المقوقس ينظر إلى هذا الموضوع بشكل جدى ، حيث ملك عليه تفكيره ومشاعره خاصة بعد أن وصله كتاب رسول الله ﷺ الذى سوف نورده بعد قليل

وقـــد أورد الحافظ بن كثير فى البداية والنهاية حواراً آخر دار بين المقوقس ـ واسمه جريج بن مينـــا القبطى ـ وبين حاطب بن أبى بلتعة .

قال حاطب : فجئته بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلنى فى منزله ، وأقمت عنده ، ثم بعث إلى وقد جمع بطارقته .

وقال : إنى سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عنى . قال : قلت : هـلم ، قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ قلت : بلى ، رسول الله ، قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

قال : فقلت : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟

قال : بلى ، قلت : فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا ؟ فقال لى : حكيم قد جاء من عند حكيم[1] .

والآن نعرض لكتاب المصطفى ﷺ إلى المقوقس ...

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ / ٢٧١ تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه دار الكتب العلمية ، بيروت .

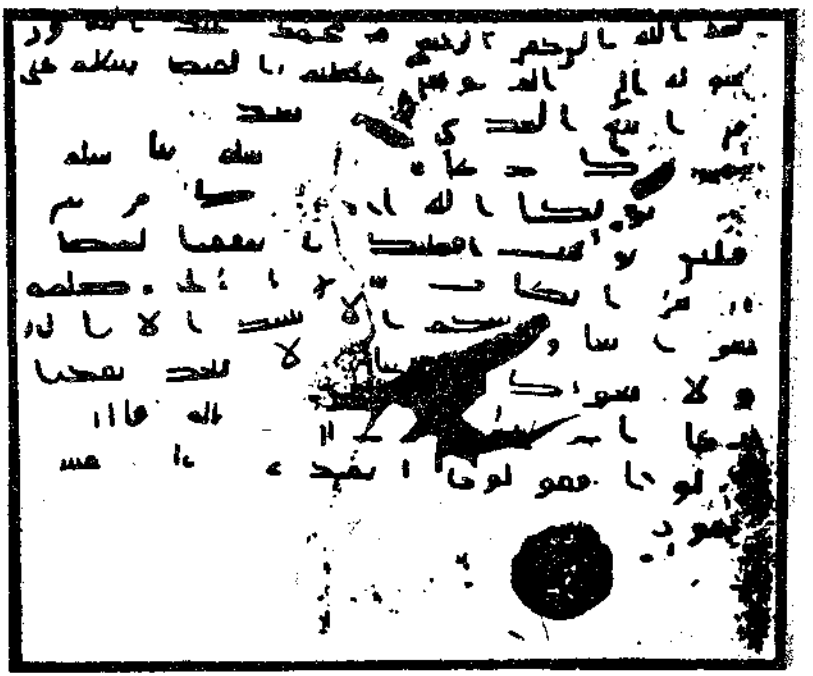

كتابه ﷺ الى المقوقس عظيم القبط

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس
عظيم القبط

والذى بعث به حاطب بن أبى بلتعة التميمى .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمـــد عبد الله ورسوله ، إلى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فعليك إثم القبط . « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

هذا ما كان من أمر هرقل والمقوقس .

أما النجاشى عظيم الحبشة ، الذى فتح الله سبحانه وتعالى عليه فآمن بهذا الدين وصدق بسيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ لما تبين له الحق ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وآوى أصحابه ومنعهم من أذى قريش الذى لحقهم إلى أرض الحبشة .

وقصته معروفة ومشهورة ، فكان رحمه الله عوناً للمسلمين فى محنتهم ،

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

لذلك نجد سيد الأوفياء عليه الصلاة والسلام يخرج إلى المصلى ليصلى على النجاشى بعد ما أعلم أصحابه بالساعة التى مات فيها مع بعد المسافة والتى تقدر بمسيرة شهر بين المدينة وأرض النجاشى عظيم الحبشة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى بالكتاب التالى :

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي

بعث به مع عمرو بن أمية الضمرى

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى .

والسلام على من اتبع الهدى[1] .

---

(١) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ١٠١ ، ١٠٣ .

كتابه ﷺ الى النجاشى

وقد عرف النجاشي الكثير عن دين سيدنا محمد ﷺ قبل أن يأتيه كتاب رسول الله ﷺ وما جاء به من عند الحق سبحانه وتعالى، وذلك من الحوار الذي دار بينه وبين جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكان ذلك عندما هاجر الصحابة الأبرار فارين بدينهم إلى أرض الحبشة .

وقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه « هداية الحيارى » نص الحوار الذي دار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب حيث قال : عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله ، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا على أن يبعثوا إلى النجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم[1] . فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص وأمروهما أمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم ، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جوار فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، ثم قالا لكل بطريق : إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ،

---

(١) الأدم : الجلود .

وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم إليهم .

فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا : نعم ، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشى فقبلها منهم ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشى كلامهم ، فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ، قالت : فغضب النجاشى ثم قال : لا ها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد . أقوام جاورونى ونزلوا ببلادى واختاروني على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوه - وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم

فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى ديني ولا دين أحد من هذه الأمم ، قالت : وكان الذى كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجل ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ . قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) .

قالت : فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء

به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد .

قالت أم سلمة : فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً أعيبهم عنده بما استأصل به خضراءهم ، قالت : فقال عبد الله بن أبي ربيعة : وكان أتقى الرجلين فينا ، لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيماً فارسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم فسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله فيه ما قال الله عز وجل ، وماجاء به نبينا كائناً فى ذلك ماهو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه ، فضرب النجاشى يده الى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم وإن نخرتم[1] والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى[2] ، من سبكم غرم من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبر[3] ذهب وإنى آذيت رجلا

(١) نخرتم : أى تكلمتم .
(٢) سيوم : آمنون بلسان الأحباش .
(٣) دبر : الجبل بلسان الأحباش .

منكم ، ردوا عليهما هداياهما ولا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه ، قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار »[1] .

من هذا الذى أوردناه يتضح لنا ماكان عليه العرب من الضلال والظلم والتجبر والانحلال والفساد والفوضى التى كانت تعم هذا المجتمع من أقصاه إلى أدناه ، فهم غارقون فى تيههم ، عاكفون على أوثانهم التى يعبدونها من دون الله بعد أن يصنعوها بأيديهم ، وجاءتهم رحمة الله سبحانه وتعالى ، حيث بعث إليهم رسولا منهم يعرفون حسبه ونسبه ، كان عندهم الصادق الأمين ، فبدل الله بهذا الدين خوفهم أمناً ، وفسادهم صلاحاً وهداية وضلالهم هدى ورشداً ، فأصبح مستقيماً على الطريق القويم يدعو إلى الخير ويسعى إلى الإصلاح ، يدعو إلى الخير جميع الناس بلا امتيازات أو فوارق ، ويسعى إلى الإصلاح ، إصلاح جميع الناس أيضاً ، ليكونوا إخواناً متحابين ، بعد ماكانوا أعداء متحاربين .

من هذا العرض الذى اطلع عليه النجاشى عن أحوال الأمة العربية قبل أن يبعث فيها الرحمة المهداة ، وقف النجاشى على حقيقة هذا الدين ، وأنه من رب العالمين ، بجانب ما جاء فى كتبهم المنزلة على رسولهم عيسى بن مريم عليه السلام ، فأصبح مهيئاً نفسياً وروحياً — لهذا أسرع إلى الإيمان بهذا الدين والتصديق برسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فور

---

(١) هداية الحيارى لابن قيم الجوزية ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ مكتبة المعارف الرياض .

وصول كتاب رسول الله ﷺ إليه ، فرد عليه معلناً إسلامه وانضواءه تحت راية هذا الدين الحنيف بكتاب قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته ، من الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني إلى الإسلام . أما بعد :

فقد بلغني كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقا (١) إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين وقد بعثت إليك يا بن أرهابن الأصحم بن أبجر ، فإني لا أملك إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يارسول الله) (٢) .

وقد أورد ابن قيم الجوزية مقابلة رسول رسول الله ﷺ إلى النجاشي الصحابي عمرو بن أمية الضمري رضي الله تعالى عنه فقال : قال عمرو للنجاشي: يا أصحمة . على القول وعليك الاستماع : إنك كأنك في الرقة علينا منا ،

---

(١) ثفروقا : يقال : ماله ثفروق ، أي شيء وأصله قمع التمر أو ما يلتزق به قمعها .

(٢) تاريخ الطبري لابن جرير الطبري جـ ٢ / ٦٥٢ ، ٦٥٣ دار سويدان بيروت .

وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور ، وفى ذلك موقع الحز وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى هذا النبي الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما يرجهم له ،وأمنك على ما خافهم عليه ، لخبر سالف وأجر منتظر ، فقال النجاشي : أشهد بالله أنه للنبي الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن البيان ليس بأشفى من الخبر »[1] .

هذا عرض للنوع الأول من كتب رسول الله ﷺ التى أرسلها إلى ملوك النصارى ، فمنهم من آمن ورد رداً حسناً ، ومنهم من رد رداً حسناً ولم يؤمن .

أما موقف كسرى عظيم فارس من كتاب سيدنا محمد ﷺ فكان مختلفاً تماما عما بدر من ملوك النصارى الذين حاولوا أن يعرفوا حقيقة هذا النبي صلى الله عليه وسلم من كتبهم المقدسة ومما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى .

لقد أخذت كسرى العزة بالإثم ، واستبد به الغضب فاستكبر وأعرض عن الحق الذى جاء به سيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وعمى بصره عن هذا النور المبين، فأصبح غير قادر على أن يتعرف على حقيقة هذا الدين العظيم ، وكان أن امتدت يده الآثمة إلى كتاب رسول الله ﷺ

---

(١) هداية الحيارى لابن قيم الجوزية ص ٣٤ مكتبة المعارف بالرياض .

بالتمزيق ، فكان لقاء هذا أن مزق الله سبحانه وتعالى ملكه ، وبعد ذلك حاول أن يعرف من رسول الله ﷺ ما فاته التعرف عليه من الكتاب المرسل إليه ، فلم يمكنه ذلك فقد عاد رسول رسول الله ﷺ ، ولم يتمكن عساكر كسرى من اللحاق به .

ولقد حقق الله سبحانه وتعالى دعوة عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ على ملك كسرى عند ما أعلمه الرسول أنه مزق كتابه دون أن يقرأه .

والآن نعرض لكتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس ، وهو أحد الكتب التى بعثها ﷺ إلى ملوك العالم وزعمائه فى ذلك الوقت .

كتابه ﷺ إلى كسرى عظيم فارس

بعثه مع عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله تعالى عنه

بسم الله الرحمن الرحيم .

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلى الناس كافه لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » (١).

يقول ابن جرير في تاريخه : حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن محمد ابن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف ، أن عبد الله بن حذافة قدم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كسرى ، فلما قرأه شقة ، فقال رسول الله ﷺ :

« مزق ملكه . حين بلغه أنه شق كتابه » .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٣ / ٦٥٤ تحقيق محمد أبو الفضل ، دار سويدان . بيروت .

خرجه الألباني في فقه السيرة للغزالي وقال حديث حسن ص ٣٨٨ .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى

يقول ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب : ثم كتب كسرى إلى باذان وهو على اليمن : أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتيانى به ، فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه ـ وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس ، وبعث معه رجلا من الفرس يقال له : خر خسره ، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ بأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبابويه : ائت بلد هذا الرجل ، وكلمه وأتنى بخبره ، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش ينخب [1] من أرض الطائف ، فسألاهم عنه فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد نصب [2] له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل .

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلمه بابويه فقال : إن شاهانشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان ، يأمره أن يبعث إليه من يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت .

فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك ، ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكره النظر إليهما ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما . من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله ﷺ : لكن ربى قد أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى .

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غداً ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من

---

(١) نخب : واد بالطائف ـ معجم البلدان للحموى ج ٥/٣٧٥ . دار إحياء التراث ١٣٩٩ هـ .

(٢) نصب : جد واهتم .

السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله فى شهر كذا وكذا ، ليلة كذا وكذا من الليل ، بعدما مضى من الليل ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

فدعاهما فأخبرهما ، فقالا : هل تدرى ما تقول ؟

إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عنى ، وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء ، ثم أعطى خر خسره منطقة فيها ذهب وفضة ، كان أهداها له بعض الملوك .

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول ولننظرن ما قد قال ، فإن كان هذا حقا ما فيه كلام ، إنه لنبي مرسل وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

فلم يذهب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه :

أما بعد فإنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم [1] فى ثغورهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه .

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن فكانت حمير تقول

---

(١) التجمير : الحبس فى الثغور .

لخر خسره : ذوالمعجزة ، المنطقة التى أعطاه إياها رسول الله ﷺ .

وقد قال بابويه لباذان : ما كلمت رجلا قط أهيب عندى منه ﷺ ، فقال له باذان : هل معه شرط ؟ قال : لا [1].

ويجد المتتبع لنص كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى فرقا واضحاً بينه وبين تلك الرسائل أو الكتب التى بعثها عليه الصلاة والسلام إلى ملوك النصارى وهذا الاختلاف يتضح من خلال عبارة « إلى الناس كافة » .

أما دعوته عليه الصلاة والسلام إلى ملوك النصارى الإسلام فهى تعتمد على ما ورد فى كتبهم من بشارات بهذا النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، والتى كان لها أعظم الأثر فى مسارعة بعض أولئك الملوك للدخول فى هذا الدين القويم وتقبلهم لكتب سيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم برحابة صدر ، وبالتقدير والتبجيل والاحترام ، على العكس من عظيم فارس المجوسى الذى لم يكن لديه مثل ذلك العلم ، فتملكه الغضب والخيلاء ، وقابل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قابله من تمزيق وسوء أدب ، فكان أن انتقم الله سبحانه وتعالى منه ، فباد ملكه واضمحلت دولته ، وأصبحت بلاده مغنما للمسلمين .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢/٦٥٤ - ٦٥٧ تحقيق أبو الفضل إبراهيم - دار سويدان . بيروت .

الأساليب النبوية

من خلال كتبه إلى حكام العالم

لقد ذكرنا سابقاً عند استعراضنا لمكاتبته ﷺ الملوك والزعماء خارج جزيرة العرب بأن تلك الكتب أرسلت إلى زعماء من أهل الكتب السماوية كالنجاشي والمقوقس وقيصر ، وأخرى إلى أمة وثنية والمتمثلة فى الأمة الفارسية وملكها كسرى .

وبطبيعة الحال فإن هناك اختلافا فى الأسلوب بين ما كتب عليه الصلاة والسلام لأهل الكتاب وبين ما كتب للوثنيين بالرغم من أن الشكل العام للكتب واحد وهو إبلاغهم رسالة ربهم ، ومطالبتهم أن يدخلوا فى دين الله سبحانه وتعالى .

وسوف نوضح ذلك بحول الله وقوته عند تحليل تلك الكتب النبوية وإبراز ذلك الاختلاف بين ما أرسل لكسرى وما أرسل لمن كان لديهم كتاب سماوى من خلال استنباطنا للأساليب المحمدية فى تلك الكتب .

أولا : مخاطبة الحكام بما يحبون :

وهذا استنتجناه من قوله ﷺ : إلى النجاشي عظيم الحبشة ، وقوله إلى المقوقس عظيم القبط ، وقوله إلى هرقل عظيم الروم ، وإلى كسرى عظيم فارس .

وفى هذا تقدير لمكانة أولئك الزعماء بين أقوامهم ، وإنزال للناس فى منازلهم ، فيه إشارة للدعاة بأن ينزلوا الناس منازلهم : لأن فى ذلك تأثيراً

نفسيا على المخاطب إذا ما نودى بما هو فيه من المكانة الاجتماعية أو القيادية وطبيعى أن إيضاح مقام المخاطب وتعيينه بمركزه فى قومه ينتج عنه ارتياح لدى المخاطب ، وهذا ما فعله ﷺ ، بعكس ما لو كان النداء خالياً من التقدير .

كما ألحظ فى تلك العبارات المتشابهة المذكورة سابقاً وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقول : بأن الله سبحانه وتعالى الذى خلقكم وبوأكم هذه المكانة فى أقوامكم يدعوكم إلى دينه القويم وحبله المتين ، فهو الذى صوركم ومكنكم مما أنتم فيه من عز وسلطان وجاه حتى أصبح كل منكم عظيما فى بلاده ، ملكا على عباده ، بيده شئون البلاد والعباد ، وهو قادر سبحانه وتعالى أن يمنع كما أنه قادر فأعطاكم ما أنتم فيه ، وإذا أردتم أن تكونوا عظماء بحق فما عليكم إلا أن تسلموا لله رب العالمين لا شريك له ، كأنى بتلك العبارات وهى تشير إلى هذا المعنى الذى أوضحته سابقاً . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثانيا : مخاطبة الناس بما يعرفون :

وهذا الأسلوب له أثره الكبير فى سرعة فهم الحقيقة ، وسرعة إدراكها : وذلك لأنها فى حدود معارفه ، لم تخرج عن الحقائق الثابتة والواضحة لديه ، وهذا الأسلوب تستنبطه من قوله ﷺ فى كتابيه إلى المقوقس وهرقل :

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فأهل الكتاب يعرفون النبى ﷺ من خلال ما ورد فى كتبهم من صفته صلى الله عليه وسلم فهو ﷺ يناديهم بقوله : يا أهل الكتاب وهم فى الحقيقة أهل كتاب أنزل من عند الله سبحانه وتعالى على عيسى بن مريم عليه السلام، ومخاطبتهم بما يعرفون يساعد ويبسر تقارب الطرفين ، ووضوح الرؤيا ، واستجلاء حقيقة الأمر مما كان له دور إيجابى فى تقبلهم كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبول حسن ، ولو أن غير النجاشى لم يؤمن ويستجب لدعوة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام .

ثالثا : أسلوب الزجر النفسى غير المباشر :

وهذا الزجر النفسى يتضح لنا من خلال العبارة النبوية التالية :

« وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» فى كتابه إلى هرقل عظيم الروم والعبارة الثانية فى كتابته إلى كسرى عظيم الفرس : « فإن أبيت فعليك إثم المجوس » .

وقوله ﷺ المقوقس : « فإن توليت فعليك إثم القبط » .

وهذا الأسلوب له دوره التأثيرى البالغ فى نفوس الزعماء والملوك ، إذ أن عدم استجابتهم يترتب عليه تحملهم إثم شعوبهم جميعاً ؛ لأنهم كانوا السبب الحقيقى لحجب هذا النور الذى أتى من رب العالمين وبشر به الأنبياء السابقون ، وهذا الأمر يحدث فى النفس أهاجيس ووساوس وخوفا من العاقبة ، خاصة وأنهم أهل كتاب ، يعرفون صدق هذه الدعوة وحقيقتها ، وهذا بالنسبة لكافة الملوك عدا كسرى عظيم الفرس الذى كان مجوسيا .

بيد أن العامل النفسى مشترك بينهم جميعاً ، وتفاعله فى داخلهم وارد ،

لأنه ﷺ حملهم مسئولية أمة بكاملها إن هم تصدوا لهذه الدعوة ، ووقفوا أمامها ، وحالوا بينها وبين شعوبهم .

رابعا : إعداد الوسائل العلمية :

وهذا الأسلوب فى الدعوة يتعلق بالكتب التى بعثها ﷺ نفسها ، فلقد أعد عليه الصلاة والسلام لنفسه خاتماً لتوقيعه على تلك الكتب ، منعاً للتلاعب أو للدس على المسلمين ، مستعيناً بالصحابة النابهين المتعلمين ، حتى أن بعضهم كان يحسن لغة القوم الذى أرسل إليهم، وهذا شيء جيد ومرغوب فيه لإلغاء حاجز عدم معرفة اللغة بين الرسل ومن بعثوا إليهم من ملوك ذلك الزمان وعظمائه .

وكان أن أشار بعض الصحابة على النبى ﷺ باتخاذ الخاتم لختم الكتب فوافق عليه الصلاة والسلام تقديرا منه ﷺ لهذا الجانب، فكان خاتمه ﷺ ثلاث كلمات : السطر الأول الله ، والثانى : رسول ، والثالث : محمد . وهذا ثابت فى صورة كتابه ﷺ المرفقة فى هذا الفصل والذى بعث به إلى المنذر بن ساوى .

خامسا : الإيجاز والبساطة والوضوح فى تقديم هذا الدين :

لقد كانت كتب رسول الله ﷺ موجزة واضحة المعالم فيها البساطة قدمت أصل هذه العقيدة وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له واتباع الخير والمعروف ، دون أن تدخل فى التفصيلات والتفريعات الجزئية ، وذلك لأن الغرض من هذه الكتب إبلاغ تلك المجتمعات رسالة ربهم سبحانه وتعالى ، وبعد أن يسلموا لله رب العالمين ، يكون عليهم ما على المسلمين

ولهم ما لهم أيضاً ، وهذا الأسلوب يساعد فى سرعة فهم الكتب النبوية ، ووضوح الفكرة الإسلامية لدى أولئك الزعماء ، وأنها فى حقيقتها دعوة إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى فى عبادته ، وهى نفس دعوة الأنبياء السابقين لسيد العالمين ﷺ . قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[1] .

سادسا : دقة الانتقاء النبوى لحمـــلة كتبه :

وقد قالت العرب : المراسلة نصف المشاهدة ، واختيار النبى ﷺ لحملة كتبه إلى الملوك من بين أصحابه ممن كانوا على درجة عالية من الذكاء والعلم ، والحكمة فى المعاملة ، كان له الأثر الحسن والصدى الطيب لهذه الكتب النبوية ، ولعل ما حدث بين الصحابى حاطب بن أبى بلتعة والمقوقس أكبر دليل على ذلك ، عندما أخذ المقوقس فى محاورته حول هذا الدين للاستزادة والوقوف على جوانب أخرى كان المقوقس يود أن يعرفها ، فكان حاطب خير من يمثل الإسلام فأجابه لدرجة أنه استحوذ على إعجابه فقال له المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم ، كما أوضحنا مفصلا عند الحديث عن كتاب المقوقس وحاطب بن أبى بلتعة رضى الله تعالى عنه ، وكان أن شهد المقوقس لنبوة رسول الله ﷺ بعد تلك المناقشة والمحاورة مع رسول رسول الله ﷺ ، مما يبرهن على أثر هذا الأسلوب الذى انتهجه النبى عليه الصلاة والسلام من حسن اختيار المبعوثين على الدعوة الإيجابى .

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٦ .

ثامنا : الحرص على إبراز مواطن اللقاء بين الإسلام والأديان الأخرى:

لقد أكدت كتب رسول الله ﷺ على مواطن اللقاء بين هذا الدين العظيم والأمم الأخرى ذات الدين — كالنصارى مثلا — حيث أكدت تلك الرسائل على وحدانية الحق تبارك وتعالى ، وعلى أن عيسى عليه السلام روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وأن البتول طاهرة تقية نقية ، وهذا ثابت وواضح عندهم فى كتبهم- رغم تحريفها - أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وهذا الأسلوب الذى ظهر من خلال كتب رسول الله ﷺ ساعد فى التخفيف من حدة معارضتهم لتلك الكتب ، لما يرون فى أنفسهم من عظمة وعلو على الناس ، وأنه لا يحق لأحد أن يكلمهم ظنا منهم أنهم من طينة أخرى غير تلك التى خلق الناس منها ، فهم ملوك وعظماء ، يأمرون فيطاعون ، ويطلبون وبسرعة يستجاب لهم ، وهذا الأسلوب اكتسب به الرسول ﷺ عواطفهم ، وجعلهم يفكرون جديا بأن هذا القول لا يمكن أن يعرفه إلا رسول ، كقوله ﷺ للنجاشى : « أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة »

تاسعا : سرعة التحرك وعدم التباطؤ :

لم ينتظر عليه الصلاة والسلام حتى يتم انتشار الإسلام فى جميع جزيرة العرب ، بل سارع إلى إرسال الكتب إلى خارج حدود بلاد العرب وأطرافها ، وهذا الأسلوب الذى اتبعه الصادق الأمين فى نشر الدعوة أعطى

للمسلمين إضافة جديدة إلى مركزهم القوى فى داخل الجزيرة ، وألمح إلى من كان فى خارجها بأن المسلمين قادرون على قتالهم إن هم أرادوا القتال ، وأنهم قوة لا يستهان بها ، ودليل ذلك : أنهم يدعون إلى دينهم بكل ثقة غير خائفين من أكبر دول الدنيا فى ذلك الزمان ـ الفرس والروم .

وما أحوج الدعاة إلى الله فى هذا الزمان إلى الاستفادة من هذا الأسلوب الحكيم ، بحيث لا يؤخرهم العمل الإسلامى فى الداخل عن دعوة الناس فى كافة أرجاء العالم إلى الإسلام ، وإقامة مؤسسات تعنى بإعداد الدعاة لينطلقوا على بصيرة إلى بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا وأوروبا ليخرجوا تلك الشعوب مما هم فيه من الظلام .

وصحيح أن الوقت كان مبكراً نسبيا إذا ما قورن بوضع المسلمين الحربى ، والهدنة التى عقدوها مع كفار مكة ، إلا أن هذه الخطة ، أكسبتهم مهابة أمام الأعداء فى الداخل والخارج .

فينبغى للدعاة ترسم خطى النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم والعمل على نشر هذا النور الذى أتى من رب العالمين وارتضاه لعباده أجمعين بكل ما يملكون ليفوزوا بإحداها ، النصر ونشر الإسلام أو الشهادة فى سبيل التوحيد .

هذا ما ظهر لى من أساليب الدعوة من خلال كتب السيد الجليل والهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، بالإضافة إلى ما ذكرناه فى كتبه ﷺ إلى قبائل العرب داخل الجزيرة العربية .

ومعلوم أن كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة فى هذا

الصدد إلا أنه خشية الإطالة اكتفينا ببعض النماذج من تلك الكتب المباركة ، فقد أورد ابن سعد فى طبقاته أكثر من مائة كتاب نبوى ، وصنف الإمام محمد بن طولون الدمشقى مصنفاً أسماه إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ﷺ .

ومما لا شك فيه أن كتب رسول الله ﷺ اشتملت على فوائد كثيرة وعبر جليلة نوجزها فيما يلى :

فوائد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أولا : حفظ كرامة الإنسان وتوفير السعادة له :

إن هذا الدين العظيم إنما اختاره رب العالمين ليكون خاتم الأديان ، هو فى الحقيقة تكرم من الحق على خلقه ، وذلك لأنه تضمن فيما احتوت عليه شرائعه وأحكامه ما يكفل لهذا الإنسان كرامته وحريته واستقراره وسعادته ، ورسول الهدى عليه الصلاة والسلام إنما بعث للناس كافة كان فى عمل دائم خلال السنوات التى قضاها عليه الصلاة والسلام من حياته فى إبلاغ رسالة ربه ، أمنيته أن يدخل الناس جميعاً فى دين الله القويم ويتركوا ما هم عليه من آلهة صنعوها بأيديهم أو وجدوا آباءهم عليها عاكفين ، فمجرد إبلاغ تلك الأمم بهذا الدين العظيم عن طريق تلك الكتب التى بعثها عليه الصلاة والسلام آمن أناس كثيرون بعد ما عرفوا الحق ، خاصة أولئك الذين عرفوا صفته ﷺ من خلال كتبهم ، وبعد سنوات قليلة تحقق ما قاله ﷺ ، فأصبحت دولتا الفرس والروم ضمن أراضى الدولة الإسلامية ، بعد أن فتحها الله سبحانه وتعالى ، ولبس سراقة سوارى كسرى كما قال عليه الصلاة والسلام .

إن التعاليم السماوية التى أتى بها الإسلام لن تعرف البشرية مثلها فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ولن يستقر لها قرار إلا إذا تمسكت بها وطبقتها فى جميع شئونها ، فهى فقط التى تكفل لهذا الإنسان جميع حقوقه ، وتوفر له الإسلام والسلام ، فهى تعاليم رب العالمين وخالق الناس أجمعين سبحانه وتعالى .

ثانياً : تحقيق الاستقرار بين قبائل العرب :

لقد كان المجتمع العربى كما وصفه الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب للنجاشى — حروب وسفك دماء وأخذ بثأر وعكوف على صنم ، وتفاخر بالقوة والمنعة ، يأكل فيه القوى الضعيف ، ليس فيه نظام يقوم عليه المجتمع، ليس للإنسان فيه كرامة أو قيمة — وصل بهم الحال إلى أن يدفنوا بناتهم وهم أحياء وهو ما عرف عندهم (بوأد البنات) إضافة إلى الربا والزنا وشرب الخمر ولعب الميسر ، وهذه كلها عوامل قوية فى بث روح الفتنة بينهم والشقاق والنزاع ، لا يأمن فيه الفرد على نفسه أو ماله أو عياله — فكانت هذه الدعوة بمثابة البلسم الشافى من كل تلك الأسقام ، وذلك لأن الإسلام دين الحياة الهادئة المستقرة — لقد تعبوا من الركض وراء تلك العبادات الموروثة من أخذ بالثأر وقطع للطريق ، فعندما جاء هذا الدين بتعاليمه السمحة قضى على تلك المشاكل بأكملها ، وحقق لتلك القبائل الاستقرار والأمان والسلام فى ظله الظليل ، لأنه جعل دم المسلم وماله وعرضه حرام إلا بحقه ، وبذلك انتهت تلك السلبيات ، وكانوا عباد الله إخواناً ، بفضل هذه الدعوة المباركة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ثالثاً : كانت تطبيقاً عملياً لمرحلة عالمية الدعوة[1] :

لقد كانت هذه الرسالة الخالدة للناس كافة ، وكانت هذه الخطوة المباركة من رسول الله ﷺ بمثابة الترجمة الحقيقية لعالمية الإسلام ، حيث قام عليه

---

(١) كتب الرسول للدكتور محمد الجيوشى — بحث مقدم لمؤتمر السيرة ، ص ٤٥ .

الصلاة والسلام بإرسال هذه الكتب لملوك العالم وزعمائه فى ذلك الوقت لتحقيق هذه العالمية عملياً ، وفعلا تم ذلك والحمد لله وكانت بداية لانطلاق كتائب التوحيد إلى تلك الأصقاع مجاهدة فى سبيل الله لنشر راية التوحيد على أرجاء المعمورة .

رابعاً : لقد كانت هذه الكتب وسيلة لإعادة أولئك الخارجين عن مجتمعاتهم (العتقاء) وإصلاح شأنهم بفتح باب العودة أمامهم بعد أن حدث التغير الكلى فى تلك المجتمعات من الأوضاع المتردية التى جعلت أولئك يمرقون عن جماعاتهم ويهددون أمن الناس وراحتهم ، ويشيعون الخوف والفزع إلى حالة الطمأنينة والاستقرار وحفظ النفس والمال والعرض ، وتكون هذه الفئة سواعد بناء لا هدم فى مجتمعاتها ، صلى الله وسلم وبارك عليك يا من بعثك الله رحمة للعالمين .

خامساً : إتاحة الفرصة أمام أولئك الأصحاب الذين كلفوا بنقل تلك الكتب ليقوموا ببيان وإيضاح مبادئ هذا الدين العظيم ، وذلك من خلال الرد على الاستفسارات والمشاركة فى المناقشات التى أثارها أولئك معهم مثل : النجاشى والمقوقس .

سادساً : إصلاح العقيدة :

وهذا يحدث بدخول أولئك فى الإسلام والتمسك بتعاليم هذا الدين ، لإصلاح ما فسد من عقائدهم خاصة أولئك الذين أنزل الله عليهم كتباً وأرسل إليهم رسلا ، فطال عليهم الأمد ، فحرفوا وغيروا وبدلوا وسلكوا غير طريق التوحيد ، الذى أتى به أنبياء الله سبحانه وتعالى . وهذا واضح

فى قوله صلى الله عليه وسلم للنجاشى فى كتابه له : « وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له » .

والله أسأل أن يشرح صدورنا ويلهمنا الصواب ، لنقف على الذخائر العظيمة فى سيرة سيد المرسلين ﷺ — لبلوغ الأهداف وتحقيق الغايات بنشر هذا الدين العظيم فى ربوع هذه المعمورة متوسمين خطاه عليه الصلاة والسلام ، لأن الخير والنجاح فيها .

الفصل الخامس

الوفود وتنائجها

الفصل الخامس

الوفود ونتائجها

فى البداية يحسن بنا أن نعرف كلمة الوفود .

قال ابن منظور : وفد : قال الله تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[1] . قيل : الوفد : الركبان المكرمون .

وفد فلان يفد وفادة : إذا خرج إلى ملك أو أمير ، والوفود : جمع وافد[2] .

يقول ابن هشام : « قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، قال ابن هشام : حدثنى أبو عبيدة : أن ذلك فى سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود »[3] .

قال ابن هشام : « قال ابن إسحاق : وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى

---

(١) سورة مريم الآية ٨٥ .

(٢) لسان العرب جـ ٣ / ٤٦٤ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ / ٢٠٥ .

نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله ، كما قال عز وجل « أفواجا » يضربون إليه من كل وجه »[1] .

وصدق الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم حيث زهق الباطل وارتفعت راية الحق تدعو إلى الحق تبارك وتعالى ، وأقبلت تلك الجحافل الكبيرة من وفود العرب لتحيى رسول الله ﷺ وتدين له بالطاعة باعتناق هذا الدين العظيم الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده جميعاً .

جاءت هذه الوفود بعد جهاد عظيم قام به الهادى البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وأسلوب فريد وناجح فى دعوة هذه الجموع إلى الإسلام يرتكز على الحكمة التى عرف بها الهادى البشير ﷺ والتى بدأ المؤمنون يجنون ثمارها وذلك بدخول النـــاس أفواجاً فى دين الله سبحانه وتعالى .

فبالأمس القريب كان عليه الصلاة والسلام يتنقل بين منازل القبائل العربية الوافدة إلى مكة يطلب منهم نصر دين الله سبحانه وتعالى والدخول فى الإسلام والدفاع عن هذه الدعوة السماوية ، واليوم تأتى هذه الجموع فى عام الوفود لتعلن إسلامها وانضواءها تحت راية التوحيد ، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

أتت تلك القبائل التى قالت له : إن قومك أولى بك وأعرف بك منا ، أتت طائعة مختارة بعد ما تبين لها صدق ما كان يدعو إليه ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ / ٢٠٦ .

أتت هذه الوفود بعد أن تحققت المسلمين تلك الانتصارات العظيمة ، ودوخ المسلمون سائر القبائل العربية التى أرادت النيل من هذه الدعوة والقضاء على المسلمين ، فأصبحت تلك القبائل مرتعدة الفرائص رهبة من كتائب الجهاد المؤمنة بقيادة سيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فكان دوى تلك الانتصارات الإسلامية قد ملأ قلوب تلك القبائل فزعاً وهلعاً من جهة ، ومن جهة أخرى تبددت تلك الغشاوات التى كانت على أعينهم والتى حالت بينهم وبين أن يروا ذلك الحق الذى جاء به ﷺ ، والذى أخذت أنواره فى تبديد ذلك الظلام الذى جثم على تلك القلوب ردحاً من الزمن ، ومنعها عن أن ترى الحق الذى جاء من لدن رب الخلق سبحانه وتعالى ، لقد كان هذا التوافد إلى المدينة المنورة يعنى الشىء الكثير لمعاشر المؤمنين .

فالإسلام الذى كان قليل الأتباع محدود الانتشار أصبح دين جزيرة العرب ، والأتباع لهذا الدين أصبحوا أصحاب الكلمة والصولة فى هذه الجزيرة أيضاً ، ورسول الهدى عليه الصلاة والسلام سعد برؤية ثمار ما زرع ، ونتاج ذلك الجهد العظيم فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

لقد كان لصدق هذه الدعوة واستبسال المجاهدين من أصحاب رسول الله ﷺ هذا الفتح الكبير وذلك النصر المؤزر ، فأفاء أولئك المنهزمون من المشركين وأعداء الدين إلى كنف الإسلام ، حيث آمنت طوائفهم واستسلمت جموعهم ، وكان لإيمان كتائب التوحيد من المجاهدين المسلمين بهدفها الذى تسعى لبلوغه ما أمدها بقوة الصبر إلى جانب قوة الإيمان ، قوة الصبر التى جعلتهم مثالا للتحمل ، لم تشهد الدنيا بأسرها على اختلاف حقبها التاريخية مثلهم ، صبروا على أحلاس الكفر والطغيان فى مكة ، يوم أن أعلنت مكة ثورتها على داعى الحق عندما صدع بدعوته من على جبل الصفا ،

ويوم أن سحل بعض الأصحاب على طرقات مكة ليعودوا لعبادة الأوثان ، ويوم أن ضربت قريش عليهم تلك المقاطعة اللعينة فى شعب أبى طالب ، وقبلها يوم أن أرغموا على الخروج من بلادهم إلى أرض الحبشة فارين بدينهم، ويوم جمعت قريش عددها وعدتها للقضاء عليهم فى أحد والخندق وغيرهامن الوقائع الحربية على مدار السنوات التسع الماضية ، قد وصلوا إلى دار مهاجرهم ، مع نبيهم الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وكان بعد ذلك كله الظفر والنصر المبين من رب العالمين جزاء ماصبروا وتحملوا من مشاق وشدائد فى سبيل نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق والدعوة إليها ، وكانوا بحق المثل العظيم الذى يجب على المسلمين أن يقتدوا به ويسيروا على أثره ، ليحققوا النصر الذى وعدهم الحق تبارك وتعالى به .

وصدق من قال : حتى إذا امتحنت النفوس المؤمنة بشىء ، ومن البلاء الممحص تلقته بالصبر مع الإيمان ، وسرعان ما يتكشف البلاء عن إشراقات النصر ، وتنزلات آياته من سموات العزة الإيمانية

إننا ونحن نذكر هذه الإشراقات المضيئة فى حياة البشرية جمعاء ، وما أنعم الله سبحانه وتعالى على المسلمين من نعم كثيرة ، كان من أبرزها دخول الناس فى دين الله أفواجا ، يجب أن نقف قليلا للتدبر. والرجوع إلى الصفحات التاريخية المشرقة والتى تحكى جهاد وفضال وفدائية تلك النخبة الصادقة وتلك الصفوة المباركة من أصحاب رسول الله ﷺ الكرام الذين شاركوا فى انبثاق هذه الإشراقة المباركة وشمول نورها جميع البقاع بقيادة البشير النذير والصادق الأمين خاتم النبيين ﷺ ، والتى حررت الإنسان الذى أراد له ربه تبارك وتعالى العزة والخلافة فى الأرض ، من الاستعباد والانحطاط فى أوحال الوثنية والكفر ، وعبادة ما يضرهم ولا ينفعهم من

تلك المعبودات التى كانوا عليها يعكفون ولها يسجدون وينذرون وقرابينهم لها يتقربون ، وبزعمهم أنها تضرهم وتنفعهم أو تقربهم إلى الله زلفى .

لقد كانت هذه الواقعة العظيمة ـ وأعنى بها تتابع وتوارد الوفود العربية إلى المدينة المنورة — مسلمة مؤمنة ، وبلقاء رسول الهدى والنور مستبشرة .

كان لها أعظم الأثر وأبلغه فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، إذ دخلت تلك الجموع فى هذا الدين طائعة مختارة دون أن تراق قطرة دم ، لتعلم الدنيا بأسرها أن الحروب وسفك الدماء ليست غاية يبحث المسلمون عنها ، وإنما الهدف والغاية ، تحرر هذا الإنسان مما لحق به من تخلف وخروج عن فطرته التى فطره عليها خالقه جل وعلا ، وانغماسه فى تلك الوثنية العمياء والضوائه تحت راية تلك الجهالة الجهلاء ، التى كان لها أكبر الأثر فى انتشار الأحقاد ، وسفك الدماء واستباحة الأعراض ، وابتزاز الأموال بغير حق ، والوقوع فى أسفل دركات التخلف الحضارى ، حيث وأد البنات ، وشرب المسكرات ، واستحلال المحرمات ، وسيادة مبدأ انصر أخاك ظالماً أو مظلوما ، وأعنى به المفهوم الجاهلى لهذا المبدأ ، إذ أن الإسلام الحنيف ينظر له نظرة حق وعدل ، تختلف عن النظرة الجاهلية كما هو معروف .

لقد اتضح لأولئك الذين كانوا يرقبون هذه الدعوة الحقيقة الناصعة ، فأتوا مسرعين ملبين لهذا النداء الخالد الذى انطلق من بطاح مكة المكرمة ثم احتضنته جنبات طيبة الطيبة التى أراد لها الحق تبارك وتعالى الخلود والبقاء لتنطلق منها الجحافل المؤمنة مبلغة رسالة ربها سبحانه وتعالى للناس أجمعين .

أورد الإمام البخارى فى صحيحه حديثاً عن عمرو بن سلمة قال : كانت العرب تلوم [1] بإسلامهم الفتح فيقولون : اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق .

فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومى بإسلامهم .

فلما قدم قال : « جئتكم والله من عند النبى ﷺ حقا » الحديث [2].

لم تكن هذه المرة الأولى التى يفد على رسول الله ﷺ من يريد الانضواء تحت راية هذا الدين ، ويسلم لله رب العالمين ، حيث وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة وفد من نصارى نجران ، وذلك بعد الحصار الممقوت لخير البرية ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم جميعاً فى شعب أبي طالب ، بعد أن بلغ أهل نجران خبر هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم من صحابة رسول الله ﷺ الذين فروا بدينهم إلى أرض الحبشة ، سارع نصارى نجران إلى الوقوف على حقيقة تلك الأخبار لما يجدون فى كتبهم من صفاته ﷺ ، فأرسلوا وفداً قوامه عشرون رجلا أو قريباً من ذلك .

قابلوا رسول الله ﷺ فى مكة ، فكانوا السعداء بذلك اللقاء ، حيث سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ فآمنوا ، بعد أن عرفوا حقيقة هذا

---

(١) تلوم : بفتح أوله واللام وتشديد الواو ـ أى ينتظر .

(٢) فتح الباري جـ ٩ / ٨٣ ، ٨٤ مكتبة البابي الحلبي .

الدين ، وكان أن اندحر الكفر وأعوانه وغضب أبو جهل فقال مخاطباً ذلك الوفد المبارك : ما رأينا ركباً أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ﷺ فصبأتم .

قالوا له بنفس راضية وقلوب مطمئنة : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ، ولنا ما اخترناه .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : نزلت فيهم هذه الآية :

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » (١) .

وهذه حجة أخرى تضاف إلى الحجج الكثيرة التى أخذت على كفار مكة بسبب عنادهم وعدم قدرتهم على مقارعة الحجة بالحجة عندما أعلنها الصادق الأمين مدوية أن لا إله إلا الله ، ولا معبود بحق سواه سبحانه وتعالى فأخذوا يرمونه بالكذب مرة وهو الصادق لديهم ثم بالسحر مرة أخرى ، وبالجنون تارة وبالكهانة أخرى ، حتى إنهم قالوا بلا استحياء إمعانا فى العناد والتبجح والكفر : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٢) .

---

(١) سورة القصص الآية ٥٢ - ٥٥ ، تفسير ابن كثير جـ ٣ / ٤١٠ ، النهضة الحديثة .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

وعاد ذلك الوفد بخيرى الدنيا والآخرة ، وبقيت الفئة الكافرة على عنادها وأوثانها بعدما تبين لها الحق مرة أخرى من خلال هذا الوفد النصرانى القادم من نجران .

وقد أورد ابن سعد فى طبقاته أكثر من سبعين وفداً قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

«إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاه فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »[1].

وفى كتاب الوفود الذى أفرده ابن كثير فى البداية والنهاية أورد قرابة خمسين وفداً قدموا على النبى ﷺ .

أما ابن سعد فقد أورد فى طبقاته أكثر من سبعين وفداً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذئب عن السباع .

الله أكبر ـ هذا الذى كان يتنقل بين منازل القبائل العربية الوافدة إلى مكة ـ يدعوهم إلى الله ونصرته حتى يبلغ رسالة ربه ـ تفد عليه هذه الجموع الكبيرة طائعة مسلمة ، مؤمنة بهذا الدين العظيم ـ فهذه مكة وقد فتحت ، وهذا نصر الله قد جاء ، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

لقد أدرك عقلاء قريش وحكماؤها هذه الحقيقة من أمد بعيد ـ عندما أعلنها الصادق الأمين لعشيرته الأقربين ـ لقد أدركوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حرى به أن يسود ، لأن ما يدعو إليه هو ما ترنو

---

(١) سورة النصر .

إليه الفطر السليمة والعقول النيرة والقلوب الواعية ، أين أنتم من تلكم النصيحة التي أوصاكم بها أحد عقلائكم وحكمائكم ابن عبد المطلب قبل أن يموت بعد أن اتضحت له الحقيقة المشرقة بجلاء ـ أين أنتم عندما أعلنها من كان على دينكم بعد ما تأكد أن ما يدعو إليه محمد ﷺ فيه عزكم ورفعتكم وسيادتكم على العالم كله .

ماذا قال أبو طالب لقومه لما حضرته الوفاة ؟

جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم ، فقال : أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلكم على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حزب ، وعلى حربكم ألب ، وأنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة) فإن فيها مرضاة الرب وقواما للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وسعة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ، ففيهما هلكة القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، واعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، عليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها

خراباً وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد نحضته العرب ودادها ، وأصفت له فؤادها ، وأعطته قيادها ، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم ، كونوا له ولاة لحزبه حماة .

والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ، ولأجلي تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ، ولدافعت عنه الدواهي » (١).

هذه والله نصيحة جامعة مانعة ، وهذه الوفود تتوالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي طريق عودته إلى مكة عائداً من الطائف أتاه وفد الجن .

والقصة مشهورة ، أكدها القرآن الكريم فيما نزل من آيات بينات في سورة الجن ، وذلك بعد رحلة الطائف عليه الصلاة والسلام .

وسوف نورد بعض هذه الوفود عن طريق بعض المواقف التي صاحبت مجيء هذه الوفود .

أولا : لقد أخبر عليه الصلاة والسلام بمجيء بعض الوفود إليه قبل أن يصلوا ، كقوله ﷺ صبيحة ليلة قدم وفد عبد القيس : « ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام ، قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد ، بصاحبهم علامة اللهم اغفر لعبد القيس ، أتوني لا يسألوني مالا هم خير أهل المشرق » (٢).

---

(١) الروض الآنف لعبد الرحمن السهيلي جـ ٢ / ١٧١ ، دار المعرفة بيروت .
(١) طبقات ابن سعد جـ ١/٣١٤ .

قال : فجاءوا فى ثيابهم ورسول الله ﷺ فى المسجد فسلموا عليه وسألهم رسول الله ﷺ : أيكم عبد الله الأشج ؟ قال : أنا يارسول الله ، وكان رجلا دميما ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ، فقال : « إنه لا يستسقى فى مسوك (١) الرجال ، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيك خصلتان يحبهما الله . فقال عبد الله : وما هما ؟ قال : الحلم والأناة .

كما أخبر عليه الصلاة والسلام بمقدم وفد بجيلة قبل أن يأتوا فقال : يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن على وجهه مسحة ملك ، فطلع جرير ابن عبد الله البجلى على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا ، قال للرسول صلى الله عليه وسلم : إنى لا أثبت على الخيل ، فمسح رسول الله ﷺ بصدره وقال : اللهم اجعله هاديا مهديا ، فخرج وهدم ذا الخلصة وكان صنما لهم .

ثانيا : وكان من الوفود من طلب من النبى ﷺ أن يكون له الأمر من بعده كوفد بنى حنيفة ومسيلمة الكذاب .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس ابن شماس وفى يد رسول ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدوا أمر الله فيك ولئن

---

(١) مسوك ـ مفردها مسك وهو الجلد .

أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى رأيت فيه ما رأيت . فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى أحدهما العنسى والآخر مسيلمة » (١).

قال ابن هشام : فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم وقال : إنى قد أشركت فى الأمر معه ، وقال لوفده الذى كانوا معه : ألم يقل لكم حين ذكرتموني له : « أما إنه ليس بشركم مكاناً ماذاك إلا لما كان يعلم أنى قد أشركت فى الأمر معه .

ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول معناها للقرآن : « لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى ».

وأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة (٢).

ثالثا : ومن الوفود من أغلظ فى السؤال على رسول الله ﷺ ، لكن رسول الله ﷺ الذى بعثه الله رحمة للعالمين أجابه على جميع أسئلتهم .

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن الوليد بن نوفل عن كريب عن ابن عباس قال : بعث بنو سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم إليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه ، وكان ضمام ، رجلا جلداً ، أشعر

---

(١) صحيح البخارى جـ ٦ / ٣ ، ٤ عالم الكتب .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ / ٢٢٣ .

ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » فقال : يا محمد . قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن فى نفسك . قال : « لا أجد فى نفسى فسل عما بدالك » فقال : أنشدك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله بعثك إلينا رسولا ؟ قال « اللهم نعم » . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون ؟ . قال : « اللهم نعم » . قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس . قال : « نعم » . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم أن قال : بئست اللات والعزى .

قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . فقال : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به

وما نهاكم عنه ، قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما .

قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة [1].

رابعا : وفد الملاعنة :

وهذا نوع آخر من الوفود التى أتت إلى النبى ﷺ فى عام الوفود ـ أورد الإمام البخارى فى صحيحه قصة وفد نجران فقال : عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه[2] قال : فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً ، فقال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أمين هذه الأمة » [3].

وذكر الشامى فى سبيل الهدى والرشاد ما دار بين وفد نجران والنبى صلى الله عليه وسلم بالتفصيل تقريباً ، وسوف نورد بعضاً من ذلك . .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه ، جـ ٥ / ٥٥ دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) يلاعناه : أى يباهلانه ـ والمباهلة يجتمع قوم إذا اختلفوا فى شىء فيقولون : لعنة الله على الظالم منا .

(٣) صحيح البخارى جـ ٦/٥ ، ٦ عالم الكتب .

(ا) لما قدموا على النبي ﷺ لبسوا حللهم وخواتيمهم فلم يكلمهم عليه الصلاة والسلام حتى وضعوا ذلك ولبسوا ثياب سفرهم .

(ب) قال الشامي : وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن سعد عن الأزرق بن قيس ، وابن جرير عن السدى ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج : أن نصارى نجران قالوا : يا محمد فيم تشتم صاحبنا ؟ قال : « من صاحبكم » ؟ . قالوا عيسى بن مريم ، تزعم أنه عبد .

قال : « أجل إنه عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . فغضبوا وقالوا : لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل فى جوف مريم ثم خرج منها ، فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب ؟

فأنزل الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم »[1] وأنزل الله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية [2].

(ج) قال رجل من الأحبار : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ . وقال رجل من نصارى نجران : أو ذلك تريد يا محمد وإليه تدعونا ؟ . فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، وما بذلك بعثنى ولا أمرنى .

فأنزل الله عز وجل فى ذلك : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا

---

(١) سورة المائدة الآية ١٧ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » (١).

يقول ابن سعد : فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلما وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري ، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي ﷺ حتى قبضه الله » (٢) .

خامسا : وفد المفاخرة :

وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » (٣).

قال ابن هشام : فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته ، أن اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فقال : الحمد الذي له علينا الفضل والمن ، وهو أهله الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ؟

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧٩ - ٨٠ - سبل الهدى والرشاد لمحمد يوسف الشامي جـ ٦ / ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٣٥٨ .

(٣) سورة الحجرات الآية ٤ .

ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وأنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا [1] من الإكثار فيما أعطانا وأنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس أخى بنى الحارث ابن الخزرج : قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت فقال : الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا ، كرمه نسباً وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم » [2].

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « لا أزال أحب بنى تميم بعد ثلاث سمعت رسول الله ﷺ يقولها فيهم هم أشد أمتى على الدجال ،

---

(١) ولكنا نحيا : فى البداية والنهاية (ولكن نخشى) وذكر أنه فى الأصل . وابن هشام « ولكنا نحيا » .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

وكانت فيهم سبية عند عائشة[١] فقال : اعتقيها فإنها من ولد إسماعيل ، وجاءت صدقاتهم فقال : هذه صدقات قوم أو قومى »[٢] .

سادسا : وفد المؤامرة :

إنها قصة وفد بنى عامر ، وعامر بن الطفيل وأربد بن قيس ـ الغادرين ، اللذان تآمرا على قتل النبى ﷺ كما ذكر ابن هشام فى سيرته حيث قال : قدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ ، وهو يريد الغدر به ، وقد قال له قومه : ياعامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش . ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل ، فإنى سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف[٣] . فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر ابن الطفيل : يا محمد خالنى[٤] قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده . قال : يا محمد خالنى ، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به فجعل أربد لا يحير شيئا : قال : فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال : يا محمد خالنى ، قال : لا ، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . فلما أبى رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى قال رسول الله ﷺ :اللهم اكفنى عامر بن الطفيل .

---

(١) سبية : أى جارية مسبية .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥/٣٣٣ ما جاء فى فضل بنى تميم .

(٣) أعله بالسيف : اقتله به .

(٤) خالنى : بالتخفيف : تفرد لى خالياً حتى أتحدث معك . وبتشديد اللام اتخذنى خليلا .

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : ويلك يا أربد . أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً ، قال : لا أبالك . لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل ، حتى ما رأى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ .

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يقول : يا بنى عامر : أغدة [1] كغدة البكر [2] فى بيت امرأة من بنى سلول .

قال ابن هشام : ويقال أغدة كغدة الإبل ، وموتا فى بيت سلولية .

قال ابن إسحاق : ثم خرج أصحابه حين واروه ، فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شىء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شىء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما [3] .

---

(١) الغدة : داء يصيب البعير فيموت منه ، وهو شبيه بالذبحة التى تصيب الإنسان .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ / ٢١٣ ، ٢١٤ ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، مطبعة البابى الحلبى بمصر عام ١٣٥٥ هـ .

سابعا : فوالله ليوشكن فوالله ليوشكن :

إنها وفادة الفار من الله ورسوله ـ عدى بن حاتم الطائى .

قال ابن هشام : قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ، فقذفها إلى ، فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض ، قال : قلت فى نفسى والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسيا (١) ؟

قال : قلت : بلى .

قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى .

قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك ، قال : قلت : أجل والله .

وقال : وعرفت أنه نبى مرسل ، يعلم ما يجهل ، ثم قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه

---

(١) ركوسيا : من الركوسية ، وهم قوم لهم دين بين النصارى والصابئين .

ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت ، لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ، قال : فأسلمت .

وكان عدى يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وأيم الله لتكونن الثالثة ، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه » (١) .

ومن الوفود من دعا لها الأمين عليه الصلاة والسلام بالغيث ، فأمطروا ، كوفد فزارة .

ومنهم من سأل لهم الهداية ﷺ كوفد بنى عامر .

ومنهم من أتى مبغضاً ودخل وخرج محباً كعبد الرحمن بن أبى عقيل فى وفد قومه ، وغيرهم كثير منعنا من ذكرهم خشية الإطالة ، حتى السباع الضارية كان لها وفد مثلها فيه الذئب (٢) .

وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ / ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٣٥٩ ، دار صادر للطباعة ، بيروت .

نتائج الوفود

بعد كم من السنين بلغت دعوتك يا سيدى يارسول الله هذه المرحلة ؟ إن الليل الدامس الذى ضرب على هذا الكون ردحا من الزمن لن يطول سواده ، فها هى تباشير الفجر قد خالطته فلم يبق لتلك الظلة ما تتشبث به . لقد أصبحت الكعبة المشرفة قبلة المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

قال تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذى أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون »(١) .

بعد اثنين وعشرين سنة من الكفاح ـ كفاح العدوان والبغى والعناد من كفار مكة .

بعد اثنين وعشرين سنة من الدعوة الحثيثة المستمرة ، والتذكير الدائم وتحمل الصعاب والمكاره والأذى ، أذى قريش الكافرة التى لم ترع الإنسان حرمة ولا للبيت العتيق الذى سالت فى جنباته الدماء الزكية الطاهرة من تلك الفئة المؤمنة ـ عليكم رحمة الله ورضوانه آل ياسر ـ لقد عذب أحدهم حتى الموت فى الحرم ، حيث استحلوا حرمته إمعاناً منه فى إيذاء محمد ﷺ وإكراه المؤمنين على ترك هذا النور ، والعودة إلى الحجارة التى كانت لهم إلهاً ، بعد هذه المعاناة ، وتلك القسوة التى لم يعرف المجتمع العربى لها مثيلا ـ

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٤ .

تطل تباشير الفجر الجديد ويظهر لهم صـــدق الصادق وأمانة الأمين عليه الصلاة وأزكى التسليم .

وتأتى الجموع مبايعة راضية فيما عرف بعام الوفود .

وسوف نقف قليلا لإيضاح النتائج المباركة من هذه المرحلة من مراحل الدعوة المحمدية .

أولا : انتشار الإسلام فى جزيرة العرب :

لقد أتت وفود قبائل العرب التى كاتبها عليه الصلاة والسلام والتى لم يكاتبها ـ أتت معلنة إسلامها ، وبهذا يتم للإسلام الانتشار فى بلاد العرب جميعها بفضل الله سبحانه وتعالى وجهاد سيد المجاهدين ومعلم الدعاة ، الرحمة المهداة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ثانياً : نجاح الأساليب النبوية فى الدعوة :

وهذا واضح من النجاحات التى حققتها كتب رسول الله ﷺ ورسله الذين أرسلهم لإبلاغ الناس رسالة ربهم ونداء خالقهم سبحانه وتعالى على لسان عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ ، فأتت تلك الوفود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا فى المدينة المنورة ـ فتشرفوا بالمثول بين يدى سيد الأنبياء والمرسلين ، يلقون منه مباشرة بلا واسطة وبدون حجاب وحراس ـ فيا لها من فرصة عظيمة تلك التى يحظى بها أى إنسان ، ويلتقى بسيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ يسمع منه القرآن غضاً طرياً ، ويقف على حسن وفادة هذا النبى العظيم لكل من وفد إليه والتقى به وقابله ، ورأى جلال النبوة يتلألأ فى شخص هذا الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى

التسليم من خلال حفاوته بالوفود ، وصبره على غلظة بعضهم وحكمته فى بيان حقيقة هذا الدين ، ومجادلته لبعضهم بالتى هى أحسن حتى يتضح لهم الحق ويتبين لهم الهدى منه ﷺ من خلال الآيات القرآنية التى يتلوها عليهم صلى الله عليه وسلم والتى يدعوهم فيها خالقهم أن يعبدوه وحده ويخلصوا له العبادة ، لأنه المستحق وحده أن يعبد كما أنه وحده الذى خلق .

ثالثاً : صدق ما كان يدعو إليه ﷺ :

كان ﷺ يقابل الوافدين إلى مكة يعرض عليهم الإسلام ويطلب منهم التأييد ، لكنهم أبوا — يخرج إلى الطائف فيقابل بأسوأ مقابلة ، ثم يعود إلى مكة ليدعو الناس ويقف على منازل العرب الوافدة إلى البيت ، وكان جوابهم : أهلك وقومك أعرف بك — وتمر السنون ، وتأتى تلك القبائل مطمئنة إسلامها بعد ما تبين لها صدق ما كان يدعو إليه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام .

رابعاً : أثر القرآن الكريم الكبير والأساسى فى الدعوة :

يتضح ذلك أولا : من أن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن الكريم ، حيث كان الموجه لهذه الدعوة والواضع الحقيقى لخطط هذه الدعوة — الراسم لأساليبها البارعة وتحركاتها الناجحة ، المبين لأحوال الأمم السابقة مع رسلهم ومواقفهم المعاندة لهم .

لقد كان القرآن الكريم الدعوة بعينها — وهو المعجزة الخالدة لهذا النبى الكريم — تحدى العرب أهل الفصاحة أن يأتوا بمثله — حاولوا فعجزوا — سحرهم بيانه فكانوا يأتون خفية ليسمعوه من النبى ﷺ عندما كان فى مكة .

يقول الرافعى فى إعجاز القرآن : « وما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلفوا جوانبه بحثاً وتفتيشاً ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على ذلك خلقاً جديداً ومراما بعيداً ، وصعباً شديداً ، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا منه نزراً تهيأت لضعفه أسبابه ، وقليلا عرف لقلته حسابه وبقى ما وراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عنده الأعذار ، والابتغاء المعجز الذى انحط عنده قدر الإنسان ، لأنه ما سمحت به الأقدار »[1] .

عندما سمعت تلك الوفود تلك الآيات البينات من رسول الله ﷺ بهرهم بيانه وأخذ بألبابهم جماله ، وأثر فى نفوسهم وعده ووعيده ، وجذبهم إليه بيانه لما أعد الله لعباده المؤمنين من النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول ، فى جنات عدن ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاطمأنت به قلوبهم ، وانشرحت له صدورهم وظهر تأثيره العظيم فى نفوسهم ، وقد أوضح لأهل الكتاب بعضاً مما نزل على رسلهم من عند ربهم سبحانه وتعالى ، وحكى لهم ما كانت عليه أديانهم ، فعلموا أنه الحق من رب الخلق سبحانه وتعالى فآمنوا وأقروا بنبوة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

خامسا : القضاء على الوثنية فى جزيرة العرب :

بمجرد إيمان تلك الوفود بادت دولة الأصنام ، فحطمت الأصنام وأزيلت

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى ص١٤٠ .

الأوثان ، فمنها ما أزالها من كان يعبدها سابقاً ، ومنها من أرسل عليه الصلاة والسلام من أصحابه من أزالها إلى الأبد إن شاء الله تعالى ، وصدق الهادى البشير عندما كان يقول وهو يشير إلى أصنام قريش التى كانت حول الكعبة فى الفتح الأكبر : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، لقد أزيلت تلك الأصنام وحل محلها السجود للملك العلام وحده لا شريك له فرد صمد .

سادساً : عمل هذه الوفود على نشر الإسلام :

بعد أن ذاقت تلك القلوب حلاوة الإيمان ، واطمأنت النفوس إلى هذا الخير الكبير ، أخذت وهى قافلة إلى ربوعها تبين لأهليها وذويها وبنى قومها حقيقة هذا الدين ، وتدعوهم إليه ، وتتلو عليهم القرآن ، وتشرح لهم أركانه وأحكامه ، فقد تحملوا الأمانة من سيد الأمناء عليه الصلاة والسلام وهى الدعوة لهذا الدين ، وهى وظيفة كل المؤمنين بهذا الدين .

سابعا : ازدياد عدد المسلمين :

وهى حقيقة واضحة جلية بمجرد إسلام سكان الجزيرة العربية ومجىء وفودها إلى النبى ﷺ ازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، وخرج معه صلى الله عليه وسلم فى السنة العاشرة لحجة الوداع من المدينة المنورة عشرات الآلاف من المسلمين الذين أكرمهم رب العالمين بصحبة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ثامنا : ظهور المسلمين ومكانتهم بين الأمم :

لقد كان من نتائج دخول هذه الوفود فى دين الله أن ظهرت قوة المسلمين وأصبح العالم يحسب لها حساباً ، خاصة دولة الفرس فى الشرق ودولة الروم فى الشمال والغرب ، حيث تبوأت هذه القوة مكانتها من خلال القضاء على أعداء الدين فى الداخل ووصول أخبار الانتصارات الإسلامية إلى الدول الكبرى فى ذلك الزمان ، فأصبحت جزيرة العرب بلد الإسلام والمسلمين جميعا كلهم سواء ، وحدتهم كلمة التوحيد وجمع شملهم بعد تفرق هذا الدين العظيم ، فكانوا يداً واحدة ، وصفاً واحداً أمام من أراد هذا الدين بسوء ، فأصبحوا بذلك قوة مرهوبة .

تاسعا : حماية الله لرسوله من كيد الأعـــداء ومؤامرتهم :

لقد خطط بعض أعضاء تلك الوفود للغدر بالنبى ﷺ لكن عين الله كانت ترعاه ، ورحمته كانت تحوطه ، فلم يقدروا على تنفيذ ما دبروا من غدر ، وسلم الله سبحانه وتعالى رسوله من كيدهم ، وحفظه من مكرهم ، فلم يصلوا إليه بسوء .

عاشراً : صدور بعض الأحكام فى القرآن الكريم وتنزل الآيات :

ونظراً لعدم تأدب بعض تلك الوفود مع النبى ﷺ فقد تنزل الذكر الحكيم ببيان وجوب التأدب مع رسول الله ﷺ .

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » (١) الآية .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٤ .

ووفد نصارى نجران وقولهم فى عيسى بن مريم ونزول قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون » الآية (١) .

الحادى عشر : بروز الأدب الإسلامى فى النثر والشعر :

وظهر ذلك عندما أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يرد على خطبة عطارد بن حاجب ، وقد أوردنا تلك الخطبة فى استعراضنا لمقدم الوفود ، ثم إجابة حسان بن ثابت الزبرقان على قصيدته حيث قال شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبى محمداً
على أنف راض من معد وراغم
بحى حريد أصله وثراؤه
بجابية الجولان وسط الأعاجم
جعلنا بنيها دونه وبناتنا
وطيناً له نعساً بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا
على دينه بالمرهفات الصوارم

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٥٩ .

ونحن ولدنا من قريش عظيمها
ولدنا بنى الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالا عنـــد ذكر المكارم
هبلتم علينـــا تفخرون وأنتم
لنا خول من بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم
وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله نـــداً وأسلموا
ولا تلبسوا زياً كزى الأعاجم(١)

وكان الزبرقان قد قام وقال:

أتينـــاك كيما يعلم الناس فضلنا
إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس فى كل موطن
وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا
ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع فى كل غارة
نغير بنجد أو بأرض الأعاجم(٢)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤/٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق جـ ٤/٢١١ .

الثانى عشر : قيام الدولة الإسلامية المتكاملة :

بدخول تلك الوفود الإسلام اكتملت حبات العقد وأصبحت دولة الإسلام قائمة فى جزيرة العرب ، بقيادة الرسول الأعظم ﷺ حيث دخل الناس فى هذا الدين أفواجا أفواجا ، وظهرت هذه الدولة العظيمة تحوطها قلوب الألوف من المسلمين فى مكة والطائف والمدينة وخيبر والمشرق ، تنعم فى ظل الإسلام الوارف .

الباب الخامس

الدروس المستفادة من الأسلوب النبوي
في الدعوة

الباب الخامس

الدروس المستفادة من الأسلوب النبوى

فى الدعوة

يقول الحق تبارك وتعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[1] .

فكان عليه الصلاة والسلام الداعى الأول إلى الله سبحانه وتعالى بعد أن أنعم الحق سبحانه وتعالى على هذه الأمة بالإسلام ، بل على الدنيا بأسرها، وبعث خير الأنام من بطاح مكة ليعلنها مدوية من جنبات بيت الله العتيق للدنيا بأسرها بأن الله واحد لا شريك له ، لا يقبل الند أو النظير أو المثيل أو الشريك ؛ لأنه ليس له ند ولا نظير ولا شريك ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، فكما أنه ليس له شريك فى ملكه فإنه يجب أن لا يكون له شريك فى عبادته ، ومعلوم أن الدعوة إلى الله هى وظيفة كل الأنبياء رسل الله سبحانه إلى خلقه ، ومن أجلها بعث الله المرسلين ليدعوا الناس إلى عبادة الله وحده جل وعلا .

ومحمد ﷺ سيد المرسلين وخاتم النبيين كذلك .

قال تعالى : « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم »[2] .

---

(١) سورة الاحزاب الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة الحج الآية: ٦٧ .

وقال سبحانه : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب »(١) .

فكان أن استمر عليه الصلاة والسلام يدعو إلى ربه جل وعلا حتى أتاه اليقين من ربه وصار إلى جواره الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

كان ﷺ عارفا بطبائع النفس البشرية ، سابراً لأغوارها ، علمه ربه كيف يتعامل مع هذه النفس التي ذكرها سبحانه وتعالى بأنها : « لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم »(٢) .

فكان عليه الصلاة والسلام يعرف أن لهذا الإنسان استعدادات وقوى ودوافع تحركه ليختار هذا السلوك أو ذاك ، ويتجاوب مع تلك المنبهات والإرشادات والمذكرات التي يستقبلها بما أتاه الله سبحانه وتعالى من وسائل استقبال كالعين والسمع والعقل ، وهذا الإنسان بالرغم مما لديه من عوامل التوجيه لدوافعه لتسلك نفسه سبل الخير أو الشر ، لترتقي أو تهبط ، ترتقي بطاعة خالقها وبارئها ، وتسقط بالبعد عن خالقها سبحانه وتعالى ، بالرغم من ذلك فإنها تحتاج فوق ذلك إلى من يذكرها ويرشدها ويقوى ويدعم عوامل الإرادة الخيرة فيها .

وهذا الإنسان أيضا بجانب ما ذكرنا بحاجة إلى مثل يقتدى بها ويسير

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٦.

(٢) سورة يوسف الآية: ٥٣.

على نهجها ، ويسلك سبيلها فيصل إلى الخير والفلاح بإذن الله سبحانه وتعالى .

ورسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم أفضل وأشرف وأعظم مثل للإنسانية بأسرها ، لأن الحق تبارك وتعالى اصطفاه من بين خلقه وأنزل عليه خاتم كتبه كلامه جل وعلا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأدبه فأحسن تأديبه .

لذا نجد أن بجانب معرفته ﷺ بطبائع النفس البشرية وسبل التعامل مع هذه النفس ، وذلك مما علمه ربه سبحانه وتعالى وأطلعه على خفايا تلك النفس وسبل الوصول إليها وطرق التعامل معها ، بجانب ذلك كله كان عليه الصلاة والسلام كاملا فى خلقه وخلقه ، فكان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن .

وهذا أمر طبيعى فى حق من اختاره الحق تبارك وتعالى واصطفاه ليحمل أعظم رسالة إلى الناس كافة ، فضله على العالمين ، وجمع فى شخصه مكارم الأخلاق ، فكان بحق النموذج المثالى للإنسان الكامل صلوات الله وسلامه عليه ، فهو رحمة الله للعالمين ، رباه ربه فأحسن تربيته وأدبه فأحسن تأديبه ، فكان المثل الكامل لهذه الإنسانية .

لذلك كان يدعو إلى الدين القويم بلسانه وأخلاقه وسلوكه ، لأنه كان فى كل تحركه وسكونه لله رب العالمين تتجلى العبودية الحقة فى شخصه ﷺ ، فهو عبد الله ورسوله وصفوته من خلقه ﷺ ، وإمام الدعاة وقدوتهم ، وأسلوبه فى الدعوة هو المثل الذى يجب أن يتبع من الأفراد والجماعات الذين يريدون القيام بمهام الدعوة والنجاح فيها .

وبالنظر إلى بعض آيات الذكر الحكيم والتمعن فيها نجدها تعطينا لمحات مضيئة مشرقة لما كان عليه ﷺ من خلق عظيم .

يقول الحق تبارك وتعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »(١) .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »(٢) .

وليس هناك مجال لطاعن يطعن فى شخصه عليه الصلاة والسلام ، لما آتاه الله سبحانه وتعالى من الكمالات الكثيرة والعظيمة ، فقد كان ﷺ كامل الخلقة جميل الصورة ، قوى العقل صحيح الفهم ، فصيح اللسان قوى الحواس والأعضاء ، معتدلا فى حركاته ، شريفاً فى نسبه عزيزاً فى قومه ، وصادقا أمينا .

إضافة إلى ما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من علم ، فعلمه ما لم يكن يعلم عرف عليه الصلاة والسلام بالحلم والصبر والشكر والعدل والزهد ، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة ، وحسن المعاشرة .

بهذا كله كان عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى دين ربهم القويم ، فكان أن فتح الله سبحانه وتعالى على يديه قلوباً صماً وأعيناً عمياً ، وأزال

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

الظلام الذى كان يخيم على العالم بسبب بعد أهله عن ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى، وأصبح النداء الخالد : الله أكبر الله أكبر يتردد بين جنبات المعمورة وزهق الباطل وحطمت الأصنام والأوثان ، وظهر الحق بعد جهاد دام أكثر من عشرين عاما ، لقى فيه عليه الصلاة والسلام الكثير من السخرية والاستهزاء من سفهاء الناس وتعرض للقتل أكثر من مرة ، لكن الله نصر دينه وأعزه، ومكن لرسوله ﷺ ، وأورثهم أموال وديار أولئك الجاحدين الحاسدين المعاندين من المشركين والمنافقين والمجوس والمعاندين من أهل الكتاب ، فبلغ دينه ﷺ أرض فارس وأرض الروم كما قال ﷺ فى الحديث المشهور عند حفر الخندق .

لقد ذكرت سابقاً أن خلق النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم كان القرآن ، وهذا جزء من حديث طويل أورده الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافرين عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

فقلت : «يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ القرآن . قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن »[1] .

قال الإمام النووى : قولها : « فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن » . معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته »[2] .

---

(١) النووى على مسلم جـ ٦ / ٢٦ دار الفكر بيروت .

(٢) المرجع السابق .

لقد آتاه الله سبحانه ما لم يؤت أحداً من العالمين ، مكث الوحى ينزل على سيدنا الجليل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ثلاثا وعشرين سنة ، حيث كانت آيات هذا الذكر الحكيم تتنزل حسب الحوادث والأحوال ، فكانت هذه الحقبة فى حقيقتها فترة تعلم وتعليم .

الحق تبارك وتعالى يعلم عبده ورسوله محمداً ﷺ ، والرسول الكريم يتلقى من ربه سبحانه وتعالى تلك المعارف الجليلة العظيمة المشرقة الحية المباركة ، ثم يعلمها أصحابه بل يعلمها للناس جميعا .

فما أكثر الآيات الكريمة التى أتت إجابة لسؤال قد ورد أو سؤال لم يرد .

لقد كان هذا الكتاب بحق روح الإسلام ومادته فى آياته المباركة المحكمة حكم ما بيننا وخبر ما قبلنا ، ورسول الهدى ﷺ كان قرآنا حياً يسعى بين الناس ، لأنه المثال الحقيقى والحى لما صوره القرآن الكريم من إيمان بالله سبحانه وتعالى وجهاد فى سبيله وقوة وفقه وبيان . لذا نجد أن قول النبى ﷺ وفعله وتقريره شريعة لهذه الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

يقول تبارك وتعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا »[1].

وقال تعالى : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[2].

---

(١) سورة النساء الآية: ٨٠.

(٢) سورة الحشر الآية: ٧.

لقد كان ﷺ يدعو إلى الوحدانية المطلقة ، فهذا الإنسان ليس عبداً لأى كائن سواء هذا الكائن فى الأرض أو فى السماء ، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما ومن فيهما وكل شيء فيهما عبد لله خاضع لحكمه ، ذليل له ، راض بقضائه ، وهو سبحانه وتعالى ليس له شريك فى هذا الملك أبداً ، فمن حقه على عباده أن يهرعوا إليه مباشرة ، بلا وسطاء أو شفعاء ، وما دام أنه ليس له شريك فى ملكه ، ولا يقبل أبداً أن يكون له شريك فى عبادته ، فمن حق هذا العبد على نفسه أن يحقق هذه العبودية التى أقر بها لخالقه سبحانه وتعالى ، فلا يعبد أحداً غيره ، ولا يجعل بينه وبين ربه واسطة ، وحق عليه أيضا أن ينكر ويرفض غير هذا مما كان عليه الآباء والأجداد من عكوف على حجارة لا تنفع ولا تضر ، منها مثل تلك التى تقيم بها المساكن والدور أو ترصف بها الطرقات (كانت الأزقة والشوارع فى المدينة المنورة مرصوفة بالحجارة خاصة مناطق حول الحرم النبوى الشريف) وتقيم بها الجسور والسدود ، هذه هى آلهة العرب التى كانوا عليها عاكفين والتى عبدوها من دون الله سبحانه وتعالى ، مع علمهم بأن الذى خلقهم هو الله سبحانه وتعالى .

دعا عليه الصلاة والسلام إلى الوحدانية المطلقة ولفت أنظارهم إلى يوم القيامة (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا)[1] يوم تنصب الموازين وتنشر الدواوين ، فإما نعيم مقيم لا يحول ولا يزول ، وإما عذاب أليم يكون فيه مخلداً ، قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك

---

(١) سورة النبأ الآية : ٤٠ .

به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما »[1] . ولفت الأنظار إلى هذا اليوم العظيم يستلزم معرفة سبل النجاة من أهوال هذا اليوم ، وهذا يتمثل فى العبادات التى شرعها الله سبحانه وتعالى وبينها رسوله صلى الله عليه وسلم ليزكى هذه النفوس ويلزمها بأن تقوم بها للدلالة على العبودية الخالصة ، والارتباط بالحق تبارك وتعالى والقرب منه ، بتقديسه وتعظيمه ، والتذلل له وطلب الرزق منه ، والالتجاء إليه ، والخضوع له فى السراء والضراء ، والتوكل عليه والتمسك بحبله المتين لتصفو هذه النفس وتسمو بصاحبها إلى الدرجات العلا مبتعدة عن الوقوع فيما حذرت منه .

وهذه الآيات المباركة توضح بجلاء هذه الحقيقة الخالدة . قال تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[2] .

هذا ما كان يدعو إليه ﷺ ويحث عليه ، كلها معان عظيمة وأحكام

---

(١) سورة النساء الآية : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ١٥١ - ١٥٣ .

جليلة وضوابط عادلة محكمة ، تحقق لهذا الإنسان إنسانيته الكاملة ، وتوفر له سبل تحقيق العبودية الصادقة لله رب العالمين لا شريك له .

إن الدعوة المحمدية لم تكن فى يوم من الأيام لبناء سلطان أو وطن صغير محدود ، بل كانت لبناء الإنسان الذى وهبه خالقه الخلافة فى الأرض ليظل مع الحق ، وفى كنف الرحمن يتوارث هذا جيل بعد جيل ، لينعم بالكرامة والعزة والمنعة التى وهبها الحق تبارك وتعالى له ، فيعم السلام والإخاء هذه الأرض حتى نهاية هـــذه الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[1].

فلابد من السؤال ، ولا بد من الإجابة على ذلك السؤال ، وسعيد من تبع سيد المرسلين ، فإنه من القادرين على الإجابة على ذلك السؤال ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

روى الإمام البخارى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه فقال : « إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن تتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب[2] إلا يتساقطون فى النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله بر أو فاجر وغبرات[3] أهل الكتاب ،

---

(١) سورة الرحمن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الأنصاب : جمع نصب ، وهو حجر كانوا ينصبونه فى الجاهلية ويتخذونه صنما ويعبدونه .

(٣) غبرات : جمع غبر ، وهو جمع غابر والمعنى : بقايا أهل الكتاب .

فيدعى اليهود فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزير بن الله ، فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ فقالوا : عطشنا ربنا فاسقنا ، فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم[1] بعضها بعضاً فيتساقطون فى النار . ثم يدعى النصارى فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون[2] فكذلك مثل الأول حتى إذا لم يبق إلا ما كان يعبد الله من بر أو فاجر أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة[3] من التى رأوه فيها ، فيقال : ماذا تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : فارقنا الناس فى الدنيا على أفقر[4] ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ونحن ننتظر ربنا الذى كنا نعبد ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثا »[5] .

حقاً إن الشرك لظلم عظيم ، وهذا ما كان عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى التحرر منه والتوجه إلى الحى القيوم الذى بيده مقاليد الأمور سبحانه وتعالى عما يشركون .

وهذه حال صاحب الباطل ، فإن باطله يخونه ، لأنه لا حقيقة له ،

---

(١) يحطم : يكسر ، ومنه الحطمة لأنها تكسر كل شىء ، والسراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء .

(٢) تبغون : تريدون .

(٣) أدنى صورة : أقرب صفة .

(٤) أفقر : أحوج .

(٥) صحيح الإمام البخارى جـ ٦ / ٨٩ ، ٩٠ عالم الكتب بيروت .

وهكذا الاعتقاد إذا كان غير حق كان متعلقه باطلا والغاية إذا كانت لغير الله سبحانه وتعالى بطل العمل .

لقد كانت حياة هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم مدرسة فى كل نبضة من نبضاتها ، وما زالت هذه المدرسة قائمة ينهل الدعاة منها ما شاءوا ، فعطاؤها ممتد ، يأخذه ويحمله بأمانة وصدق جيل بعد جيل حتى وصل إلينا ، وسوف يمتد هذا العطاء إن شاء الله ؛ لأن المنهج الذى تقوم عليه هذه المدرسة واضح المعالم ، إنه منهاج الله سبحانه وتعالى لعباده ، قرآن وسنة وهذا المنهاج هو الذى قامت هذه المدرسة من أجله وبسببه . لقد كان لهذه المدرسة آدابها وأساليبها التى تختلف عن كل ما وضعه البشر من عند أنفسهم من أساليب وآداب ، إنها آداب النبوة وأساليبها .

آدابها المتمثلة فى خلق صاحب الخلق العظيم ، الذى كان خلقه القرآن ، وأساليبها الحكيمة الرحيمة التى تحبب النفس البشرية فى الخير وترغبها فيه وتحثها عليه ، وتأخذ بيدها شيئاً فشيئاً حتى تقدر على المسير ، وتألف الطريق ، فتتمسك به وتحرص عليه وتبذل كل ما فى وسعها للمحافظة عليه والاستزادة من الخير .

لقد كانت آداب مدرسة النبوة تتمثل فى الكلمة الطيبة والابتسامة المشرقة عند الحديث ، والقصد فى الموعظة والرقة والوضوح فى القول ، والتعاون ، وطلاقة الوجه ، والعدل والإنصاف ، والصدق والأمانة ، والتواضع والتراحم ، وسائر آداب هذا الدين العظيم وأخلاق القرآن الكريم .

أما أسلوبها : فهو الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ،

والثبات على المبدأ ، واختيار أنسب الطرق وأيسر القول لإيضاح أهداف هذا الدين وأصوله للناس جميعاً ، بلا فظاظة أو غلظة أو شدة وقسوة ، بل بالعطف واللين ، والقدوة الحسنة ، لأن النفس البشرية لن يتم استدرار عطفها إلا بالتى هى أحسن ، وهذه حقيقة ثابتة لا جدال فيها ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[1] .

والله أسأل أن يشرح صدرى وييسر أمرى كى أتمكن من إبراز الدروس المستفادة من أسلوب صاحب المقام المحمود والحوض المورود فى الدعوة صلوات الله وسلامه عليه فهو خير معين بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

---

(١) سورة فصلت الآية : ٣٤ .

الفصل الأول

التدرج في الدعوة

الفصل الأول

التدرج فى الدعوة

فى البداية يحسن بنا أن نقف على المعنى اللغوى لكلمة تدرج .

تدرج: أى تقدم شيئاً فشيئاً ، وفيه تصعد درجة درجة[1] .

وتدرج الدعوة أى تقدمها شيئاً فشيئاً .

لقد أوضحنا فى مقدمة هذا الباب مكانة هذا الدين العظيم وما جاء به من نظام يكفل لهذا الإنسان سعادته واستقراره ، ويبعد عنه اعتداء المعتدين ، وكيد الآثمين ، لأن الله حرم دمه وماله وعرضه ، وأوضحنا أيضاً اختيار الحق تبارك وتعالى هذا اليتيم ليكون المبلغ لهذا الدين للناس أجمعين ، وكيف أن هذا الاختيار لهذا الرسول العظيم زاده بهاءاً على بهاء ، حيث كانت سيرته فى قومه سامقة لا يصل إليها أحد ، فقد كان مبغضا للأصنام ، وكانوا يدعونه بالصادق والأمين ، عرفنا هذا كله فى المقدمة ، وأكدنا على تلك العظمة وذلك التأثير الكبير لهذا الدين الحنيف ، ومع ذلك كله سار عليه الصلاة والسلام فى دعوته الناس إلى الإسلام بشكل تدريجى لحكمة عظيمة وهدف جليل .

---

(١) المعجم الوجيز ص ٢٢٤ بمجمع اللغة العربية - المركز العربى للثقافة ، بيروت .

الحكمة فى ذلك : أن تركيبة ذلك المجتمع الجاهلى قائمة على تقديس وتعظيم هذه الأوثان وتلك الأصنام ، توارثوها أباً عن جد حتى وصلت إليهم فكانوا متمسكين بها إلى حد بعيد ، وكان بعضهم يعيش عليها ، أو على الأصح يعتمد عليها فى معيشته عن طريق خدمتها وجمع الهدايا والقرابين التى تأتى إليها ممن يعبدونها ، وبعضهم يرى عبادتها إرث الآباء والأجداد والمحافظة عليه واجبة، ناهيك عن أنها آلهتهم ـ والحالة كما ذكرنا ـ لن يكون الطريق إلى إقناعهم بتركها سهلا وميسوراً ، فلا بد من التعامل معهم بحذر وحكمة وروية ، حتى تتضح لهم الحقيقة ، وكان هذا الذى سلكه ﷺ .

أما الهدف الجليل الذى كان يتوخاه عليه الصلاة والسلام من التدرج فى الدعوة ، فهو الحفاظ عليها ، وحمايتها من بطش عبدة الأصنام وعدم إتاحة الفرصة لهم للقضاء عليها فى مهدها .

لذا نجد أن نبى الرحمة عليه الصلاة والسلام عرض الإسلام أولا على ألصق الناس به ، عرضه على أولئك الكرام الذين لم تخالجهم ريبة قط فى صدق الأمين عليه الصلاة والسلام وجلال نفسه وعظمته ، ومكانه السامق فى قومه ، وأعنى بألصق الناس به أهل بيته وأصدقائه .

أهل بيته الذين كانوا يعيشون معه وملتصقين به ، زوجته خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة ، وابن عمه على بن أبى طالب الذى كان صبياً يعيش معه فى بيته ، وصديقه الحميم أبى بكر الصديق ، هؤلاء كانوا الأهل والخلان ، يعرفهم عليه الصلاة والسلام تمام المعرفة ، وهم أيضاً يعرفون صدقه وخلقه وسلوكه جيداً .

وقضية التدرج فى الدعوة فى حقيقتها كانت توجيهاً إليها نزل به القرآن الكريم على الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وكان ذلك ـ كما عرضنا فى فصل سابق ـ قد بدأ بقول الحق تبارك وتعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها المدثر ٭ قم فأنذر ٭ وربك فكبر »[1] .

فآمن أهل بيته ـ كما ذكرنا ـ وصديقه الحميم الذى شارك مشاركة عملية فى نشر الإسلام حيث بلغ بعض رجالات مكة من أهل ثقته ومودته ، كعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وفشا الإسلام فى مكة بين تلك العصبة المباركة التى نور الله سبحانه وتعالى قلوبهم ، فرأوا الحق واتبعوه ودعوا إليه بإخلاص وتفانى ، استمرت هذه الفترة ثلاث سنوات ثم نزل الوحى بأن يقوم عليه الصلاة والسلام بالمرحلة التالية وهى معالنة قومه بعد أن صدع بهذا الأمر العظيم فقال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين ٭ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ٭ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون »[2] .

وصعد على الصفا ونادى قومه وأبلغهم ، وطلب من ابن عمه على بن أبى طالب أن يصنع طعاماً ويجمع بنى هاشم ففعل ، فأبلغهم رسالة ربهم .

هذا هو التوجيه الربانى لرسول الله ﷺ فى التدرج فى الدعوة والذى كان بمثابة الموجه والمرشد له ﷺ حيث استفادت الدعوة من هذا الأسلوب فائدة كبيرة .

---

(١) سورة المدثر الآية : ١ ـ ٢ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

وقد أوضحنا فى فصول سابقة فوائد أسلوب الاستسرار بالدعوة والتى استطاعت من خلاله تكوين فئة مؤمنـــة ، قوية فى إيمانها ، أنار الله سبحانه وتعالى أفئدتها لهذا الدين ، فكانت عونا له فى السراء والضراء ، وكانت تشارك مشاركة فعلية فى الدعوة ، بإبلاغ ذويهم ومحبيهم وتشجيعهم على الدخول فى هذا الدين ، ونبذ عبادة الأوثان التى اتخذوها آلهة من دون الله سبحانه وتعالى ، فكانت قريش تؤذى الفئة المؤمنة الضعيفة كآل ياسر وبلال ، وكانت بعض الأسر تحاول الضغط على أبنائها لترك هذا الدين كما حدث لسعد بن أبى وقاص ومصعب بن عمير .

وفى اعتقادى أن الذين كانوا يعذبون من قريش كآل ياسر وبلال بن رباح وغيرهم كانوا يشاركون مشاركة عظيمة فى نشر هذه الدعوة ، ويؤكدون على عظمة هذا الدين الذى اعتنقوه ، وذلك من خلال تحملهم وصبرهم على ذلك الأذى المتنوع ، وذلك العذاب المميت الذى تلقوه من كفار قريش ، وكانت صرخات بلال ، أحد أحد ، تهز كيان ذلك المجتمع ، وتقف كعلامة استفهام كبيرة أمام أبصار أفراده ليعودوا إلى الواحد الأحد الذى خلقهم وصورهم ورزقهم ، وينبذوا تلك الأصنام التى يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى .

لقد كان لقوة إيمان هذه الفئة القليلة من بطون متفرقة من أهل مكة أثره الحاسم فى قطع الطريق على كفار مكة كى لا يصلوا إلى هدفهم ، وهو القضاء على هذا الدين منذ البداية .

كما أن التدرج فى الدعوة أتاح للفئة المؤمنة فرصة إظهار مزايا هذا الدين وما فيه من خير وفضيلة ، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا فى أعمال من يدعونهم إلى الخير ، فإن رأوا منهم وقوفهم عند حدود ما يدعون إليه

أتبعوهم ، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم ؛ لذلك يقال : إن تأثير العمل على الناس يفوق تأثير القول، وأسلوب التدرج فى الدعوة أتاح لسيد المرسلين ﷺ ومن معه من المؤمنين فرصة إبراز محاسن هذا الدين العظيم القولية والعملية ، والبعد عن عادات الجاهلية وتقاليدها الضارة بالأخلاق والسلوك السوى ، مثل : شرب الخمر ولعب الميسر والتعامل بالربا والتفاخر بالمركز القبلى أو الاجتماعى .

أسلوب التدرج فى الدعوة كان فرصة للنبى ﷺ لمعالجة نفوس القوم المريضة وقلوبهم المغلقة والمتمثلة فى أولئك المعرضين عن الدعوة ؛ لأن كفار مكة ـ كما أوضحنا سابقا ـ قابلوا هذه الدعوة بجفاء وعناد نادرين .

فلا بد لهذه القلوب من زواجر ومواعظ وتذكير يلامسها ويبصرها بحقيقتها التى من أجلها خلقت ، وهى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد . قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[1] .

فالتدرج فى الدعوة يفسح أمامهم المجال ليتدبروا هذا الأمر ويفكروا جيداً فيما هم فيه من بعد عن خالقهم سبحانه وتعالى ، وجحود له سبحانه وتعالى الذى أكرمهم وفضلهم على غيرهم من المخلوقات ، بأن وهبهم هذا العقل ليفكروا فيه وفى حقيقة وجودهم واستخلافهم فى هذه الأرض ، وما أنعم عليهم من نعمة الخلق والرزق ، كما قال تعالى فى محكم التنزيل : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج

---

(١) سورة الذريات الآية : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ٭ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ٭ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ٭ قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ٭ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ٭ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ٭ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٭ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »[1].

إن هذا المجتمع الوثنى الذى تمكنت منه الوثنية إلى هذا الحد البعيد الذى أصبح لا يرى الحق والنور فى حاجة إلى وقت وجهد لإحداث عملية تغيير ناجحة ، وهذا يحتاج فى نفس الوقت إلى ذلك التدرج الذى سلكه صلى الله عليه وسلم فى دعوته لهم ، ببيان وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال بعض المفاهيم التى كانت لديهم ، وهذا ما أوضحته الآيات السابقة من سورة يونس من خلال الحوار الهادىء والبيان الشافى الذى اشتملت عليه تلك الآيات البينات .

إن مراحل الدعوة المحمدية والتى بدأت بالدعوة سراً لمدة ثلاث

---

(١) سورة يونس من الآية : ٣١ إلى الآية : ٣٨ .

سنوات ، ثم إنذار العشيرة ومكاشفة المجتمع المكى بهذه الحقيقة ، إنما هى فى حقيقتها عملية تدرج وتقدم فى الدعوة إلى الأمام خطوة خطوة ، وذلك لإرساء قواعدها فى هذا المجتمع على أسس راسخة وثابتة ممثلة فى الصفوة المختارة من أصحاب العقول النيرة والقلوب الطيبة والنفوس الخيرة ، كأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وأولئك الأخيار من السابقين إلى الإسلام من الصحابة الكرام رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم وجزاهم عن تلك المواقف البطولية خير الجزاء ، إنه ولى ذلك والقادر عليه لإظهار حقيقة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من وجوب توحيد الله بالعبادة وتطهير النفوس مما ران عليها حتى أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، فصلاة الله وسلامه عليك يا من بعثت رحمة للعالمين .

الفصل الثاني

تربية الأصحاب

الفصل الثاني

تربية الأصحاب

كان الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم جميعا يمثلون الجماعة التي أوجبت على نفسها حماية هذا الدين الذي آمنت به وصدقت برسوله ﷺ بالرغم من ثمن هذا الإيمان الباهظ، والمتمثل في غضب العشيرة وجفاء الأهل والقرابة، بل أكثر من ذلك، العذاب والهجر والمقاطعة والتعرض للموت.

لقد نور الإسلام وضياء الإيمان الذي غمر تلك القلوب فأصبحت لا ترى إلا الحق، ولا تحسب لما تلقاه في سبيل ذلك من عذاب وهوان من الأهل والعشيرة أي حساب، لأن الرسول الكريم كان يتلو عليهم القرآن، حيث كانت آياته البينات تقص عليهم نبأ الأمم من قبلهم، وصبرهم وتحملهم ألوان التعذيب والسخرية والاستهزاء، فلم يكترثوا لذلك لأن قلوبهم قد انشرحت لدعوة الحق والإيمان برب السموات والأرض، وتحصنت نفوسهم ضد أي فتنـــة أو مفتنين، يتلقون ألوان العذاب بنفوس راضية وقلوب مؤمنة مطمئنة.

لقد تربوا رضوان الله عليهم في مدرسة القرآن الذي أنزل على سيدهم وسيد العالمين ﷺ، وتدفعهم تلك الأنباء القرآنية والآيات الربانية إلى مزيد من الثبات والقوة والتمسك بهذا الدين والإصرار على ذلك، كما ثبت الذين من قبلهم من المؤمنين مع رسل الله سبحانه وتعالى إلى تلك الأمم السالفة.

لم تكن الفئة المؤمنة التى أحاطت بالسيد الجليل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بالذليلة أو اليائسة أو الواهنة عندما كانت الفئة الكافرة ترسل عليها ألوان السخرية والاستهزاء وأشكال البطش والاعتداء ، لم تكن كذلك ، لكنها التربية ؟ التربية على ضبط النفس والتحمل ، لأن هذه المهمة تحتاج لرجال من نوع لم يعرفه المجتمع العربى من قبل ، تحتاج إلى رجال لا يصرفهم مال أو أهل أو ولد عن هذا الدين الذى وجدوا فيه نفوسهم . هذا الدين الذى جاء لعزة الإنسانية جمعاء ، لذا نجدهم فى خندق واحد ثلاثة عشر عاما يحتملون أنواع وألوان العذاب ، بل ويتعرض جزء منهم للموت وهم يقولون : يا مرحبا بالموت فى سبيل الله ، إنها التربية المحمدية الإسلامية القرآنية الحكيمة الكاملة الشاملة ، وكأن هذه السنين تمهد لما بعدها من مهام جسام تنتظر الأصحاب الكرام هنا فى هذه البلدة الطيبة المباركة مهاجر خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ .

لقد كانت المدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم حيث اللقاء بالقائد المعلم الأمين الصادق الرحمة المهداة ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - يهون عليهم ويصبرهم ويوجههم إلى ما يجب أن يقوموا به تجاه هذه الدعوة السماوية المباركة ، إعداداً لهم لمواجهة تطورات أكثر وأكبر وأعظم .

لقد كانت التربية لأولئك الأصحاب على مرحلتين :

المرحلة الأولى : كانت فى مكة المكرمة حيث ركزت أولا على ضبط النفس والصبر على الأذى وتحمل المشاق فى سبيل تبليغ هذه الدعوة واستعدادا لمرحلة قادمة تكون أشد ضراوة من سابقتها .

المرحلة الثانية : كانت فى المدينة المنورة ، وقد تميزت هذه المرحلة بالإقدام

والجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى ، وخوض غمار النزال ومحاربة المعتدين وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ، ليعم الأمن والسلام ربوع البلاد وتطمئن النفوس فى ديارها ويقضى على الشرك والشر والباطل وأهله ، وهذا لا يقوم به إلا من أعد إعداداً خاصا وتربى تربية قرآنية كريمة ؛ لأن حب الإنسان لنفسه وتمسكه بالأهل والأولاد ، والعشيرة والمال يحول بينه وبين هذه البطولات وتلك الفدائية والتضحية ، ولا يمكن أن يجود الإنسان بنفسه بروح مطمئنة ونفس راضية إلا إذا كان ذلك لخالقها سبحانه وتعالى ، وقد تحققت هذه النوعية من التربية على يدى سيدنا رسول الله ﷺ وكان الدليل الواضح ما تحقق فى ساحة القتال من انتصارات خارقة وباهرة مع قلة العدد والعتاد .

لقد أعد النبى ﷺ أصحابه بعناية فى المرحلة المكية من الدعوة وربام أحسن تربية ، حيث تتنزل الآيات الكريمات فيها الأمر بالتوجه إلى الخير والصلاح والالتزام به ،وحب ذلك الخير للناس جميعا وتحمل المشاق فى سبيل الوصول بأولئك الناس إلى هذا الخير مهما كانت العقبات ومهما بلغت التضحيات واشتدت الأيدى الآثمة بالتعذيب والتنكيل بهم .

قال ابن سعد : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق ، وبلال ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار ، فأما رسول الله ﷺ ، فمنعه عمه ، وأما أبو بكر فمنعه قومه .

وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهروهم فى الشمس ، حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ فأعطوهم ما سألوا لجاء كل رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء فألقوهم فيه وحملوا بجوانبه إلا بلالا ، فلما كان العشى

جاء أبو جهل فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها ، فهى أول شهيد استشهد فى الإسلام ، إلا بلالا ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله حتى ملوه ، فجعلوا فى عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبى مكة ، فجعل بلال يقول : أحد أحد » (١).

وهذه إشراقة أخرى من تلك الإشراقات المضيئة فى حياة هذه الدعوة المباركة ، إنه أبو بكر الصديق أول خطيب دعا إلى الله ورسوله ، يقول ابن كثير فى البداية والنهاية : عن عائشة قالت : لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال : « يا أبا بكر إنا قليل » فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفر من المسلمين فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله ﷺ جالس ، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوه فى نواحى المسجد ضربا شديداً ووطىء أبو بكر وضرب ضربا شديداً ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزل على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ / ٢٣٣ دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٧ هـ.

أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ فسوا منه بألسنتهم وعذلوه[1] ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك . فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا[2] ، فدنت أم جميل وأعانت بالصياح وقالت : والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : أين هو ؟ . قالت : فى دار ابن أبي الأرقم . قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، قال : فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب المسلمون ، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة ، فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار ، قال : فدعا لها رسول الله ﷺ

---

(١) عذلوه : العذل : اللوم .

(٢) دنفا : ثقيل المرض قريبا من الموت .

ودعاها إلى الله فأسلمت »[1].

وهذا الجاهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ فى مكة وما لقى من قريش من أجل ذلك ، صورة أخرى من صور التربية الحميدة .

قال ابن هشام : كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دعونى فإن الله سيمنعنى . قال : فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ، ثم قرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، رافعا بها صوته « الرحمن علم القرآن » . قال : ثم استقبلها يقرؤها . قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال : ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه . فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً ، قالوا : لا ، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ / ٢٩ ، ٣٠ تحقيق د . أحمد أبو ملحم ورفاقه ، دار الكتب ، بيروت .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣٣٦ .

هذه النفوس المشرقة المطمئنة تربت على يدى رسول الهدى ﷺ ، وتشبعت بالنفحات القرآنية المباركة والتوجيه الإلهى الفياض الميمون فاعتبروا من قصص الأمم السابقة ، وما لقوا من مشاق فى سبيل التوحيد وتحقيق العبودية الصادقة لله رب العالمين لا شريك له .

فأصبح لا شىء فى الوجود يزحزحها عن عقيدتها ولو قيد أنملة بعدما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من بركاته ونعمه ، وهداهم إلى الإسلام ، وأنقذهم من عبادة الأصنام والبعد عن الملك العلام سبحانه وتعالى .

ولو أردنا أن نستطرد فى هذا المقام لطال الحديث لكنها أمثلة سريعة للأصحاب الكرام رضوان الله عليهم وتأثير الإسلام فى نفوسهم بقرآنه وسنة نبيه ﷺ ، فكانت أن صمدت فئة صغيرة أمام مجتمع بأكمله بقوته وسلطانه وعناده وتجبره وغطرسته وبعده عن الإنسانية ، إذ تجرد أحدهم - وهو أبوجهل - من الرجولة والشهامة العربية ، وامتدت يده الآثمة إلى امرأة مسكينة ليس لديها ما تدافع به عن نفسها فطعنها حتى الموت ، بكل هذا التجبر والتكبر حاولت الجماعة الكافرة أن تقف أمام هذه الدعوة وانتشارها ، لكن عزيمة الرجال وصمود الأبطال كان أقوى من ذلك كله لأنها عزيمة نابعة من إيمان صادق وحب لا حدود له لله ورسوله ، وصمود لا مثيل له لأنه كان على الحق ومن أجل إعلاء كلمة الحق .

وما أن انقضت تلك السنوات المكية من الدعوة حتى وصلت الجماعة المؤمنة إلى مرحلة عظيمة من الاستعداد ومواجهة الأحداث الجسام ، لقد أينعت الثمرة وحان قطافها ، كان قطافها من سكان الجزيرة العربية جميعها ، الذين ظلوا سنين طويلة فى تلك الظلمة المتمثلة فى الكفر والظلم والحروب

وسفك الدماء ، لتأتى هذه العصبة المؤمنة بالنور الذى جاء من رب العالمين ويتشلوا المجتمع العربى بأسره من ذلك الانحطاط والجور وتلك الوثنية البغيضة ، فينعموا جميعا بخيرات هذا الدين العظيم .

تسابق الأصحاب إلى الهجرة امتثالا لتوجيه سيدهم ﷺ سواء الهجرة إلى الحبشة الأولى أو الثانية ، أو الهجرة إلى المدينة ، كلها ترك للأهل والوطن ومراتع الصبا ، لكن ذلك فى سبيل الله هو المنى ، لقد كان التأثير عظيما فى تلك النفوس والتربية منتجة وناجحة ، فما أن يشير عليه الصلاة والسلام إلى أمر حتى تجدهم يتسابقون إليه بنفوس راضية وقلوب مطمئنة ، إنه الحب العميق الذى امتزج بكل ذرة وخلية من خلايا أجسامهم ، إنه الانقياد لرب العالمين ولرسوله الكريم ﷺ ، حتى أضحت تلك الشخوص مثالا يقتدى به إلى أن تقوم الساعة .

وتأتى المرحلة المدنية بما فيها من أحداث جسام ويقف الأصحاب بجانب مربيهم وهاديهم ﷺ طائعين لله رب العالمين ، وتقرع أسماعهم هذه الآيات البينات :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »[1].

إنه الجهاد وإنها التربية ، التربية القرآنية العظيمة التى جعلت من

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ - ٤٠ .

تلك القلوب القاسية قلوبا خيرة ندية ، تبيع نفوسها لله رب العالمين ، تراهم يتدافعون إلى ساحات القتال ليجدوا ما رباهم عليه رسول رب العالمين النصر أو الشهادة ، ومرحبا بالشهادة فى سبيل الله ونشر دينه القويم.

ورسول الله ﷺ لم يبعث للقتال ، وليس القتال عند المسلمين غاية لذاته ، بل ينظر إليه نظرة أسمى من ذلك بكثير وأجل وأرفع ، يقول سيد قطب فى ظلال القرآن :

(الإسلام لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والموادعة ، إن السلام هو غاية الإسلام كما تقرر آيات أخرى كثيرة فى القرآن الكريم ، ولكنه السلام الذى لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغى ولا عدوان ، أما حيث يقع البغى والعدوان على أى مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة كحرية العقيدة وحرية العبادة ، واستقامة السلوك الفردى والجماعى ، أما حيث يقع البغى على أى مقوم من هذه المقومات ، فالإسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على العدوان ، فليس السلام فى الإسلام هو المهادنة والموادعة إنما هو تحقق الخير والعدل على النهج الذى رسمه الله للعباد) "[1].

لقد خرجت العصبة المؤمنة فى سبيل الله من مكة بعد أن هيأ الله سبحانه وتعالى لها مقرا جديداً فى المدينة المنورة ، واجتمع الشمل فى طيبة الطيبة ، وبنى المسجد بتلك السواعد المؤمنة المباركة ، ومعهم سيدهم ﷺ ، وأخذت آيات سورة البقرة فى النزول موجهة ومربية لهم ، تختلج فى تلك النفوس

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٤ / ٢٤٣٦ (بتصرف) دار الشروق .

الطاهرة وتتفاعل معها وتستقر فى أعماقها ، وكأنها تمهد للنصر الأكبر فى السنة التالية هناك فى بدر الكبرى ، يقول تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون »[1].

وكانت هذه السورة تشير إلى الجهـــاد والإنفاق فى سبيل الله سبحانه وتعالى .

وجاء يوم الفرقان يوم التقى الجمعان وقد تهيأت تلك الأذهان وتربت تلك النفوس إلى الحد الذى يجعلها تواجه جموع الكفر والضلال ، وكانت الموقعة الكبرى ، ورأى الأصحاب بأعينهم نصر الله سبحانه وتعالى ، فزاد الإيمان فى قلوبهم ، وأيقنوا أن الله معهم ، إذا كانوا قليلا فى العتاد والعدد ، لكن الله ثبتهم ونصرهم على عدوهم ، وأيدهم بالملائكة ، وزادت هذه المعركة من إقدامهم على ساحات القتال وثباتهم أمام الأعداء .

ويأتى التوجيه الإلهى بالسمع والطاعة لله ورسوله ﷺ ، وعدم التولى ، يقول الحق تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون »[2].

ثم يقول سبحانه وتعالى للمؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢٠ ، ٢١ .

وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون »[1].

وتأتى موقعة الثأر فى السنة الثالثة للهجرة حيث جمعت قريش فرسانها وعتادها وعددها للثأر من يوم بدر ، أتت قريش وقد أينعت ثمرة التربية المحمدية لأولئك الأصحاب ، أينعت ثباتا حول رسولهم ﷺ بعد ما أصابهم القرح وتصدع الجيش ، لكن التربية كفيلة بأن يعاد البناء ويلم الشمل ويعاد ترتيب الصف مرة أخرى ليقف كالجبل الأشم أمام تلك الجموع الكافرة .

وتأتى قبائل العرب فى السنة الخامسة للهجرة متحزبة وعاقدة العزم على إزالة هذه العصبة المباركة من الوجود ، لكن ثمرات التربية المباركة ظهرت فى هذه الموقعة ، إذ لم تكن أى موقعة من المواقع التى خاضها المسلمون أشد من هذه الموقعة ، موقعة الأحزاب ، لكن الأصحاب الكرام صبروا على تلك الشدائد ، خوف وجوع وبرد وعدو يحيط بالمدينة ، وعدو آخر يتربص بهم الدوائر فى الجزء الشرقى من المدينة وهم اليهود ، كل هذه الأخطار وهم بجوار قائدهم سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام صامدون ثابتون ، ويأتى الفرج الإلهى وتتنزل الرحمات بنصر مبين لجند الله المرابطين الصابرين المؤمنين ، وتصور الآيات البينات ذلك الموقف أصدق وأروع تصوير ، حيث يقول تبارك وتعالى فى سورة الأحزاب :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءتكم جنود

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٤ .

فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون زلزلوا زلزالا شديدا »[1].

ثم يقول تعالى فى نفس السورة : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما »[2].

لقد أنتجت التربية المحمدية أولئك الأفذاذ من الرجال المؤمنين المصدقين الموقنين بنصر الله سبحانه وتعالى وما ادخره لهم من أجر عظيم وجنات عرضها السماوات والأرض .

لقد كانوا علامات مضيئة فى تاريخ هذه الأمة المسلمة المجيدة وتمر السنون ، وتأتى السنة الثامنة من الهجرة ، ويعود الذين أخرجوا من ديارهم إلى ديارهم ، ويجىء نصر الله والفتح الأكبر ويتمكن أولئك الأصحاب من الذين طردوهم وقاتلوهم وتأبى تربيتهم المحمدية أن يقتصوا لأنفسهم من أولئك المعتدين ، لأن سيدهم ﷺ صفح عنهم وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ما أعظمها من تربية تلك التى تهتم بالنفوس والقلوب قبل الأجسام ، تلك التربية التى جعلت من أولئك الجفاة الغلاظ الشداد أناسا رحماء متسامحين متحابين ، متعاونين كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أولئك هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخيار رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٩ - ١١ .
(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٢ .

الفصل الثالث

الحكمة والموعظة الحسنة

الفصل الثالث

الحكمة والموعظة الحسنة

من بين الدروس المستفادة من الأسلوب النبوى الكريم فى الدعوة : الحكمة والموعظة الحسنة .

فالحكمة هى عبارة عن «معرفة أفضل الأشياء بأفضل المعلوم »[1].

وقال الإمام ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة »[2].

الحكمة هى : الفقه فى الدين والعقل والإصابة فى القول[3].

وقال ابن كثير فى تفسير نفس الآية : « الحكمة : الفهم والعلم والتعبير »[4].

وقال البغوى فى تفسير الآية : الحكمة : المعرفة والإصابة فى الأمور، وقيل الحكمة : شىء يجعله الله فى القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر »[5].

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ١٢/١٤٠ دار صادر ، بيروت ـ لبنان .

(٢) سورة لقمان الآية : ١٢ .

(٣) جامع البيان لابن جرير ١٠ / ٤٣ دار المعرفة بيروت .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ / ٤٦٢ .

(٥) تفسير الخازن على البغوى جـ ٣ / ٢١٥ لعلاء الدين الخازن دار الفكر ١٣٩٩هـ .

لقد كان ﷺ حكيما يوم أن استسر بالدعوة وتجمع حولها الرجال الأبطال من السابقين إلى الإسلام ، وأخذوا يرعونها مع رسول ﷺ ويدعون الناس إليها خفية، لأن الحكمة تقتضى ذلك الأسلوب فى ذلك الوقت بالذات ، حيث نصر الله سبحانه وتعالى هذه الدعوة بأولئك الكرام من صحابة رسول الله ﷺ أمثال : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وزيد والزبير ، وسعد ، وعمار ، وبلال ، وصهيب ، ومصعب ، وحمزة ، وجعفر ، والأرقم ابن أبى الأرقم ، وبقية الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم جميعا من الذكور والإناث الذين عملوا على إرساء قواعد هذه الدعوة فى ذلك المجتمع الوثنى بحمل هذه الدعوة بأمانة وصدق ووفاء وعزم راسخ لا تزعزعه الأحداث الجسام ، يفدون رسولهم ﷺ بكل ما يملكون، ويدافعون عن دينهم بكل ما يستطيعون .

فكان أن انقضت تلك الفترة السرية بنجاح عظيم ، حيث أصبحت بيوتات مكة وأنديتها تتحدث عن ابن عبد المطلب ﷺ .

كان عليه الصلاة والسلام حكيما عندما بدأ الإنذار بعشيرته الأقربين ، تنفيذاً لأمر رب العالمين حيث قال : « وأنذر عشيرتك الأقربين » واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، لم يندس أو يتوارى ثم صعد بعد ذلك على الصفا كعادة أهل مكة عندما يحزبهم أمر وهتف بأعلى صوته : يا بنى عبد المطلب يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة .

ذكر ابن سعد ذلك فقال : لما أنزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد رسول الله ﷺ ، على الصفا ، فقال : يامعشر قريش . فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : مالك يا محمد ؟ قال :

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة ـ حتى عد الأفخاذ من قريش ـ إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله . قال : يقول أبو لهب : تبا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ .

فأنزل الله تبارك وتعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد » (١).

وكان ﷺ حكيما يوم قابل تلك الإساءات وذلك الجحود من قومه بالصفح والصبر الجميل .

وكان ﷺ حكيما يوم أن تلطف مع آل ياسر وهون عليهم ما هم فيه من العذاب وقال لهم : أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وكان ﷺ حكيما يوم أن أشار على أصحابه الكرام بالهجرة إلى الحبشة بعد أن شددت قريش عليهم وأذاقتهم صنوف التعذيب والأذى .

وكان ﷺ حكيما يوم أن ثبت على دعوته بالرغم من الحصار ثم موت الحماية والمؤازرة والحنو والعطف المتمثلة فى عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها ، واشتداد بطش بالمسلمين وشدتهم ﷺ .

---

(١) طبقات ابن سعد محمد بن سعد جـ ١ / ٢٠٠ ـ سورة المسد .

وكان ﷺ حكيما يوم أن خرج إلى الطائف بحثا عن مؤيد لهذه الدعوة فى بنى ثقيف ، وكان أن قوبل مقابلة سيئة واعتدى عليه صلى الله عليه وسلم بالضرب والشتم .

وكان ﷺ حكيما يوما أن قال لزيد بن حارثة : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وأن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه »[1] .

وكان ﷺ حكيما يوم أن طلب أن يدخل فى جوار المطعم بن عدى المشرك لترى قريش كيف أن هذا الدين ينتصر بأحد رجالاتها ويدخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة رافع الرأس فى جوار أحدهم ؟

يقول ابن سعد : أرسل ﷺ رجلا من خزاعة إلى مطعم بن عدى أدخل فى جوارك ؟ فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه فقال : تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإنى قد أجرت محمداً ، فدخل رسول الله ﷺ ، ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام . فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده مطيفون به »[2] .

وكان ﷺ حكيما يوم أن أخذ يتنقل بين منازل العرب الوافدة إلى مكة يدعوها إلى الإسلام ونصرة دين الله القويم ، تحقيقا لعالمية الدعوة وعمومية هذا الدين للناس أجمعين .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ / ٢١٢ .

وكان ﷺ حكيما يوم أن خطط للهجرة واختار الرفيق إلى المدينة المنورة .

وكان ﷺ حكيما يوم أن وضع قواعد مسجد قباء أول وصوله إلى هذه البلدة المباركة ليبرز لأمته مكانة المسجد فى حياتها ، قال تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين »[1].

وقد كان ﷺ حكيما يوم أن أقام مسجده الشريف وحمل بيديه الكريمتين مواد البناء مع أصحابه الكرام رضى الله تعالى عنهم ، فكان هذا المسجد كل شىء فى حياة المسلمين مكانا للصلاة ، ومدرسة للتعليم ، ومنطلقا للدعوة والجهاد .

وكان ﷺ حكيما يوم أن آخى بين المهاجرين والأنصار وأرسى قواعد المجتمع المسلم الفاضل ، فكانوا رضوان الله عليهم كالجسد الواحد فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم .

كان ﷺ حكيما فى كل المواقف وكل الأحداث ، وكيف لا يكون كذلك وهو رسول رب العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

وحرى بهذه الأمة ، وخاصة المشتغلين بالدعوة ، أن ينهلوا من معين الحكمة المحمدية فى دعوتهم إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم ، ينهلوا

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٨ .

من الحكمة التى وضعها الله فى شخص هذا الرسول الكريم الذى نشأ فى ذلك المجتمع الوثنى ، حيث لكل قبيلة صنمها ولكل أسرة وثنها ، بل لكل فرد منهم معبوده الذى يحمله معه أينما حل أوارتحل ، وكان طبيعيا أن يعبد الأصنام ولو لفترة طفولته أو شبابه ، لأن هذا ما عليه الآباء والأجداد والقوم ، السادة منهم والعبيد .

لكن الله سبحانه وتعالى ـ وكما سبق أن ذكرنا فى فصول سابقة ـ كان يعده لمهمة ثقيلة وفى نفس الوقت جليلة وعظيمة ، كان يعده لتلقى أعظم وأطهر رسالة .

فعصمة من عبادة الأصنام ، فلم يقترب من صنم ليقدسه ، أو يعظمه أو يعبده أبداً ، إنما نظر ببصره وبصيرته وفكر بعقله وقلبه ـ كيف رفعت السماوات ؟ وكيف قامت الجبال ، ووجد النجوم تملأ صفحة السماء ـ ترى من يمسك هذه النجوم فلا تتصادم أو تتهاوى ، ومن يقلب الليل والنهار ، وما بال هؤلاء القوم ينحتون من الأحجار تماثيل ، ثم يعبدونها ترى هل تملك لهم هذه الأصنام نفعا أوضراً ؟! .

وكم من مرة وقع من القبيلة صنمها فانكسر والتمست لها صنما غيره ، وما عرفت أن الصنم لم يمكنه دفع الأذى عن نفسه ، فكيف يدفعه عن غيره؟ حقا إنهم لقوم ضالون .

ثم استطاع بحكمته ﷺ أن يقنع الكثير من أفراد هذا المجتمع بأن المستحق للعبادة هو الله سبحانه وتعالى ، النافع الضار ، الخالق المدبر ، فارتقت تلك العقول الوضيعة إلى درجات عالية من الفهم والتصور الصحيح ، والاعتقاد السليم ، فعرفت عن طريق هذا النبى ﷺ أمر تلك الأصنام

التى كانوا عليها عاكفين ، ليس بمقدورها أن تفعل شيئا ، أى شىء ، فعادت إلى ساحة الرحمن الرحيم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وعرفت حقيقة هـــذه المعبودات المتعددة وأنها وساوس شيطان وأباطيل ليس لها حقيقة ، شاهدها عمرو بن لحى الخزاعى فى بلاد الشام وشاهد الناس عليها جاثمين ، فأراد أن يفعل مثلهم فجلبها إلى مكة ، وبمرور الأيام والليالى والدهور أصبحت لهم آلهة يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى .

إن المهمة التى اضطلع بها ﷺ فى ذلك المجتمع الغارق فى وثنيته مهمة كبيرة وشاقة ، تحتاج إلى حكمة وحسن تدبير ، تحتاج إلى رجل فيه من الصفات ما كان له ﷺ لينجح فى مهمته ويفوز فى دعوته .

وكان ذلك ، كان فى هذه المنة العظيمة التى امتن الله بها على هذه الأمة - بل على البشرية بأسرها - إنها مبعث محمد ﷺ .

إننا فى هذا المقام أمام بحر زاخر لا ينضب معينه لأنه يستمد هذه الحكمة من أحكم الحاكمين ربه ورب العالمين ، الذى رباه بعد أن اصطفاه ، وبعثه رحمة للعالمين ﷺ .

أما الموعظة فقد قال عنها صاحب اللسان : الوعظ والعظة والموعظة : النصح والتذكير بالعواقب ، قال ابن سيده : « هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب »(١) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٧ / ٤٦٦ دار صادر بيروت .

وذكر صاحب معجم الألفاظ والأعلام القرآنية بأن الموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل [١].

وقال تعالى : « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله »[٢].

لقد ذكرنا سابقا أن الموعظة هى فى الحقيقة أسلوب من أساليب الدعوة التى سلكها رسول الله ﷺ ، حيث كان لها عظيم الأثر فى نفوس أولئك المدعوين .

والنفس البشرية تواقة إلى سماع الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، والتذكير بما سوف يؤول إليه الإنسان من حال ، الموت ثم البعث ثم الحساب وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أو « ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى »[٣] .

ورسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم لا يقول إلا خيراً بعثه الله سبحانه وتعالى بالبشارة والنذارة ، قال تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً »[٤] .

ويقول تبارك وتعالى : « وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »[٥] .

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربى . القاهرة .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٥ .

(٣) سورة الليل الآية : من ١٤ - ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١١٩ .

(٥) سورة إبراهيم الآية : ٥ .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : (وذكرهم بأيام الله) قال : بنعم الله (١).

لقد ذكر قومه ﷺ ووعظهم فأحسن الموعظة امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى له ، قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٢). وقال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » (٣).

والداعية المسلم إن أراد أن ينجح فى دعوته ويحقق ما يرجوه عليه أن يقف على ما سلكه سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ فى دعوته ، فلا شك أن سلوك الداعية هذا المسلك فيه طاعة لله سبحانه وتعالى ، لأنه أمر عباده بطاعة رسول الله ﷺ ، ثم ضمانا للدعوة ، وأعنى بذلك أن تصل إلى تحقيق أهدافها بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بطريقة محببة للنفس ، بعيدة عن الغلظة والشدة والقسوة ، وذلك لأن الموعظة تداعب النفوس ، وتحرك القلوب وتؤثر على الجوارح ، لأن القول الطيب له تأثير كبير على النفس البشرية لأن وقع الكلمة الطيبة على النفس الإنسانية ينتج عنه سرعة الاستجابة .

فكان عليه الصلاة والسلام ينصح قومه عن تلك الأوثان التى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ٥٦٤ مكتبة النهضة الحديثة ط ١ ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .

(٢) سورة ق الآية : ٤٥ .

(٣) سورة الذاريات الآية : ٥٥ .

كانوا يعبدونها مبينا لهم حقارتها وضعفها وعدم قدرتها على تحقيق ما كانوا يعتقدون فيها من نفع أو ضر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لواسطة بينه وبين عباده، بل لا يقبل أن يكون بينه وبين عباده واسطة أبداً، لأنه جل وعلا كلف عباده بأن يخلصوا العبادة له وحده.

مكث عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاما فى مكة لإيضاح هذه الحقيقة، حقيقة التوحيد، الذى هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

الفصل الرابع

الاقتداء بالرسول في مواجهة الأحداث

الفصل الرابع

الاقتداء بالرسول فى مواجهة الأحداث

يقول تبارك وتعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1].

والمسلم مامور بطاعة رسول الله ﷺ بعد طاعة الرب سبحانه وتعالى ، قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »[2]. وقال تعالى فى نفس السورة : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين »[3].

وشهادة أن محمداً رسول الله معناها : « العلم اليقينى بأنه ﷺ رسول من الله كلفه إبلاغ العباد أوامره ونواهيه ، وطاعته فى كل ما أمر به ، واجتناب ما نهاهم عنه وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به ﷺ »[4].

وتحقيق هذه الشهادة لا يكون إلا باتباعه ﷺ فى جميع ما أمر به

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٢) سورة النور الآيه : ٥٦ .

(٣) سورة النور الآية : ٥٤ .

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخارى للشيخ عبد الله الغنيمان ج ١ /٣٨ مكتبة المدنى .

لأنه لا ينطق عن الهوى ﷺ. قال تعالى: « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى »[1].

والسير على نهجه وترسم طريقه والاقتداء به، طاعة لله سبحانه وتعالى وامتثالا لأمره جل وعلا.

ورسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم هو المثل الأعلى للإنسانية، وهبه الحق تبارك وتعالى وأعطاه من الكمالات فى الخلقة والخلق ما لم ينله أحد قط، فهو خيرته من خلقه سبحانه وتعالى وعظيم القدر لديه جل وعلا، وهو منة امتن الله بها عباده المؤمنين. قال تعالى: « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[2].

ويقول الحق تبارك وتعالى: « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[3].

وهو عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم »[4].

وفى رواية للإمام البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه

---

(١) سورة النجم الآية: ٣، ٤.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦٤.
(٣) سورة الجمعة الآية: ٢.
(٤) سورة الأحزاب الآية: ٦.

قال : قال ﷺ : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة واقرءوا إن شئتم : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » [١] . وقد قرن الحق تبارك وتعالى الإيمان به بالإيمان برسوله ﷺ ، لذلك لا يصح إيمان من لم يؤمن برسول الله ﷺ .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » [٢] .

وقال جل شأنه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » [٣] .

وقال سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله » [٤] .

وقد استعرضنا فى أماكن كثيرة من هذا البحث الجهد العظيم الذى بذله ﷺ فى سبيل إبلاغ رسالة ربه سبحانه وتعالى سواء ما كان فى العهد المكى أو العهد المدنى حتى آخر يوم فى حياته ﷺ وهو يجاهد فى الله سبحانه وتعالى ، ويحث على ذلك ويرغب فيه أمته ، أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [٥] .

---

(١) صحيح الإمام البخارى تفسير سورة الأحزاب جـ ٦ ص ٢٨٠ عالم الكتب .

(٢) سورة النساء الآية : ١٣٦ .

(٣) سورة الحجرات الآية : ١٥ .

(٤) سورة الصف الآية : ١٠ ، ١١ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

فالاقتداء به ﷺ واجب مؤكد على المسلمين ، وما يهمنا فى بحثنا هذا جانب الدعوة إلى هذا الدين .

حيث كان ﷺ المعلم لهذه الأمة فى مجال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا ما وقف الداعية على هذا الجانب من شخصية سيدنا رسول الله ﷺ فسوف يجد الكثير والكثير من الأساليب العظيمة والنافعة فى هذه الشخصية العظيمة ، حيث منحه الحق تبارك وتعالى قدرات خارقة فى التحمل والصبر على الأذى ، وقدرة إبراز معالم هذا الدين العظيم ، وقوة الثبات على هذه الدعوة والاستمرار بها لتصل إلى الناس جميعا ، وتعلق القلب بخالقه سبحانه وتعالى ، بطلب العون منه والاعتماد عليه والرغبة الصادقة فى إنقاذ الإنسانية من وثنيتها البغيضة والعودة بها إلى رحاب الكبير المتعال سبحانه وتعالى ، « الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى »[1] .

إنه المثل الأعلى فى الاقتداء ، إذ لا يمكن أن نجد خطوة من خطواته صلى الله عليه وسلم فى إبلاغ رسالة ربه إلا وفيها الكثير من العبر والكثير من الدروس التى لو ترسم خطاها الدعاة لكتب لهم النجاح والتوفيق فى دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى .

وصدق ربنا العلى العظيم فى قوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »[2] .

فالداعية عندما يمر به أمر أو تواجهه مصاعب ، أو تقف فى طريقه

---

(١) سورة الأعلى الآية : ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

عقبات يجب عليه بعد الاعتصام بالله سبحانه وتعالى والتوكل عليه وطلب العون منه ، أن يبحث فى سيرة سيد المرسلين ﷺ ليجد الجواب الشافى ، والحل المناسب لذلك ، لأن سيدنا رسول الله ﷺ تعرض فى دعوته لألوان من المصاعب وأشكال جمة من العقبات ، لكنه ﷺ ، استطاع بعون من الله أن يتغلب عليها .

وأيم الله إنها أسوة حسنة حقا ، وأنها منحة من الحق تبارك وتعالى ورحمة منه جل وعلا لعباده جميعا ، إذ بعث إلى هذه الأمة خير خلقه سبحانه وتعالى ، وأنزل عليه أشرف كتبه ، كلام رب العالمين ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

حقا إنه قدوتنا فى خلقه ﷺ ، الذى وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه خلق عظيم فى قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم »[1] .

وقد رأينا ذلك فى استعراضنا لإعداده الربانى ﷺ ، حيث أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وحيث سئلت أم المؤمنين عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن[2] . فكان ﷺ يعامل الناس برحابة صدر ، وبشاشة وجه ، وإشراقة محيا ، وطيب نفس ، وحسن منطق ، وعطف وحنان لا يمكن أن يجدهما الإنسان عند غيره ﷺ .

وسوف نورد بعض الأحاديث التى ذكرها الإمام الترمذى فى الشمائل

---

(١) سورة القلم الآية : ٤ .

(٢) سبق تخريج الحديث .

المحمدية ، وقام بتحقيقها الشيخ محمد ناصر الألبانى فى باب ما جاء فى خلق رسول الله ﷺ .

(ا) عن عمرو بن العاص قال : « كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم ، يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على ، حتى ظننت أنى خير القوم »[1] : حديث حسن .

(ب) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال :

« خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لى : أف قط ، وما قال لى لشىء صنعته : لم صنعته ، ولا لشىء تركته : لم تركته ، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ، ولا مسست خزا ولا حريراً ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكا قط ولا عطراً كان أطيب من عرق النبى ﷺ » حديث صحيح[2] .

(ح) عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت :

« لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا[3] ولا متفحشا ولا صخابا[4] فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح » حديث صحيح[5] .

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية للإمام الترمذى ، تحقيق محمد ناصر الألبانى ص ١٨١ المكتبة الإسلامية .

(٢) مختصر الشمائل (المصدر السابق) .

(٣) فاحشا : ذو الفحش فى طبعه فى أقواله وأفعاله وصفاته .

(٤) الصخاب : شديد الصوت .

(٥) المرجع السابق ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

والمجال رحب فى هذا الجانب لكن خشية الإطالة دعتنا أن نكتفى بهذه الأمثلة القليلة سائلين المولى القدير أن يخلقنا بأخلاق عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ .

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

ولو حفظوا سبيلك كان نورا ... وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركنا ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا (١)

ويقول رحمه الله :

لقبتموه أمين القوم فى صغر ... وما الأمين على قول بمتهم
فاق البدور وفاق الأنبياء فكم
بالخلق والخلق من حسن ومن عظم (٢)

إنك حقا قدوتنا يا سيدى يا رسول الله يوم صبرت على حمق القوم وسفاهتهم وقولهم : شاعر ومجنون حيث قال من يعلم السر وأخفى لك مهونا ومصبرا : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » (٣) . فكنت سيد الصابرين وإمامهم .

إنه ﷺ قدوتنا وأنعم بها من قدوة ، إنه قدوتنا فى الثبات ، نعم الثبات على المبدأ والتمسك به، فيوم أن اجتمعت طواغيت الكفر عندعمه أبى طالب ، طالبين منه أن يترك هذا الأمر أعلنها صريحة ﷺ ومقنعة أمام عمه ردا

---

(١) الشوقيات لأحمد شوقى جـ ١ / ٧٢ دار الكتاب العربى بيروت .
(٢) الشوقيات جـ ١ / ١٩٧ .
(٣) سورة المزمل الآية : ١٠

على طلب القوم من عمه أن يكف عن الدعوة : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته »[1].

لم يخيفه تجمع القوم وتألبهم عليه ، لأنه واثق مما يدعو إليه ومؤمن برسالته الخالدة ـ أى ملك هذا الذى تعرضه عليه قريش ، وأى زعامة تلك التى تريد قريش أن تضع تاجها على رأسه الشريف ﷺ ، وقد أكرمه ربه واجتباه وهداه واصطفاه .

إنه ﷺ قدوتنا يوم انصرف إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، بالرغم من شدتهم معه وقسوتهم عليه ، بالرغم من ذلك كله كان شغوفا بهم ، يأمل أن يسمعوا له وينصتوا لما نزل عليه ويؤمنوا بما جاءه من رب العالمين .

قال ابن هشام : فقال له عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ـ وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ـ يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ـ أو كما قال له : فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله ، لو فعلت

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ / ص ٢٨٠ محمد بن هشام .

ذلك ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ (١).

إنك ياسيدى يا رسول الله قدوتنا فى قدرة التحمل ، تحمل ما لم يتوقع حدوثه أحد ، إنه رحم الشاة ، كمية كبيرة من القاذورات ترمى عليه وهو يصلى ، ترمى عليه وهو فى بيته ، لاشىء إلا لأنه قال لهم : قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله . تسلموا .

ذكر الطبرى فى تاريخه هذه القصة فقال : « لم يزل رسول الله ﷺ مقيما مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله سرا وجهراً ، صابراً على أذاهم وتكذيبهم إياه واستهزائهم به حتى أن كان بعضهم فيما ذكر ـ يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى حتى قال : كان رسول الله ﷺ يخرج بذلك إذا رمى به فى داره على العود فيقف على بابه ، ثم يقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ، ثم يلقيه فى الطريق » (٢).

إنه قدوتنا فى كفاحه غير المحدد وبحثه الدؤوب عن مؤيد للدعوة ومناصر لها حتى تصل إلى الناس جميعا فكان أن وفق فى الحصول على ذلك من أولئك النفر الذين قدموا من يثرب فى بيعة العقبة ، فجن جنون قريش واجتمعت فى دار الندوة لحسم الموقف واتخاذ ما يلزم حيالك يا سيدى يا سول الله ، لكن الله معك ولم يسلمك لهم أبداً .

قال ابن هشام : فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢/ ٣٤٣ دار سويدان بيروت .

فأجمعوا فيه رأيا ، قال : فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم »(١) .

وقصة هذا الاجتماع مشهورة فى ذلك اليوم الذى سموه يوم الزحمة ، فكان الصادق الأمين ثابت الخطى ، معتمداً على ربه وبفكره الثاقب ، أوصى ابن عمه على رضى الله عنه أن ينام فى فراشه تلك الليلة الفاصلة بزعمهم ، فنجاه الله من مكرهم وكيدهم .

يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »(٢).

إن لنا فيه أسوة حسنة ، فيما لاقاه من مصائب ومشاق فى هجرته المباركة ، وما تعرض له من وعثاء السفر ، ليكون درسا لأمته فى الصبر والتحمل من أجل هذه الدعوة .

فقد خرج تاركا الأهل والأوطان بعدما حاربوه جميعا بكل ما لديهم من إمكانات ، بالإشاعة ، والمقاطعة والمفتريات ، والفتن ، والعروض السخية ، ثم بالمؤامرات الدنيئة ، والدسائس المخزية ، لكنه ﷺ كان صاحب رسالة ، وأنى لهم أن يبلغوا ما أرادوا وهو القوى الأمين ، القوى فى إيمانه ودعوته

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ / ١٢٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٠ .

الناس إلى ذلك الإيمان ، والأمين على رسالة ربه حتى يبلغها لعباده سبحانه وتعالى .

لنا فيك أسوة حسنة يا سيدى يارسول الله فى جمعك شمل المسلمين ومؤاخاتك بين من هاجر ومن نصر .

ولنا فيك أسوة حسنة يا سيدى يا رسول الله فى موقفك الشجاع من قتلة الأنبياء وناقضى العهود والمواثيق من بنى قريظة والنضير وقينقاع ، يوم نقضوا العهد وقطعوا المواثيق ، وتآمروا على المسلمين ، بعد أن كذبوا وأنكروا ما جاءك من الحق ، فكان فيما فعلته معهم دروس وعبر لمن أراد أن يعتبر ، ولمن أراد أن يعرف حقيقة هذه الفئة الضالة المكذبة المتآمرة ، الحاقدة على الإسلام والمسلمين ، ولمن أراد أن يعرف حقيقة هذا الدين العظيم الذى لا يقر المهادنة والموادعة مع من ظهرت عداوته واتضحت نواياه ، وأعان الحرب على الإسلام والمسلمين .

إنه دين الله القوى المتين الذى لا يقبل إلا الحياة الكريمة والحياة العزيزة للمسلمين ، ولن تكون هناك عزة أو كرامة والعدو ينفذ مؤامراته الواحدة تلو الأخرى على المسلمين .

إن التسامح الذى ينادى به هذا الدين محدود بحدود معينة وواضحة إذا حاول العدو انتهاكها فليس له إلا القتال ، القتال فى سبيل العقيدة والكرامة.

لنا فيك أسوة حسنة يا من بعثك الله رحمة للعالمين ، يوم أحكمت الحصار على الشرذمة الفاسدة من بنى قينقاع .

قال ابن هشام : كانت محاصرتهم خمس عشرة ليلة ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وقام دونهم .

قال : ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بنى عوف لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى ، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله عز وجل ، وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، قال : ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت هذه القصة من المائدة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »[1].

قال ابن هشام : ولذلك لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم »[2].

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٥١ إلى الآية ٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣/٥٢ ، ٥٣ .

لنا فيك أسوة حسنة يا خاتم النبيين فى كل مراحل جهادك فى بدر وأحد والخندق وخيبر وتبوك وحنين، حيث كان الهدف إبلاغ رسالة ربك ومجاهدة المعاندين الذين صدوا عن سبيل الله ، وأفضحوا عن نواياهم الخبيثة للمسلمين فتحملت فى سبيل ذلك الكثير من المعاناة والكثير من التضحيات ، حيث نال الشهادة بعض صحبك الكرام الذين أحبوك ملء قلوبهم ، كمصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن سلمة ، وعبد الله ابن رواحة وغيرهم وغيرهم من الشهداء الأبرار رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم .

لنا فيك أسوة حسنة يا سيدى يا رسول الله يوم أرسيت قواعد هذه الدولة الإسلامية المجيدة على المحبة والإخاء والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس .

ولنا فيك قدوة حسنة يوم قلت لنا مبلغا عن ربك :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم »(١).

لنا فيك أسوة حسنة يا قائد الغر المحجلين يوم أرسلت كتبك إلى الزعماء

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٣ إلى الآية ١٠٥ .

والملوك والقواد تدعوهم إلى الإسلام فأجدت فيها وأحسنت اختيار حامليها .

لنا فيك يا سيدى يا رسول الله قدوة حسنة يوم وقفت فى حجة الوداع تذكر هذه الأمة بالحفاظ على هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم وهذه المنحة العالية التى منحهم إياها ربهم تبارك وتعالى .

قال ابن هشام : وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وأن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وأن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان [1] لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بينا ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

فذكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد [2] .

---

(١) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤/٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

لنا فيك قدوة حسنة فى حمل هذه الأمانة التى ائتمنك الله عليها ، وأديتها خير أداء ، وبلغتها على أكمل وجه وأحسنه بحبك الكبير للبشرية جمعاء ، وحرصك العظيم على أن يعرفوا حقيقة وجودهم فى هذه الحياة ، وتحملك الكثير من الإيذاء والاعتداء فى سبيل ذلك حتى توفاك الله ، وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق الجهاد فصلاة الله وسلامه عليك يا حبيب الله .

الفصل الخامس

الاعتزاز بالعقيدة قبل النسب

الفصل الخامس

الاعتزاز بالعقيدة قبل النسب

إن الدين الإسلامى العظيم كان خاتمة الأديان السماوية ، وأمة الإسلام خير الأمم ، قال تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس» الآية[1] .

ومحمد ﷺ خاتم الرسل وإمامهم ، تفضل الحق تبارك وتعالى وأنعم على عباده بهذا الدين القويم الذى خصه الله تبارك وتعالى بخير كتبه القرآن العظيم كلام رب العالمين .

وقد كانت العرب فى الجاهلية على ما كانت عليه من الوثنية والتخلف ، والتمزق والاختلاف ، والبعد عن خالقها سبحانه وتعالى ، الذى أورثها الذل والصغار ، حيث ارتبطت حياتهم بالأصنام ، وانحجبت أبصارهم عن النور والهدى تحكمهم شريعة الغاب ، إذ لا مكان للضعيف بينهم سادتهم عادات سيئة ، وتحكمت فى رقابهم خصال ذميمة ، فكانوا مختلفين متفرقين ، لا تجمعهم وحدة ، ولا تقوم بينهم رابطة إلا رابطة الحمية الجاهلية التى ترتكز على مبدأ الأخذ بالثأر ، والغارات على بعضهم البعض وسفك الدماء .

ظلوا على هذه الحال الكئيبة ردحاً من الزمن ، حتى بعث فيهم الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام ، من أشرفهم نسباً ، وأرفعهم عماداً ، مثلهم فى

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

الخصال الحميدة والصفات العالية الرشيدة ، الصادق والأمين ، محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فأزال تلك الغشاوة ، وبدد تلك العماية ، حطم الأصنام ، وأقام الوئام ، وزرع المحبة والصفاء ، فكانوا بحق شرفاء أوفياء ، جمع شملهم ووحد صفوفهم ، وقضى على الأحقاد التى كانت بينهم ، فتألفت بذلك القلوب ، وتجمعت الصفوف حول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأيقنوا أنهم كانوا فى ضلال وأن ما جاء به سيد الأنام هو الحق وهو النور وهو الهدى ، فتوحدت راياتهم واجتمعت صفوفهم ، فأصبحوا أمة واحدة ، أمة الإسلام ، معتصمين بالله سبحانه وتعالى معتمدين عليه معتزين بهذا الدين العظيم الذى أكرمهم به رب العزة والجلال ، وأنقذهم من عبادة الأوثان ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١) .

اختصهم الله سبحانه وتعالى بأعظم دين وأشرف رسول وأعز كتاب .

من أجل هذا كله كانوا شديدى الاعتزاز بهذا الدين عظيمى الفخر به ، لأن الإسلام يربى فى النفس الإنسانية العزة والكرامة ، لأنه دين العزة والكرامة ، عزة النفس وكرامة البشرية ، كرامة هذا الإنسان الذى استخلفه الحق تبارك وتعالى فى الأرض . قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى

---

(١) سورة آل عمران الآية : من ١٠١ — ١٠٣ .

جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »[1] .

لذا نجد أن العقيدة السمحة رفعت بلال بن رباح الحبشى الذى كان فى نظر الفكر الجاهلى مجرد عبد يباع ويشترى ، رفعته إلى تلك المكانة العالية ، مؤذن رسول الله ﷺ وأحد كبار الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ، وخفضت الحسيب النسيب أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، عم رسول الله ﷺ ؛ لأن بلال بن رباح اعتز بهذه العقيدة فأعزه الله ، وأبو لهب حارب هذه العقيدة فأذله الله سبحانه وتعالى . لقد كتب الحق تبارك وتعالى العزة لنفسه جل شأنه ولرسوله والمؤمنين . قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[2] .

اذا فإن من مبادىء الإسلام الاعتزاز بهذا الدين وحماية العقيدة السمحة والدفاع عنها ، وتبليغها للناس جميعاً كما أمر ربنا جل وعلا ، قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »[3] .

إن الاعتزاز بالعقيدة من أروز الدروس المستفادة من هذه الدعوة المباركة ،

---

(١) سورة البقرة الآية : من ٣٠ — ٣٢ .
(٢) سورة المنافقون الآية : ٨ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

فرسول الهدى ﷺ غرس فى نفوس أصحابه الذين رباهم عليه الصلاة والسلام الاعتزاز بالعقيدة وبذل كل ما يمكن بذله من أجلها وفى سبيل رفع رايتها .

يقول سيد قطب فى ظلال القرآن : (جعل الله العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى ، العزة التى لا تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة »[1] .

قلنا : إن هذا الدين يورث أتباعه العزة ، ويغرسها فى نفوسهم وسبب ذلك أنهم يدعون الناس إلى العزيز سبحانه وتعالى الذى يستمد منه العبد كل قدراته وإمكاناته ، لأنه هو الذى أوجده من العدم ورباه بالنعم .

الإسلام أتى بالعزة للمجتمع الإنسانى ، وحق المسلمين وللدعاة منهم بأن يعتزوا بذلك أعظم اعتزاز ، ويفخروا بهذه المنة الربانية العظيمة ، التى كانت السبب فى أن كانت هذه الأمة أمة الشهادة ، الشهادة على جميع الأمم السابقة .

قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »[2] .

إن هذا الدين فى دعوته إنما يدعو إلى الخالق تبارك وتعالى لم يدع إلى قومية أو عصبية أو أحلاف ومعسكرات ، وتجمعات مشبوهة أو خلق

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٦/ ٣٥٨٠ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣ .

مرذول ، أو سلوك معوج ، إنه يدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، أى إفراده بالعبادة لأنه هو المستحق لها وحده جل شأنه ، من هنا كان مصدر الاعتزاز والفخار به لدى المسلمين .

لذلك نجد أن جميع الدعوات السابقة واللاحقة كتب لها الفناء ، ودعوة سيد المرسلين رسول رب العالمين ﷺ كتب الله لها الخلود والبقاء ، حيث دستورها القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذا القرآن الذى أنزله الحق تبارك وتعالى رحمة للعالمين فيه عزهم وسؤددهم وفخارهم وفلاحهم ، ينظم لهم حياتهم الاجتماعية ، وعلاقاتهم الشخصية ، ومعاملاتهم الاقتصادية والتجارية ، وجميع شئونهم الحياتية كما يكفل لهم العيش الرغيد والحياة الطيبة الكريمة الهانئة .

إن الاعتزاز بالعقيدة أذاب الفوارق وقضى على الطبقات ، الكل فى نظر الإسلام سواء ، والمفاضلة بينهم بالتقوى فقط ، لا بالحسب ولا بالنسب.

هاهو الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام يعلنها بأعلى صوته : « يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا »[1] .

فاطمة الذى قال عنها فيما رواه الإمام البخارى فى صحيحه : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[2] .

وما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى

---

(١) سنن النسائى جـ ٦ / ٢٥٠ بشرح السيوطى دار الكتب العلمية بيروت . أخرجه البخارى فى تفسير سورة الشعراء جـ ٦ ص ٢٠١ عالم الكتب .

(٢) فتح البارى بشرح البخارى جـ ٨ / ١٠٦ .

عنها قالت : اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال : مرحبا بابنتي فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم إنه أسر إليها حديثا فبكت فاطمة ثم إنه سارها فضحكت أيضا ، فقلت لها : مايبكيك ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن ، فقلت لها حين بكت : أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين ؟ وسألتها عما قال فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى إذا قبض سألتها ، فقالت : إنه كان حدثني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة وأنه عارضه به في العام مرتين ولا أراني إلا قد حضر أجلي وأنك أول أهلي لحوقا بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك، ثم إنه سارني فقال : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ فضحكت لذلك[1] .

فاطمة ابنته لا يغني عنها من الله شيئاً .

لقد علمنا ﷺ كيف يكون الاعتزاز بالعقيدة قبل النسب ، لأن المسلم يحاسب على ماقدم وأخر قال تعالى :

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »[2].

فالمفاضلة في الإسلام إنما تكون بالعمل ، ومدى تمسك المسلم بدينه وتعاليم كتاب ربه سبحانه وتعالى ، وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) النووي على صحيح مسلم جـ ١٦/ ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٣ ، ١٤ .

ورب العزة والجلال يقول : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »[1] .

والله تبارك وتعالى لا ينظر إلى الصور والأجسام ، إنما ينظر إلى الأعمال ، وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[2] .

بهذه الإشارات والتوجيهات المحمدية السديدة تلقنت الأمة هذا المبدأ العظيم ، الذى جمع الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والحر والعبد ، والفقير والغنى ، والقوى والضعيف ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ومقدار التمسك بهذا الدين وتطبيقه فى حياته قولا وعملا وتبليغا ودفاعا ، لتتجسد العزة الحقيقية بهذا الدين العظيم .

يقول الدكتور محمد أمين المصرى رحمه الله : « إن الشرط الذى يجعل الأمة فى الذروة من قوتها ، أن يجتمع أفرادها على قلب رجل واحد وأن يباعدوا بينهم وبين أسباب الفرقة جميعها ، وأن يكون اجتماعهم على حق لا على باطل ، فإن الباطل لا يابث أن يتفوق أصحابه .

وأن يشعر الأفراد بمكانة العقيدة — التى اجتمعوا عليها — وسموها وقوتها ، وضعف العقائد الأخرى التى تعاديها ، وأن يشعر الأفراد أن لهم رسالة يجب أن يؤدوها إلى المجتمعات التى تحيط بهم والعالم كله »[3] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٠١ — ١٠٣ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذرى ص ٤٧٣ .

(٣) سبيل الدعوة الإسلامية لأمين المصرى ، دار الأرقم الكويت ط الأولى ١٤٠٠ هـ .

لقد علمنا الصادق الأمين ﷺ أن الاعتزاز المقترن بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله ، هو الاعتزاز الحقيق الذى لا تشوبه شائبة ولا يدخل إليه عجب أو كبر ، أو أى معنى من معانى الجاهلية .

هذا هو الاعتزاز الصحيح السليم القائم على أسس متينة سليمة قوية ، يدفع الأمة إلى ريادة وقيادة الأمم لأنها تحمل هذه الرسالة العظيمة إلى جميع الأمم ، ومصدر عزها وفخارها هذه الرسالة الخالدة ، متحصنة بها من الأمراض الاجتماعية التى أصابت الأمم السابقة بتعاليم دينهـــا التى تكفل لها التضامن والخضوع للواحد الأحد الفرد الصمد ، والرحمة والشفقة على عباده .

ولن نذهب بعيداً فى بيان أهمية الاعتزاز بالعقيدة ، لأن الشواهد كثيرة من حاضرنا الذى نعيشه ، وذلك عندما قامت دعوات الاعتزاز بالقومية والأمة ونشأة هذه الأمة وأصلها ، حل بنا .

يا الله أعلم به من الصغار والذلة والانقياد إلى هذا المعسكر أو ذاك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »[1] .

صدقت يا سيدى يا رسول الله عندما أنرت الطريق وأوضحت لأمتك هذه الحقيقة ، التى كشفت عن العزة الخالدة ، ونبهت الغافلين ، لكنهم تنكبوا الطريق فأصبحوا ألعوبة لأعداء الله والإسلام عندما اعتزوا بقوميتهم

---

(١) سورة النحل الآية : ١١٢ .

وجنسهم وتركوا العزة الحقيقية التى أوضحتها لهم ، صلوات الله وسلامه عليك بجلاء .

لقد فتحت تلك الأقطار على أيدى أولئك القلة فى العدة والعدد ، وحرروا تلك الأمم من أنواع كثيرة وأشكال عديدة من الاسترقاق والاستعباد ، لأنهم اعتزوا بالعزيز القوى المتين ، فكان معهم فى كل خطوة يخطونها وفى كل معركة يخوضونها ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته[1] بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها[2] . وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته »[3] .

ما أكرمك يارب العالمين ، وما أرأفك بعبادك ، لقد كتبت على نفسك الرحمة تفضلا منك وكرما فأنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ولا رب سواك .

---

(١) آذنته : أى أعلمته

(٢) وعن كيف يكون البارى جل وعلا سمع العبد وبصره . . إلخ . قال ابن حجر : الجواب من أوجه :

١ — أنه ورد على سبيل التمثيل .

٢ — أن كليته مشغولة بى فلا يصغى بسمعه إلا إلى ما يرضينى ... إلخ .

فتح البارى جـ ١٤/١٢٨ ، ١٢٩ مكتبة البابى الحلبى ، القاهرة .

(٣) صحيح البخارى جـ ٨/ ١٨٩ باب التقرب إلى الله بالنوافل ، عالم الكتب .

أبعد هذا الكرم كرم ، أبعد هذا العطف عطف ، أبعد هذه العزة عز ؟ كلا والله .

ولا غرو إذا اعتز المسلم بعقيدته الإسلامية لأن هذه العقيدة وشرائعها أتت بما لم تأت به الشرائع السابقة من أحكام تشمل كل متطلبات الحياة الكريمة من عزة وكرامة دعت إلى الجوانب الحياتية التالية :

أولا : التفكير فى الكون وأسراره :

قال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »[1] .

وقال تبارك وتعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات

---

(١) سورة الجاثية من الآية : ٣ إلى ٦ .

من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[1] .

وقال تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »[2] .

وقال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »[3] .

وغير هذه الآيات البينات كثير وفيما ذكر الكفاية إن شاء الله .

ثانيا : وفى النظم الاجتماعية دعا هذا الدين العظيم إلى المساواة بين الناس — كما ذكرنا سابقا — وحفظ لكل فرد نصيبه من الحرية والحياة الكريمة ، مع مراعاة حرمة الآخرين وما لهم من حقوق وهاهو يرافق الإنسان فى جميع أدوار حياته مع أسرته وجيرانه وأقاربه ، وقبل ذلك كله صلته بربه سبحانه وتعالى ، وكيف تتم هذه الصلة عن طريق العبادات المشروعة ، وحثه على العمل للآخرة ، مع عدم ترك نصيبه من الدنيا ، كما قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين »[4] .

كما أنه يرسم للإنسان الحياة الزوجية الكريمة ابتداء من بداية المشوار الزوجى والعقد والصداق ، موضحا للزوجين مالهما وماعليهما وكيف تكون العشرة بالمعروف ؟

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٥ إلى ٩٩ .
(٢) سورة الغاشية الآية : من ١٧ — ٢٠ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٩٠ .
(٤) سورة القصص الآية : ٧٧ .

ويحوط الأسرة بما يحفظ عليها كرامتهـــا ، فيضع نظام الحجاب والاستئذان ، ويمنع الاختلاط ، ليظل رباط الزوجية وثيقاً متماسكا قوياً ، سليما من المنغصات ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »[1] .

كما أنه أوضح طريق الفراق بين الزوجين حينما لا وفاق ولا انسجام بينهما ، قال تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، فإن طلقها فلا تحل له

---

(١) سورة النور من الآية : ٢٧ إلى الآية : ٣١ .

من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون »[1].

كما يبين حقوق كل واحد منهما فى مال الآخر كنفقة الزوجة ومسكنها أو ميراث أحدهما من الآخر، قال تعالى : « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً »[2].

ثم يقول سبحانه وتعـــالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً »[3] .

وفى حالة الوفاة يقول تعالى : « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين »[4].

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) سورة الطلاق الآية : ١ .
(٣) سورة الطلاق الآية : ٦ ، ٧ .
(٤) سورة النساء الآية : ١٢ .

كما أن هذا الدين قد نظم العلاقة بين الآباء والأبناء .

قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً »(١) .

كما بين للمسلمين طريق التعامل السليم مع الآخرين موضحاً وسائل الكسب المشروع وطريق الحصول عليه بعيداً عن الربا والاحتيال والتطفيف فى الميزان وأكل أموال الناس ظلماً موجهاً إلى طرق المعاملات السليمة فى البيع والشراء والأخذ والعطاء .

ثالثاً : ثم إنه لا يغفل ذلك بل يتعهده بالحراسة فيقيم سلطان القضاء لفصل الخصومات وفض المنازعات ، معتمداً على الشهادات والإقرارات ، ليسود العدل والإنصاف فلا تسلط ولا ظلم ولا اعتداء ولا طغيان ، فالكل أمام القضاء الإسلامى سواء .

رابعاً : تعليمهم كيف يحسن الجار إلى جاره ويعطف القريب على قريبه وعلى اليتامى والمساكين بشكل عام .

قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب »(٢) .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٦ .

خامساً : بينت علاقة الناس مع بعضهم متعاونين متحابين متآزرين كى تتوحد كلمتهم ولا تتفرق ، فلا تضعف شوكتهم ولا يستهين بهم عدوهم ويذهب سلطانهم .

قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »[1].

كما نظمت علاقة المسلمين بغيرهم من غير المسلمين مع الاستعداد بإعداد العدة لهم لصد شرهم ومحاربة من يحاول منهم العدوان . واحترام العهود والمواثيق .

سادساً : بينت الشريعة السمحاء طرق محاربة ومكافحة الجريمة والإفساد فى الأرض وزعزعة أمن المجتمع . قال تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »[2].

وقال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم »[3].

وقال سبحانه وتعالى : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٠٣ .
(٢) سورة المائدة الآية : ٣٣ .
(٣) سورة المائدة الآية : ٣٨ .

عذابهما طائفة من المؤمنين »[١].

وقال تعالى : « والذين يرمون المحصنـــات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون »[٢].

سابعاً : فتحت أبواب التوبة أمام المذنبين وأعطتهم الفرصة للعودة إلى جادة الصواب ، أفراداً أسوياء ، قال تعالى : « قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم »[٣].

وقال تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما »[٤].

هذه هى العقيدة الإسلامية وتشريعاتها الواضحة الجلية التى رسمت المنهج الواضح لكل نواحى الحياة الفردية والاجتماعية ، فلم تدع فى المرء عوجا إلا قومته ، ولا فى نظام الجماعة ثغرة إلا أحكمتها . فحق للمسلمين أن يعتزوا ويفاخروا بهذه العقيدة الإسلامية التى حفظت للإنسانية إنسانيتها وللفرد والجماعة كرامتهم فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النور الآية : ٢ .
(٢) سورة النور الآية : ٤ .
(٣) سورة الزمر الآية : ٥٣ .
(٤) سورة الفرقان الآية : ٦٨ — ٧٠ .

الخاتمة

خاتمة

الحمد لله على نعمة الإسلام ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة إمام الدعاة سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

فقد آن للقلم أن يقف عاجزاً عن المضى فى استقصاء مزايا أسلوبه ﷺ فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

ذلك الأسلوب الحكيم الذى حقق للدعوة الإسلامية نجاحا منقطع النظير ، فى ثلاثة وعشرين عاما استطاع ﷺ أن يحقق مالم تستطع أى دعوة سماوية تحقيقه ، بله دعوات الأرض التى لا تملك لها رصيداً من عون الله وتأييده .

لقد أحدثت دعوته عليه الصلاة والسلام أكبر انقلاب عالمى فى تاريخ البشرية ، وأنشأت للبشرية تصوراً جديداً من الوجود والحياة ، وجاءت بمفاهيم فريدة عن الأنظمة التشريعية والقيم والأخلاق .

فكان من ثمار هذه الدعوة العظيمة الحكيمة ذلك الرعيل الكريم من الصحابة الكرام الذين حملوا لواء الدعوة من بعده ﷺ ، حتى وصلت كلمة لا إله إلا الله أقاصى الدنيا .

وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أنه ﷺ كان الداعية المثالى والمربى الأول ، والمثل الأعلى للدعاة إلى الله ، قولا وعملا ، منهجا وسلوكا ، ويدل ذلك أيضا على تفرد ما يدعو إليه ، وتفوقه وكماله ، كيف لا ،

وهى دعوة مهمتها رد الناس إلى الفطرة السليمة وتخليصها مما علق بها من أدران الجاهلية وخرافاتها .

فما هى الأسس التى أقام النبى ﷺ قواعد دعوته عليها ؟ لقد بين القرآن الكريم لنا هذه الأسس التى رست عليها مبادىء الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى فى ذلك الخطاب الإلهى لرسوله الكريم ﷺ ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »[1] .

فحدد بذلك معالم المنهج الذى يسير عليه النبى الكريم ﷺ فى دعوته ، ويترسم هداه كل داعية إلى الله سبحانه من بعده .

لقد طلب منه ﷺ أن يدعو (إلى سبيل ربه) ، لا إلى غرض دنيوى ولا إلى مصلحة شخصية ، وإنما هى دعوة خالصة لله سبحانه وتعالى ، طريقها واحد لا فرقة فيه ولا ضياع ، وصراطها قويم لا ترى فيه عوجا ولا أمتا .

ثم إنها دعوة (بالحكمة) ليس فيها تكليف بما لا يطاق ، ولا تجاهل لأحوال المخاطبين وظروفهم ، بل فيها المراعاة لاستعداد المخاطبين ، وإمكاناتهم وميولهم وطبائعهم ، بالترغيب تارة ، وبالترهيب تارة .

وإذا كان الأمر من قبيل العادات السيئة التى ينبغى مجانبتها ولكن النفوس أسيرة لها ، فعندها يجىء التدرج فى تشريع المنع والتحريم .

---

(١) سورة النحل الآية : ٨٧ .

والقيد الثالث لهذه الدعوة أنها (بالموعظة الحسنة) لا بالزجر والتقريع في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية ، بل بالرفق واللين والهوادة واليسر ، والتلويح ببشاعة الذنب مع السكوت عن شخص مرتكبه ، وحرى بهذا الأسلوب أن يهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير مما يأتي به الزجر والشدة والتوبيخ .

وأخيراً أن يجادل الداعية خصومه (بالتي هي أحسن) لكي يطمئن الناس إلى الداعي ، ويشعروا أنه ليس من هدفه الغلبة في الجدل ولا التفوق في المناقشة ، وإنما هو الإقناع والوصول إلى الحق والصواب .

هذا هو طريق الدعوة إلى الله في عهدها المكي ، دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة الخصوم بالتي هي أحسن .

لكن خصوم الدعوة في مكة قلبوا ظهر المجن للدعوة ولصاحبها ولكل سابق إلى الإسلام وعادوهم أشد العداء وأنزلوا فيهم أقسى أنواع البلاء .

وبقيت الحال على ما هي عليه ثلاثة عشر عاما ، وضحت فيها معالم الرسالة وكملت أصولها وبان للعيان جوهرها ، وبلغت مداها من غير قصر ولا إكراه ، بل لقد كان الإكراه واقعاً على المؤمنين لفتنتهم عن دينهم ولكنهم لم يفتنوا ، بل صبروا وصابروا .

لقد ربى رسول الله ﷺ في هذه المرحلة أصحابه على (الصبر والمسالمة) فلم يرد عدوانا ، ولم يحطم صنما ، ولم يشن حربا ، ومع ذلك فقد أحرز أكبر نصر عرفته الدنيا ، وذلك حين استطاع أن يحول الدعوة من الركود إلى الحركة ، ومن الفكرة إلى الإيمان ، ومن المبادىء والأخلاق إلى رجال

تتبنى تلك المبادىء وتبرز بأعمالها أحسن وأصدق صورة لمكارم الأخلاق .

ولئن كان العهد المكى عهد تربية وإعداد ، فالعهد المدنى عهد مجتمع له نظمه الجديدة وتشريعاته العظيمة ، فمن نظمه ، ذلك الإخاء الإسلامى الذى قام بين المهاجرين والأنصار ، وهو أعجب نظام اجتماعى عرفته البشرية .

ومن تشريعاته ما أذن به الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين من قتال المعتدين ومحاربة المعاندين الظالمين ، فكان فى ذلك تأمين لحرية الدعوة ودفع للعدوان ومنع للفتنة فى الدين .

ولم يكن تشريع الجهاد قاعدة من قواعد نشر الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة المحمدية ، وإنما كان علاجا لمرض فجور الكفر وعتو العناد عند المشركين .

واستمرت فترة العهد المدنى عشر سنين خاض فيها رسول الله ﷺ أشهر غزوات الإسلام ، وقاد أصحابه من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، والتفوا حول نبيهم ومعلمهم وإمامهم وقائدهم ﷺ يفدونه بأرواحهم ويؤثرونه على أنفسهم .

وكان ﷺ يفيض عليهم من بره ورحمته وحبه وعطفه ورأفته . حتى إذا استوى أمر الدعوة إلى الله وصلب عودها وكثر نصيرها ، شاء الله سبحانه أن يختار نبيه ﷺ إلى جواره ويلحقه بالرفيق الأعلى .

أما الدعوة إلى الإسلام فباقية ، والأمانة مستمرة ، وتعاليم هذا الدين العظيم خالدة . . . ولابد أن يضطلع المؤمنون بعد نبيهم ﷺ بحمل الأمانة وتبليغ الرسالة ، ولابد أن يخلفهم فى حملها وشرف الدعوة إليها جيل من

المؤمنين بعد جيل والله يريد من المؤمنين أن لا يربطوا العمل لدعوته بأحد سواه سبحانه وتعالى بحيث تحيا بحياته وتذهب بوفاته ، حتى ولو كان رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين »(١) .

أما الدعوة الإسلامية فالاستمرارية إحدى مزاياها ، لأنها موصولة بالله سبحانه وتعالى الذى لا يموت ، ومنه سبحانه تستمد خلودها وبقاءها وهذه حقيقة لا شك فيها ولا ريب .

وإذا كانت الدعوة إلى بقاء والدعاة إلى فناء ، فهذا يعنى أنه لابد للدعوة الخالدة من دعاة متعاقبين ، يخلف بعضهم بعضا ، ويسلم السابق منهم الراية إلى اللاحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولهذا لم تكن الدعوة إلى الله أمراً اختياريا ، يأخذ به من شاء ويدعه من أراد ، بل هى واجب كفائى أكيد ، تخاطب به الأمة بمجموعها فإذا قام به بعضها فذاك وإن لم يقم به أحد منها أثموا جميعا ، وعرضوا أنفسهم لعقوبة الله سبحانه وتعالى . . . ألا وإن العالم يعيش أبشع صور الجاهلية وأشقاها .

ولو أجلنا الطرف فى دنيا الناس اليوم لرأينا هولا فظيعا ومنكراً فاشيا .

فى ميدان التعامل تجد الغش والخديعة والكذب والمكر والنفاق وسوء

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

الأخلاق ، وفى باب الاجتماع خمر وفجور وترويج للرذيلة بكل وسيلة ممكنة .

ولهذا صار واجب الدعوة إلى الله آكد ، والحاجة إليه أشد ، لأنه لا منقذ للبشرية من تيهها وضياعها إلا الإسلام ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

إن الدعوة إلى الله فى عصرنا الحاضر فى أمس الحاجة إلى الأسلوب المحمدى الحكيم ، الذى كان ومازال أنجح الأساليب وأكملها وأتمها وأحسنها ، إنه الأسلوب الذى جمع بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب والحسم فى الأمر حينا والتدرج فيه أحيانا .

وكان من أسلوبه الحكيم ﷺ فى الدعوة أيضا تربية الأصحاب وحثهم على الصبر واحتمال الأذى ثم الجهاد فى سبيل الله وقتال المعتدين المعاندين . ومن أسلوبه الحكيم ﷺ فى الدعوة الأخذ بالأسباب الظاهرة ثم حسن التوكل على الله وطلب العون منه جل وعلا ، ومواجهة الأحداث بما يناسبها والتحرك فى الوقت المناسب ، واستشارة الأصحاب فى المهمات الخطيرة ، وعدم استقلاله ﷺ بالرأى من دونهم ، وصموده ﷺ أمام الصعاب ، ومقابلة المتاعب والمشاق بالصبر والرضى .

إلى غير ذلك مما تكفلت هذه الرسالة العظيمة ببيانه .

ولست أدعى أنى أحطت بسائر جوانب الأسلوب النبوى فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فذلك بحر من الحكمة لا ساحل له ، وقصارى جهدى أنى أشرت إلى أسلوبه الحكيم ﷺ فى الدعوة قولا وعملا ، ووفقت والحمد لله رب العالمين للوقوف على وجه الحكمة فى كثير من أقواله وأفعاله ﷺ .

ولا يزال الباب مفتوحا أمام الباحثين ليعثروا على أمثلة رائعة من أسلوبه الحكيم فى الدعوة ، وما أكثرها .

وأخيراً :

فما أشد حاجة الدعاة إلى ترسم أسلوبه ﷺ فى الدعوة والسير على نهجه دائما وأبداً ، لعل الإنسانية المعذبة تنجو بهذه الدعوة من ثعابين الدعوات الضالة والمضلة ، التى تتوخى دمار البشرية وشقاءها .

والحمد لله الذى تتم به الصالحات وسلام على عباده الذين اصطفى وجزى الله كل من أعانى وقدم لى يد المساعدة فى هذا البحث من شيوخى وأساتذتى وإخوانى وزملائى خير الجزاء ، وصلى الله وبارك على من آتاه الله الحكمة سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين .

المـــدينة المنورة
١٢ ربيع الأول
١٤٠٥ هـ

الفهارس

فهرس الآيات

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
		(٢) سورة البقرة	
١	٣٠	وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة	٣١٠
٢	٤٠	يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم	٣٤
٣	٧٥	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم	٢٩٩
٤	٨٣	وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل	٣٤
٥	٨٤	وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم	٢٨٠
٦	٨٩	ولما جاءهم كتاب من عند الله	٣٥
٧	١٠٥	ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب	٢٩٦
٨	١١١	سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية	٣٤
٩	١١٩	إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا	٤٩٠
١٠	١٢٠	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى	٣٩
١١	١٣٥	وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا	٥١
١٢	١٣٥	قل بل ملة إبراهيم حنيفا	٥٥
١٣	١٤٣	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	٥١٧
١٤	١٤٤	قد نرى تقلب وجهك فى السماء	٤٣٤
١٥	١٩٣	وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	١١٢
١٦	٢١٣	كان الناس أمة واحدة	١٤
١٧	٢٢٩	الطلاق مرتان	٥٢٥
١٨	٢٥٤	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم	٤٧٨

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
١٩	٢٥٦	لا إكراه فى الدين	٣٣
٢٠	٢٥٦	قد تبين الرشد من الغى	٣٣٦
٢١	٢٧٥	فمن جاءه موعظة من ربه	٤٩٠
٢٢	٢٨٥	آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه	١٢١

(٣) سورة آل عمران

١	١٢	قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم	٣٠٠
٢	١٩	إن الدين عند الله الإسلام	٢٨٨
٣	٥٩	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم	٤٢٧
٤	٦٤	يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء	٢٩٥
٥	٦٧	ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا	٣٩
٦	٦٧	ولكن كان حنيفا مسلما	٥٤
٧	٧٩	ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة	٤٢٨
٨	٨١	وإذ أخذ الله ميثاق النبيين	٩٩
٩	١٠١	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	٥١٠
١٠	١٠٣	واذكروا نعمة الله عليكم	٧٢
١١	١٠٣	واعتصموا بحبل الله جميعا	٢٣٠
١٢	١١٠	كنتم خير أمة أخرجت للناس	٤٩٧
١٣	١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم	٤٤٨
١٤	١٦٤	لقد من الله على المؤمنين	٥٧
١٥	١٦٩	ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا	٣٤٤
١٦	١٩٠	إن فى خلق السموات والأرض	٥٢٣

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
		(٤) سورة النساء	
١	١٢	ولكم نصف ما ترك أزواجكم	٥٢٥
٢	٣٦	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا	٥٢٦
٣	٤٨	إن الله لا يغفر أن يشرك به	٤٥٢
٤	٨٠	من يطع الرسول فقد أطاع الله	٤٥٠
٥	١٠٠	ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض	٢٤٨
٦	١٣٦	يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله	٤٩٧
		(٥) سورة المائدة	
١	٣	اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى	٢٨٧
٢	١٥	قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين	٣٥٢
٣	١٧	لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم	٤٢٧
٤	٣٣	إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله	٥٢٧
٥	٣٨	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	٥٢٧
٦	٥١	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود	٣٩
٧	٦٧	والله يعصمك من الناس	٢٠٤
		(٦) سورة الأنعام	
١	٨	وقالوا لولا أنزل عليه ملك	٢١٢
٢	٥١	ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى	٢١٠
٣	٧٤	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر	٢٠
٤	٩٠	قل لا أسألكم عليه أجرا	٣٥٥
٥	٩٢	ولتنذر أم القرى ومن حولها	٢٢٣

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
٦	٩٢	وهذا كتاب أنزلناه مبارك	١٩٣
٧	٩٥	إن الله فالق الحب والنوى	٥٢٣
٨	١٢٤	الله أعلم حيث يجعل رسالته	٧٧
٩	١٥١	قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم	٤٥٢
		(٧) سورة الأعراف	
١	١٣٨	فأتوا على قوم يعكفون	٢٠
٢	١٥٧	الذين يتبعون الرسول النبي الأمي	٢٨٩
٣	١٥٨	قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا	٣٥٢
٤	١٧٢	وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم	١٣
		(٨) سورة الأنفال	
١	٢٠	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه	٤٧٨
٢	٢٤	يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم	٤٧٩
٣	٣٠	وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك	٢٦٨
٤	٣٢	اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك	٤١٩
		(٩) سورة التوبة	
١	٤٠	إلا تنصروه فقد نصره الله	٣٥٦
٢	٤٠	وأيده بجنود لم تروها	٢٦٤
٣	١٠٨	لمسجد أسس على التقوى من أول يوم	٤٨٧
٥	١٢٣	يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار	٣٤٣
٦	١٢٨	لقد جاءكم رسول من أنفسكم	٤٤٨

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
		(١٠) سورة يونس	
١	٢	أكان للناس عجبا	١٦٧
٢	١٨	ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم	٢٦
٣	١٩	وما كان الناس إلا أمة واحدة	١٤
٤	٣١	قل من يرزقكم من السماء والأرض	٤٦٤
٥	٣٨	أم يقولون افتراه	١٦٤
٦	٩٤	فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك	١١٥
٧	١٠٨	قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم	٣٥٥
		(١١) سورة هود	
١	١٣	أم يقولون افتراه قل فأتوا	١٦٤
٢	٣٥	أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى	١٦٥
٣	٤١	اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها	٣١٧
٤	١٢٠	وكلا نقص عليك من أنباء الرسل	١١٥
		(١٢) سورة يوسف	
١	٥٣	إن النفس لأمارة بالسوء	٤٤٦
٢	١٠٤	وما تسألهم عليه من أجر	٣٥٥
		(١٣) سورة الرعد	
١	٣٦	قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به	٤٤٦

(١٤) سورة إبراهيم

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
١	١	الر . كتاب أنزلناه إليك	٣٥٥
٢	٥	وذكرهم بأيام الله	٤٩٠
٣	٣٥	وإذ قال إبراهيم رب اجعل	٢١
٤	٣٧	ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع	٧٨

(١٥) سورة الحجر

١	٩٤	فاصدع بما تؤمر	١١٢
٢	٩٥	إنا كفيناك المستهزئين	١٦٢

(١٦) سورة النحل

١	٣٦	ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا	٤٠٢
٢	٥٧	وإذا بشر أحدهم بالأنثى	٦٩
٣	١٠٣	ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه	١٦٦
٤	١١٢	وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة	٥٢٠
٥	١٢٣	ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم	٥٢
٦	١٢٥	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة	٢٦٢
٧	١٢٧	واصبر وما صبرك إلا بالله	١١٤

(١٧) سورة الإسراء

١	١٣	وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه	٥١٨
٢	٢٣	وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه	٥٢٦

عدد	رقم الآية	الآية	الصفحة
٣	٦٩	ولقد كرمنا بنى آدم	٧١
٤	٧٣	وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك	١١٦
٥	٨١	وقل جاء الحق وزهق الباطل	١١٢
٦	١١٠	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن	٣١٧
		(١٨) سورة الكهف	
١	٢٨	واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم	١١٤
		(١٩) سورة مريم	
١	٨٥	يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا	٤١٣
		(٢٠) سورة طه	
١	١٣١	ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم	١١٦
		(٢١) سورة الأنبياء	
١	٤	بل قالوا أضغاث أحلام	١٦٥
٢	١٠٧	وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١١٠
		(٢٢) سورة الحج	
١	٣٠	فاجتنبوا الرجس من الأوثان	١٩
٢	٣١	حنفاء لله غير مشركين به	٥٥
٣	٣٩	أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	٤٧٦
٤	٦٧	وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم	٤٤٥
		(٢٣) سورة المؤمنون	
١	٧٠	أم يقولون به جنة	١٦٤

عدد	رقم الآية	الآية	الصفحة
٢	١٠١	فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ	٥١٩
		(٢٤) سورة النور	
١	٢	الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة	٥٢٧
٢	٤	والذين يرمون المحصنات	٥٢٨
٣	٢٧	يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم	٥٢٤
٤	٥٤	قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٤٩٥
٥	٥٦	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٤٩٥
		(٢٥) سورة الفرقان	
١	١	تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا	٣٥٤
٢	٢٢	وقال الذين كفروا لولا نزل عليه	١١٥
٣	٤١	وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا	١٧٥
٤	٥٢	فلا تطع الكافرين وجاهدهم به	١١٣
٥	٦٨	والذين لا يدعون مع الله إلها آخر	٥٢٨
		(٢٦) سورة الشعراء	
١	٢١٤	وأنذر عشيرتك الأقربين	١٣٨
		(٢٧) سورة النمل	
١	٣٠	إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم	٣١٨
٢	٣٣	إنى وجدت امرأة تملكهم	٤٦
		(٢٨) سورة القصص	
١	٥١	ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون	٢٠٩

عدد	رقم الآية	الآية	الصفحة
٢	٥٢	الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون	٤١٩
٣	٥٦	إنك لا تهدى من أحببت	٢٠٩
٤	٧٧	وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة	٥٢٣
		(٢٩) سورة العنكبوت	
١	٨	ووصينا الإنسان بوالديه حسنا	١٣١
٢	١٧	إنما تعبدون من دون الله أوثانا	١٩
٣	٢٥	وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا	١٩
٤	٤٨	وما كنت تتلو من قبله من كتاب	٧٨
		(٣٠) سورة الروم	
١	٣٠	فأقم وجهك للدين حنيفا	١٤
٢	٣٠	فطرت الله التي فطر الناس عليها	١٥
		(٣١) سورة لقمان	
١	١٢	ولقد آتينا لقمان الحكمة	٤٨٣
٢	٢٥	ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض	١٦
		(٣٣) سورة الأحزاب	
١	٦	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	٤٩٦
٢	٩	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم	٤٨٠
٣	٢١	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة	٤٩٥
٤	٢٢	ولما رأى المؤمنون الأحزاب	٤٨٠
٥	٤٥	يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً	٤٤٥

عدد رقم الآية	الآية	الصفحة
	(٣٤) سورة سبأ	
١ ٢٨	وما أرسلناك إلا كافة للناس	٢٢١
٢ ٤٩	وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات	٧٢
	(٣٦) سورة يس	
٢ ٦٩	وما علمناه الشعر وما ينبغى له	٢٤٠
	(٣٨) سورة ص	
١ ٤	وعجبوا أن جاءهم منذر منهم	١٦٧
٢ ٥	أجعل الآلهة إلهاً واحداً	١٠٩
	(٣٩) سورة الزمر	
١ ٣	ألا لله الدين الخالص	١٠٨
٢ ٣	ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى	٧١
٣ ٣٨	ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض	٥٨
٤ ٥٣	قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم	٥٢٨
٥ ٦٥	ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك	١١٦
	(٤١) سورة فصلت	
١ ١	حم . تنزيل من الرحمن الرحيم	١٥٢
٢ ٣٤	ولا تستوى الحسنة ولا السيئة	٤٥٦
	(٤٢) سورة الشورى	
١ ١٥	فلذلك فادع واستقم	١١٢
٢ ١٥	آمنت بما أنزل الله من كتاب	٣٣٤

عدد	رقم الآية	الآية	الصفحة
		(٤٣) سورة الزخرف	
١	٤٣	فاستمسك بالذى أوحى إليك	١١٥
		(٤٥) سورة الجاثية	
١	٣	إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين	٥٢٢
		(٤٦) سورة الأحقاف	
١	٢٩	وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن	٢٠٣
٢	٣٥	فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل	١١٤
		(٤٧) سورة محمد	
١	٧	يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم	٣١٣
		(٤٨) سورة الفتح	
١	٨	إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً	٣٦٦
٢	٢٩	محمد رسول الله والذين معه	٣٣٦
		(٤٩) سورة الحجرات	
١	٤	إن الذين ينادونك من وراء الحجرات	٤٢٨
٢	١٠	واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين	١٤١
٣	١٥	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله	٤٩٧
		(٥٠) سورة ق	
١	٤٥	فذكر بالقرآن من يخاف وعيد	٤٩١
		(٥١) سورة الذاريات	
١	٥٥	وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين	٤٩١

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
٢	٥٦	وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	٤٦٣
		(٥٣) سورة النجم	
١	٣	وما ينطق عن الهوى	٤٩٦
٢	١٩	أفرأيتم اللات والعزى	٢٥
٣	٢٩	فأعرض عمن تولى عن ذكرنا	١٦٨
		(٥٥) سورة الرحمن	
٢	٢٦	كل من عليها فان	٤٥٣
		(٥٩) سورة الحشر	
٢	٧	وما آتاكم الرسول فخذوه	٤٥٠
٣	٨	للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم	٢٥٩
		(٦١) سورة الصف	
١	٦	وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل	٢٨٨
٢	١٠	يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة	٤٩٧
		(٦٢) سورة الجمعة	
١	٢	هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم	٥٧
		(٦٣) سورة المنافقون	
١	٨	ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين	٥١٥
		(٦٥) سورة الطلاق	
١	١	يا أيها النبى إذا طلقتم	٥٢٥
٢	٦	أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم	٥٢٥

عدد	رقم الآية	أول الآية	الصفحة
		(٦٦) سورة التحريم	
١	٩	يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين	١١٣
		(٦٨) سورة القلم	
١	١	ن . والقلم وما يسطرون	١٦٤
٢	٤	وإنك لعلى خلق عظيم	٤٩٩
٣	٥١	وإن يكاد الذين كفروا	١٦٤
٤	٥٢	وما هو إلا ذكر للعالمين	٣٥٥
		(٧٠) سورة المعارج	
١	٥	فاصبر صبراً جميلا	١١٤
		(٧٢) سورة الجن	
١		وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً	٢٧١
		(٧٣) سورة المزمل	
٢	١٠	واصبر على ما يقولون	٢٠٢
		(٧٤) سورة المدثر	
١	١	يا أيها المدثر ، قم فأنذر	٤٦١
٢	٢٣	ثم أدبر واستكبر	١٦٧
		(٧٨) سورة النبا	
١	٤٠	يوم ينظر المرء ما قدمت يداه	٤٥١
		(٨٧) سورة الأعلى	
١	٢	الذى خلق فسوى	٤٩٨

عدد	رقم الآية	الآية	الصفحة
		(٨٨) سورة الغاشية	
١	١٧	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت	٥٢٣
		(٩٢) سورة الليل	
١	١٤	ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى	٤٩٠
		(٩٣) سورة الضحى	
١	٣	ما ودعك ربك وما قلى	١٦٧
		(٩٨) سورة البينة	
١	١	لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب	٣٣٤
٢	٥	وما أمروا إلا ليعبدوا الله	٥٥
٣	٥	حنفاء ويقيموا الصلاة	٥٢
		(١٠٦) سورة قريش	
١	١	لإيلاف قريش	٤٠
		(١٠٨) سورة الكوثر	
١	١	إنا أعطيناك الكوثر	٢١١
		(١١١) سورة المسد	
١	١	تبت يدا أبي لهب	٤٨٥

فهرس الأحاديث

عدد	أول الحديث	الصفحة	الكتاب	الصفحة
	(١) الألف			
١	أتاه جبريل ذات يوم	٦٣	دلائل النبوة البيهقي	٥/٢
٢	إذا كان يوم القيامة	٤٥٣	صحيح الإمام البخاري	٨٩/٦
٣	أعطيت خمسا	٣١٠	صحيح البخاري	١٤٩/١
٤	أعطيت خمسا لم يعطهن	٣٥٧	مسند الإمام أحمد	٣٠٤/٣
٥	ألا إن ربي أمرني	١٦	مختصر مسلم للمنذري تحقيق الألباني	٥٢٣
٦	الله مولانا ولا مولى لكم	٢٦	تفسير ابن كثير	٢٧١/٤
٧	أما صاحبكم هذا	٣٥٦	فتح الباري لابن حجر	٣٠٢/٤
٨	إن الرفق لا يكون	٣٣٩	مختصر مسلم للمنذري تحقيق الألباني	٤٧٤
٩	إن الله اصطفاني	٦٢	دلائل النبوة للبيهقي	١٦٥/١
١٠	إن الله لا ينظر إلى	٥١٩	مختصر مسلم للمنذري تحقيق الألباني	٤٧٣
١١	أول ما بدئ به رسول الله	١٢٠	صحيح البخاري	٣/١
١٢	أول ما بدئ الوحي	١٠٤	فتح الباري لابن حجر	٢٥/١
١٣	أي عم قل لا إله إلا الله	١١٠	فتح الباري لابن حجر	١٩٤/٨
	(٢) الباء			
١٤	بعثت بجوامع الكلم	٣٢٨	فتح الباري لابن حجر	٤٦٩/٦
١٥	بينا أنا نائم رأيت ..	٤٢٤	صحيح الإمام البخاري	٥/٦
	(٣) الراء			
١٦	رأيت عمرو بن عامر	٢٤	صحيح الإمام البخاري	٢٢/٤

عدد	أول الحديث	الصفحة	الكتاب	الصفحة
	(٤) النساء			
١٧	فاطمة سيدة نساء	٥١٧	سنن النسائى	جـ ٦/٢٥٠
١٨	فإن خلق نبى الله	٤٤٩	النووى على مسلم	جـ ٥/٢٦
	(٥) الكاف			
١٩	كان صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه	٥٠٠	مختصر الشمائل للترمذى تحقيق الألبانى	١٨١
٢٠	كان يوم بعاث	٢٨٦	فتح البارى لابن حجر	جـ ٨/١١١
٢١	كيف يأتيك الوحى	١٠٣	فتح البارى لابن حجر	جـ ١/٢٣
	(٦) اللام			
٢٢	لأبعثن معكم رجلا أمينا	٤٢٦	صحيح الإمام البخارى	جـ ٦/٥
٢٣	لأعطين الراية غداً	١١٠	فتح البارى لابن حجر	جـ ٨/٧٢
٢٤	لا هجرة بعد ثلاث	٢٤٧	النووى على مسلم	جـ ١٦/١١٨
٢٥	لقد كان من قبلكم	١٨٠	فتح البارى لابن حجر	جـ ٨/١٦٥
٢٦	لو أن بعضهم طأطأ بصره	٢٥٥	فتح البارى لابن عمر	جـ ٨/٢٦٠
	(٧) الميم			
٢٧	ما بعث الله نبيئا	٩١	صحيح الإمام البخارى	جـ ١/٣٧٥
٢٨	ما دعوت أحداً	١٢٩	جامع الأصول	جـ ٨/٥٨٥
٢٩	ما من مولود إلا يولد على الفطرة	١٥	مختصر مسلم للمنذرى تحقيق الألبانى	٤٨٩
٣٠	ما من مؤمن إلا وأنا	٤٩٧	صحيح الإمام البخارى	جـ ٦/٢١٠
٣١	مثل المؤمنين فى توادهم	٢٦٩	النووى على مسلم	جـ ١٦/١٤٠
٣٢	مرحبا بابنتى	٥١٨	النووى على مسلم	جـ ١٦/٦
٣٣	من عادى لى وليا	٥٢١	صحيح الإمام البخارى	جـ ٩/١٨٩
٣٤	من يحرم الرفق يحرم	٣٣٩	مختصر مسلم للمنذرى	٤٧٤

عدد	أول الحديث	الصفحة	الكتاب	الصفحة
٣٥	مهلا يا عائشة	٣٣٨	فتح الباري لابن حجر	ج ١٣/٥٧
	(٨) الهاء			
٣٦	هم أشد أمتي على الدجال	٤٣٠	صحيح الإمام البخاري	ج ٥/٢٣٣
	(٩) الواو			
٣٧	والذي نفس محمد بيده	٣٥٦	صحيح الإمام مسلم	ج ١/١٣٤
٣٨	وإن من البيان لسحر	٣٤٠	مختصر مسلم للمنذري تحقيق الألباني	١١٣
٣٩	ولكني بعثت بالحنيفية	٥٧	مسند الإمام أحمد	ج ٥/٢٦٦
	(١٠) الياء			
٤٠	يا أكتم رأيت عمرو	٢٤	سيرة ابن هشام	ج ١/٧٨
٤١	يا رسول الله هذه خديجة	١٨٨	فتح الباري لابن حجر	ج ٨/١٣٨
٤٢	يا عائشة إن الله رفيق	٣٣٩	مختصر مسلم للمنذري تحقيق الألباني	٤٧٤
٤٣	يا فاطمة بنت محمد	٥١٧	سنن النسائي	ج ٦/٢٥٠

المراجع

أولا : القرآن الكريم :

ثانياً : كتب التفسير :

١ ـــ التفسير الكبير : محمد الرازى فخر الدين ، دار الفكر .

٢ ـــ الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد القرطبى ، دار الكتاب العربى .

٣ ـــ تفسير ابن كثير : عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر ، مكتبة النهضة الحديثة بالقاهرة .

٤ ـــ جامع البيان فى تفسير القرآن : أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعرفة بلبنان .

٥ ـــ فى ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق .

٦ ـــ لباب التأويل فى معانى التنزيل : علاء الدين بن على بن محمد الخازن ، دار الفكر بيروت .

٧ ـــ معالم التنزيل : أبى محمد الحسين بن مسعود البغوى، دار الفكر بيروت.

ثالثاً : كتب الحديث الشريف :

٨ ـــ النووى على مسلم : أبو زكريا يحيى بن أشرف النووى ، دار الفكر لبنان ط ٣ ، ٩٨ هـ .

٩ ـــ جامع الأصول : مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى ـ مطبعة الملاح بدمشق .

١٠ ـــ سنن ابن ماجة : محمد بن يزيد القزوينى ، المكتبة العلمية . بيروت.

١١ ـــ سنن الترمذى : محمد بن عيسى بن سورة . مكتبة ومطبعة البابى الحلبى بمصر .

١٢ — سنن النسائى : أحمد بن شعيب النسائى . المكتبة العلمية بيروت .

١٣ — صحيح البخارى : محمد بن إسماعيل البخارى . عالم الكتب بيروت .

١٤ — صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابورى . دار إحياء التراث العربى . بيروت .

١٥ — فتح البارى : أحمد بن على بن محمد بن حجر . شركة البابى الحلبى بمصر .

١٦ — مختصر صحيح مسلم : عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى . المكتب الإسلامى .

١٧ — مسند الإمام أحمد : أحمد بن حنبل . المكتب الإسلامى .

رابعاً : كتب السيرة والتاريخ :

١٨ — أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة . دار الفكر العربى بالقاهرة .

١٩ — أحمد بن الحسين البيهقى : دلائل النبوة . دار الكتب العلمية بيروت .

٢٠ — أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى . مكتبة النهضة بمصر .

٢١ — أحمد محمد عساف : قبسات من حياة الرسول . دار إحياء العلوم بيروت .

٢٢ — إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية . دار الكتب العلمية بيروت .

٢٣ — أكرم ضياء العمرى : المجتمع المدنى فى عهد النبوة . الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٢٤ — أمين دويدار : صور من حياة الرسول . دار المعارف بمصر .

٢٥ — جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين بيروت .

٢٦ — حامد عبد القادر : الإسلام ظهوره وانتشاره . مكتبة النهضة بمصر .

٢٧ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام . دار الكتاب العربى بيروت .

٢٨ — عبد الرحمن بن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى . دار الكتب الحديثة بمصر .
٢٩ — عبد الرحمن السهيلى : الروض الأنف . دار المعرفة بيروت .
٣٠ — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : تاريخ ابن خلدون . دار الفكر للطباعة والنشر بلبنان .
٣١ — عبد الكريم الخطيب : النبى محمد ﷺ . دار المعرفة بيروت .
٣٢ — عبد المجيد الهاشمى : الرسول العربى المربى . دار الهدى للنشر بالرياض .
٣٣ — عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية . مطبعة مصطفى الحلبى بمصر .
٣٤ — على بن أبى الكرم محمد بن محمد الشيبانى : الكامل فى التاريخ . دار الكتاب العربى لبنان .
٣٥ — على بن أحمد المسهودى : وفاء الوفاء . إحياء التراث العربى .
٣٦ — على حافظ : فصول من تاريخ المدينة . شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة .
٣٧ — عفيف طبارة : اليهود فى القرآن . دار العلم للملايين بيروت .
٣٨ — عياض بن موسى اليحصبى : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . دار الكتاب العربى بيروت .
٣٩ — محمد إبراهيم الجيوشى : كتب رسول الله . محاضرة مطبوعة .
٤٠ — محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية : زاد المعاد . مؤسسة الرسالة .
٤١ — محمد أبو فارس : فى ظلال السيرة النبوية . دار الفرقان للنشر والتوزيع .
٤٢ — محمد أحمد جاد المولى : محمد المثل الكامل . مكتبة صبيح بالقاهرة .
٤٣ — محمد الخضرى بك : تاريخ الأمم الإسلامية . المكتبة التجارية بمصر .
٤٤ — محمد الخضرى بك : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . علوم القرآن دمشق .

٤٥ — محمد بن إسحاق المطلبي : السير والمغازي . دار الفكر .
٤٦ — محمد الصادق إبراهيم عرجون : محمد رسول الله . دار القلم دمشق .
٤٧ — محمد الغزالي : فقه السيرة . دار الكتب الحديثة بمصر .
٤٨ — محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك . دار سويدان بلبنان .
٤٩ — محمد حسين هيكل : حياة محمد . مكتبة النهضة المصرية .
٥٠ — محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية . دار النفائس .
٥١ — محمد رشيد رضا : الوحي المحمدي . المكتب الإسلامي بيروت .
٥٢ — محمد بن سورة الترمذي : الشمائل المحمدية . دار العلم للطباعة والنشر بجدة .
٥٣ — محمد بن سعد : طبقات ابن سعد . دار صادر للطباعة بيروت .
٥٤ — محمد بن طولون الدمشقي : إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين . مؤسسة الرسالة بيروت .
٥٥ — محمد بن عبد الله الأزرقي : أخبار مكة . دار الثقافة بمكة المكرمة .
٥٦ — محمد بن عزة دروزة : تاريخ بني إسرائيل . المكتبة العصرية لبنان .
٥٧ — محمد بن محمد بن سيد الناس : عيون الأثر . دار الآفاق الجديدة بيروت .
٥٨ — محمد يوسف الشامي : سبيل الهدى والرشاد . لجنة إحياء التراث .
٥٩ — محمد يوسف الكاندهلوي : حياة الصحابة . دار الفكر .
٦٠ — محمود شاكر : التاريخ الإسلامي . المكتب الإسلامي بيروت .
٦١ — محمود شكري الآلوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . دار المكتب العلمي بيروت .
٦٢ — مصطفى السباعي : السيرة النبوية . المكتب الإسلامي .
٦٣ — نذير حمدان : الرسول في كتابات المستشرقين . رابطة العالم الإسلامي بمكة .
٦٤ — هشام بن محمد الكلبي : الأصنام . الدار المصرية للتأليف بالقاهرة .

خامساً : كتب التراجم :

٦٥ — أحمد بن على بن محمد العسقلانى بن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة . دار الكتب العلمية .

٦٦ — خير الدين الزركلى : الأعلام . دار العلم للملايين بيروت .

٦٧ — محمد بن سعد : طبقات ابن سعد . دار صادر للطباعة بيروت .

٦٨ — مصطفى العلوى الرافعى : عنوان النجابة فى معرفة من مات بالمدينة من الصحابة . دار الكتاب العربى بمصر .

٦٩ — على بن أبى الكرم محمد بن محمد : أسد الغابة . دار إحياء التراث العربى .

سادساً : كتب المعاجم :

٧٠ — أ . ى . ونسنك : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث . مكتبة بريل .

٧١ — عبد الله بن محمد الغنيمان : دليل القارىء إلى مواضع الحديث فى صحيح البخارى . الجامعة الإسلامية .

٧٢ — مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز . المركز العربى للثقافة والعلوم .

٧٣ — محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . دار الفكر العربى بالقاهرة .

٧٤ — محمد فؤاد عبد الباقى : مفتاح كنوز السنة . دار إحياء التراث العربى بيروت .

٧٥ — محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . المكتبة الإسلامية بتركيا .

٧٦ — محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب . دار صادر بيروت .

٧٧ — محمد بن يعقوب الفيروزأبادى : القاموس المحيط . دار الجيل بيروت .

سابعاً : كتب أخرى :

٧٨ — أحمد بن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . مطابع المجد التجارية .

٧٩ — أحمد شوقى : الشوقيات . دار الكتاب العربى ببيروت .
٨٠ — أحمد فايز : طريق الدعوة فى ظلال القرآن . مؤسسة الرسالة .
٨١ — البهى الخولى : تذكرة الدعاة . مكتبة الفلاح بالكويت .
٨٢ — توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . مكتبة النهضة .
٨٣ — حسن البنا : الدعوة والداعية . المكتب الإسلامى .
٨٤ — صالح لمعى مصطفى : المدينة المنورة تطورها العمرانى . دار النهضة العربية .
٨٥ — عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول . دار إحياء العلوم ببيروت .
٨٦ — عبد الرحمن حنبكة الميدانى : مبادى فى الأدب والدعوة . دار القلم دمشق .
٨٧ — عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة . مكتبة المنار الإسلامية .
٨٨ — على محمد جريشة : التخطيط للدعوة . رابطة العالم الإسلامى بمكة .
٨٩ — فتحى يكن : كيف ندعو إلى الإسلام . مؤسسة الرسالة .
٩٠ — محمد إبراهيم الجيوشى: مسار الدعوة فى العهد المكى. مطبعة حسان القاهرة .
٩١ — محمد إبراهيم شقرة : ركائز الدعوة فى القرآن . المكتبة الإسلامية بعمان بالأردن .
٩٢ — محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية : هداية الحيارى . مكتبة المعارف بالرياض
٩٣ — محمد أمين حسن : خصائص الدعوة الإسلامية ، مكتبة المنار بالأردن.
٩٤ — محمد أمين المصرى : سبيل الدعوة الإسلامية . دار الأرقم بالكويت .
٩٥ — محمد سعيد البوطى : فقه السيرة . دار الفكر .
٩٦ — محمد عبد الرءوف بهنسى : الإسلام ونزعة الفطرة . دار العروبة القاهرة.
٩٧ — محيى الدين الألوائى : منهاج الدعاة . شركة عكاظ للنشر بجدة .
٩٨ — مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن . دار الكتاب العربى .

المحتـــوى

الموضوع	رقم الصفحة
الأسلوب النبوى فى الدعوة	١
الإهـــداء	٣
المقـــدمة	٥
الباب الأول	
الأديان فى جزيرة العرب قبل الإسلام	١١
الفصل الأول : الوثنية	١٧
الفصل الثانى : اليهودية	٢٩
الفصل الثالث : النصرانية	٣٧
الفصل الرابع : عبدة الكواكب	٤٣
الفصل الخامس : الحنفاء	٤٩
الباب الثـــانى	
إعداد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم	٥٩
الفصل الأول : الحاجة الماسة إلى الدعوة الجديدة	٦٧
الفصل الثانى : الرسول فى طفولته وصباه	٧٥
الفصل الثالث : الرسول فى شبابه	٨٧
الفصل الرابع : بدء الوحى والرسالة	٩٧
الباب الثالث	
الأسلوب النبوى للدعوة فى العهد المكى	١٠٥
الفصل الأول : مرحلة النبوة وأهدافها	١١٧
الفصل الثانى : الفترة السرية للدعوة	١٢٣
الفصل الثالث : الجهر بدعوة أهل مكة	١٣٥
الفصل الرابع : الانتقال بالدعوة إلى خارج حدود مكة	١٨١

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الخامس : فى طريق الهجرة	٢٤٥
الباب الرابع	
الأسلوب النبوى للدعوة فى العهد المدنى	٢٦٥
الفصل الأول : مجتمع المدينة وتنظيماته	٢٧٦
الفصل الثانى : مع أهل الكتاب	٢٨٥
الفصل الثالث : دعوة قبائل الجزيرة العربية	٣٠٧
الفصل الرابع : دعوة حكام العالم والكتابة لهم	٣٤٩
الفصل الخامس : الوفود ونتائجها	٤١١
الباب الخامس	
الدروس المستفادة من الأسلوب النبوى فى الدعوة	٤٤٣
الفصل الأول : التدرج فى الدعوة	٤٥٧
الفصل الثانى : تربية الأصحاب	٤٦٦
الفصل الثالث : الحكمة والموعظة الحسنة	٤٨١
الفصل الرابع : الاقتداء بالرسول فى مواجهة الأحداث	٤٩٣
الفصل الخامس : الاعتزاز بالعقيدة قبل النسب	٥١١
الخاتمة	٥٢٩
فهرس الآيات	٥٤١
فهرس الأحاديث	٥٥٥
المراجع	٥٥٩
المحتوى	٥٦٥